

أوجست موليراس
Auguste MOULIERAS

المغرب المجهول

الجزء الأول



اكتشاف الريف

٨٤٨٧٠٤٥ ٤٨ ٨٤٧٠٨٨٨
٤٨٨٤١٠٨٤٨

ترجمة وتقديم

د. عبد الدين الخطابي

2007

الكتاب: المغرب المجهول، الجزء الأول، اكتشاف الريف.

المؤلف: أوغست موليراس Auguste MOULIERAS

المترجم: عز الدين الخطابي

رقم الإيداع القانوني: 0519 / 2007

ملاحظات: تقرر أن اء ريف

الطبعة: 2007

المطبعة: دار النجاح الجديدة

الإهداء

إلى زوجتي الريفية الأصيلة،
وللى أبنائنا.

إلى كل مدافع عن قيم التعدد والاختلاف.

إلى روح القلوب الشرفاء،
وللى الناشطين من أجل خير هذا الوطن من الأحياء.

عن الدين الخطابي

DEPOT LEGAL
ORAN 4.02723
N° 1

LE



MAROC INCONNU

Conserver la Couverture

22 ans d'explorations dans cette contrée mystérieuse, de 1872 à 1893.

IMPORTANTES RÉVÉLATIONS de voyageurs musulmans sur le pays, les habitants, les mœurs, coutumes, usages ; industries commerciales, agricoles, manufacturières ; richesses minérales, forestières, pastorales ; population, forces militaires, administration, langues, races, etc.

7678

PAR

Auguste MOULIÉRAS

*Professeur à la Chaire de Langue et de Littérature arabes à Oran
Ancien Interprète titulaire de l'Armée française et du Gouvernement Général de l'Algérie
Ancien Professeur d'Arabe aux Lycées de Constantin et d'Oran
Auteur de plusieurs Ouvrages relatifs aux Langues arabe et berbère*

« Le Maroc, pays africain incomparable,
« qui sera un jour, espérons-le, le plus beau
« fleuron de la couronne coloniale de la France »

(V. p. 81).

PREMIÈRE PARTIE

EXPLORATION DU RIF (Maroc Septentrional)

Avec Cartes inédites du Rif et de chaque Tribu (hors texte) — 1/200,000

Propriété de l'Auteur. — Tous droits réservés

En dépôt à Paris à la Librairie Coloniale et Africaine, JOSEPH ANDRÉ,
rue Bonaparte, 27

— DECEMBRE 1893 —

03
133

مقدمة المترجم

مفارقات الخطاب الإثنوغرافي

ولما ترجم هذا الكتاب الممتع والمتميز، تبادرت إلى ذهني أسئلة عديدة، مستحضر وتضج مع نوعي صحبة المؤلف، في غابات ووديان وجمال وقبائل الريف، لتتبلور بشكل واضح مع نهاية آخر سطر من هذا الكتاب. ويمكن صياغة هذه الأسئلة كما يلي:

- ما هي الأهمية التي يكتسبها الآن، عمل إثنوغرافي أنجز حول منطقة الريف في أواخر القرن التاسع عشر؟
- ما هو الموقع الذي يحتله هذا العمل بين "الموضوعية العلمية" و"التبرير الإيديولوجي والسياسي" للاستعمار وتحديد الاستعمار الفرنسي؟
- أين تتجلى مفارقات الخطاب الإثنوغرافي لموليراس حول الريف وأهله؟ وما هي الدروس المستخلصة من هذا الخطاب؟

1- مدى أهمية هذا العمل الإثنوغرافي

يترجم مؤلف لوجست موليراس الصادر بهران سنة 1895، والذي اختار له عنوانا رئيسيا هو "المغرب المجهول"، وعنوانا فرعيا هو "اكتشاف الريف"، ضمن الاهتمام الذي أولته أوروبا للمغرب. وهو الاهتمام الذي يمكن أن نموقعه عبر ثلاثة مستويات: سياسية واقتصادية وثقافية.

على المستوى السياسي: كان لهزيمة المغرب في معركة لملي ضد فرنسا سنة 1844 وفي تطوان ضد إسبانيا سنة 1860، أثرهما في تسريع وتيرة اهتمام الباحثين الأوروبيين بالمجتمع المغربي الذي كان يكتسب في مخيلتهم طابعا غائبا. هكذا تعددت البعثات والرحلات إلى المغرب وظهرت في هذا الإطار أسماء وزنة في مجال الإثنوغرافيا والجغرافيا والعلوم القانونية والسياسية، ساهمت عبر مراسلاتها وملاحظاتها الإدارية ومقالاتها وكتبها، في تقديم صورة عن بلدها، ليس الهدف منها فقط هو إشباع فضول القارئ العادي، بل أيضا وأساسا، تقديم معلومات حيوية لأصحاب القرار السياسي والعسكري في أوروبا، في مرحلة التوسع الاستعماري

لهذه الأخيرة ومن بين هذه الأسماء نذكر: دو مكنازي De Mackenzie (إنجلترا، 1871 -
 1872)، لانز Lenz (ألمانيا، 1879 - 1880)، بينيتز benitez (إسبانيا، 1872 -
 1880)، شارل دو فوكو Ch. De Foucauld (فرنسا، 1883 - 1884).

على المستوى الاقتصادي: إن الاتفاقيات التجارية التي تمت بين المغرب وبعض
 البلدان الأوروبية في القرن التاسع عشر - كما هو شأن مع إنجلترا سنة 1856 أمثلا - سمحت
 بفتح الأسواق المغربية على التجارة الرأسمالية ومهدت لظاهرة الحماية القنصلية. وبذلك اشككت
 المنافسة بين الأوروبيين وتعددت بعثاتهم ورحلات مكتشفهم، لترسخ تواجدهم بهذا البلد. هكذا
 سيتواجد بهذا الأخير نوعان من الاستثمار:

- استثمار اقتصادي ذو خلفية سياسية، تروم بالأساس، استغلال خيرات بلندا.
- استثمار على مستوى المخيلة، يقدم أحكاما وتصورات حول المجتمع المغربي،
 مطبوعة بالفرقة الغرائبية *exotisme* وبمركزيتها الغربية.¹

على المستوى الثقافي: كان لتطور حقل الاستشراق والعلوم الاجتماعية اثره في
 صياغة وبلورة صورة خاصة عن الآخر (الشرق)، ظلت خاضعة لمجموعة من المرتكزات،
 يمكن تلخيصها في ما يلي:

- تصورها الميتافيزيقي لثقافات الآخر.
- ارتباطها الكلي أو الجزئي بالسياسة الاستعمارية.
- نكهتها الشرقية.

وهذا ما أكد عليه المفكر الفلسطيني الراحل، إدوارد سعيد، حينما اعتبر بأن الشرق
 « يعاين بوصفه شيئا وجوده معروف دائما للغرب، ويوصله أيضا شيئا بقي ثابتا في الزمان
 والمكان من أجل الغرب. لقد كانت تعالجت الاستشراق بوصفية والنصبة من الضخامة
 والتأثير، بحيث أن مراحل كاملة من تاريخ الشرق الثقافي والسياسي والاجتماعي، تعتبر الآن

¹ - M. Alaoui Belhiti, *F ès lieu d'écriture*, Ed. Afrique Orient, casablanca, 1988, pp. 12 - 13.

مجرد استجابات للغرب. المغرب هو المشهد والحكم والمطوون، لكل وجه من أوجه سلوكه الشرق...²

ورغم اقتضات الطائفة على مناهج الغربيين واستفادتهم من معطيات العلوم الاجتماعية (إثنوغرافيا، إثنولوجيا، تاريخ اقتصادي، إلخ...)، فإن هذا القفص المعرفي سيتم استنساخه في إطار " المنظومة المرجعية الغربية " التي تعتبر كمسار كوني للحكم، ويقتضي ميثل الآخر (أي نحن) خاضعا لهذا النموذج الغربي الأمثل الذي تشكل نزعة ذاتية عاكسا لأم أي تصور موضوعي ثقافة الآخر.³

وفي هذا الإطار، تشكل الأبحاث والدراسات حول المغرب، مجالاً لمراكمة المطومات حول عادات وتقاليد وسلوكيات أهله، من أجل استنساخها السياسي والإثنولوجي فيما بعد. ويتم ابتداء من سنة 1904، تأسيس ما يعرف بالهيئة العلمية بالمغرب، يتخيز من الإثنوغرافيا الفرنسي موشو - بيلير Michaux - Bellaire ، وهو ما يعتبر نقطة انطلاق مؤسسية للأبحاث حول المغرب منكمه موشيا من طرف سلطات الحماية، وتحديدا من طرف ليوطي. ويستج عن تلك إصدار " الأرشيفات المغربية " و " مجلة العلم الإسلامي ". وابتداء من سنة 1920 يظهر أول عدد من مجلة " هسبريس Hesperis " فاذاعة الصوت، التي ستحل محل " الأرشيفات الأمازيغية " التي كانت تصدر عن المدرسة الفرنسية الأمازيغية التي أسست بالرباط سنة 1914.

ومما لا شك فيه، أن هذه " الحركة العلمية " قد سمحت بمراكمة مطومات وفرة حول العادات والتقاليد المغربية، ليس بالحواضر فقط، ولكن أيضا وبخصوصا بالبوادي والقرى والمناطق الجبلية التي متخلف في كثير من الأحيان في حالة " بلاد النوبة "، التي لا تخضع للنظام المغربي. غير أن هذا التزكم السرفي كان يخضع في مجمله لمقتضيات مزيجية استعمارية، مما جعل خطابه ملتبها ومفارقة، فما هي أوجه هذا الالتباس وهذه المفارقة؟

² - إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الانتشاء، ترجمة كامل أبو ذيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت الطبعة 1. 1981. ص. 132.

³ - ج. هانن القطامي، " مكسيم رودنسون والاستشراق "، مجلة الثقافة الجديدة، عدد 30، السنة السابعة، 1983، ص. 102.

2- مفارقات الخطاب الإثنوغرافي:

يمكن تحديد هذه المفارقات عبر ثلاثة مستويات وهي:

- علاقة العلمي بالسياسي
- النظرة الثقافية للمجتمع المغربي
- أهمية هذه الدراسات بالنسبة للتفكير السوسيولوجيا وإثنولوجيا المغرب.

2-1: المستوى الأول:

إن أبرز ما يميز الخطاب الإثنوغرافي هو محاولته الجمع بين الصرامة العلمية التي تقتضيها منهجية العلوم الاجتماعية والمصلحة السياسية للوطن الأم (فرنسا، إسبانيا، إنجلترا، ألمانيا، إلخ...). وهذا التجاور، أو بالأحرى هذا التداخل بين العلم والسياسة، هو الذي يمسك لقلب خطاب الباحثين الاجتماعيين الغربيين وصعوبة التزامهم بـ " الموضوعية العلمية ". وقد سبق للباحث المغربي فوزي مرورو أن ألهن عن هذا الالتباس بخصوص أعمال ميشو بيلير والهدف من تأسيس " البعثة العلمية "، حيث تسامح قائلا: « إذا كان هدف " البعثة العلمية " هو القيام بدراسة موضوعية حول المغرب، نرغم معرفة الواقع من أجل السيطرة عليها؛ وإذا كانت هذه السيطرة تتضمن تبريرات مفروضة، فإن تسقط هذه المؤسسة بالتالي في تناقض لا يمكن تجاوزه على ما يبدو، لتناقض يتمثل في محاولة معرفة الواقع بغرض تشويهه، وغبة في استئصاله لأغراض خاصة؟⁴ ».

2-2: المستوى الثاني: يعتبر نتاجا لالتباس الخطاب الإثنوغرافي وتأرجحه بين

" المطلب العلمي " و " المصلحة الخاصة "، حيث خضع تصور المجتمع المغربي لثنائية قديمة على مجموعة من التقلبات مثل: بلاد المغزن / بلاد السبية، العرق العربي / العرق الأمازيغي، الشرع / العرف، المجتمع الحضري / المجتمع القروي، الإسلام الرسمي / الإسلام الشعبي، سلطة الجماعة / سلطة الدولة إلخ... وبدل استثمار هذه التقلبات باعتبارها انعكاسا لظن الواقع المغربي وتعدديته وتكون أشكاله الاجتماعية والثقافية، فقد تم التعامل معها بشكل تجزئي

⁴ - M.F. Hourero, *Sociologie politique coloniale au Maroc*, cas de Michaux Bellaire, Ed. Afrique Orient, Casablanca; 1988, pp 23- 24.

واختزالي، حيث تمت معالجة كل مكون من مكونات هذه التقلبات، بمعزل عن الآخر، ولم تحدد العلاقات الظاهرة أو الخفية بين أحكام الشرع وأحكام العرف مثلا، أو بين تدبير الجماعة لشؤون القبيلة والتدبير المغزني لشؤون البلاد، أو بين إسلام الزوايا والمعتقدات التي ترجع إلى عهود سحيقة، والإسلام المذهبي المقنن. وهذا ما دفع الباحثة الموسيولوجي الراحل بول باسكون P.Pascon إلى القول: « بأن الفصل الأصلا لفتت بالجوانب الجزئية للمجتمع المغربي (...) لذلك فإن هذا الأخير لم يدرس في كليته سوى بطريقة سطحية جدا وغير متكاملة ».⁵

2-3: أهمية هذه الدراسات بالنسبة لتأسيس سوسيولوجيا وإثنولوجيا

مغربية:

ومع ذلك، فإن هذه الأبحاث والدراسات الإثنوغرافية والتاريخية والسوسيولوجية والقانونية والجغرافية، تشكل ثروة وثائقية هامة لا غنى عنها لمعرفة الواقع المغربي في إحدى فتراته الأكثر غموضا، ونقصد بذلك الفترة ما قبل الاستعمارية. وتتجلى هذه الأهمية على ثلاثة مستويات على الأقل:

- فهي قد مكنت من استخدام مناهج العلوم الاجتماعية لدراسة وفهم واقع المجتمع المغربي.

- كما أن الموضوعات الخاصة بالملاحظة والتحليل، كانت متنوعة بشكل كبير وأبانت عن تعدد الثقافات وخصوصيتها وتفاعلها مع البيئة المحيطة بها.

- ومن جهة ثالثة، ساهمت في التمهيد لقيام سوسيولوجيا وإثنولوجيا تهتمان بالواقع الاجتماعية بمغرب ما بعد الاستعمار، والتي جعل لواءها باحثون مثل أندري آدم A. Adam، صاحب العمل الضخم حول الدار البيضاء، وبول باسكون وعبد الكريم خطيب وعبد الله حمودي، إلخ...

وهذا وجه آخر، لمعارفات الأدبيات الإثنوغرافية. فهي وإن كانت " إرادة المعرفة " لديها تروم خدمة " الإدارة الاستعمارية "، إلا أنها ساهمت، بشكل غير مباشر، في وضع أرضية للنقاش حول طبيعة المجتمع المغربي وأنماط العلاقات بين مكوناته، سواء على المستوى الأثني (بين السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين)، أو على المستوى العرقي (بين هؤلاء وبين المؤرخين وعلماء الاقتصاد والسياسة).

⁵ - Paul Pascon, *Etudes rurales*, S.M.E.R., Rabat, 1980, p.197

لذلك، لا يمكن تجاهل التأثير الذي مارسته هذه الجغرافيا على مسار الأبحاث الاجتماعية، أولاً بسبب هي الأنوات المستعملة من طرف باحثيها والمناهج والطرق التي ابتكروها لدراسة الوقائع (مؤرخيات، تحقيقات...) وثانياً، بفعل الرحلات التي سطرها على قاعين (الموسمين والاقتصاديين) في مغرب ما بعد الاستقلال. وثالثاً، نظراً للتحديات التي متضمنها علم الباحثين المغاربة، لخصوص مفاهيمها وأطروحاتها المتعلقة بالبنيات الاجتماعية والثقافية والفلسفية لمغرب ما قبل الاستعمار.

ونتناول في هذا الإطار: بأي معنى تطبق هذه الأحكام على عمل مولييراس حول قريف؟ أو بصورة أخرى، أين تكمن مغالطات خطاب هذا الجغرافي والباحث القروي؟

3 - التباس ومغالطة الخطاب الجغرافي لمولييراس:

في أول ما يثير انتباه قارئ هذا الكتاب، هو اعتراف مولييراس الصريح بأنه لم يطمأ أرض القريف أبداً، على عكس الرحلة الجغرافية الآخرين الذين زاروا المغرب (ملاكزي، دولوكو مثلاً). وهذه أول مغالطة يمكن تلمسها: إذ كيف يمكن تقديم معلومات دقيقة عن عادات وتقاليده وسلوكيات شعب ما، دون الاحتكاك به ميدانياً؟ طبعاً، إن مولييراس سيجادل بأننا إذا تأملنا ما قدم به، انطلاقاً من ثلاث حجج يعتبرها دافعة:

3 - 1: فهو قد اعتمد على مخبر قل نظيره، وهو القبيلي محمد بن الطيب (المتوفى بالندويش) الذي سيجول في ربوع قريف مدة تفوق العشرين سنة (ما بين 1872 و 1893)، حيث سينقل إلى مولييراس كل ما عاينه وعاشه من أحداث ووقائع. وطبعاً، فإن هذا القبيلي استطاع في يومه أملي المنطقة بأنه ريفي مثله.

3 - 2: ولكي لا يتعرض عليه أحد، يكون ما أتى به هذا المخبر، قد يكون عبارة عن روايات لا أساس لها من الصحة، فإن مولييراس كان يفتنم فرصة تولد الريفيين بوهان - للعمل بالقلعة - للتأكد من صدق أقوال الندويش، عبر المقارنة بين مختلف الروايات التي يتلقاها.

3 - 3: أما الحجة التي يعتبرها مولييراس حاسمة، والتي هي بمثابة تحد لكل متشكك في الأخبار الواردة في مؤلفه، فقد عبر عنها بقوله: « التفتوا هذا الكتاب، ولو تقفوا أي ريفي التفتوا

به، متعلما كان أو جاهلا، وانزلوا عليه الجزء المتعلق بقبيلته وبالمناطق التي يعرفها،
وسكون رد قطه بمثابة دقة لي أو إثبات لما قلته»⁶

وقد قام موليراس نفسه بهذه التجربة، وكانت النتيجة أن مخاطبيه من الريفيين ذهبوا من
دقة المعلومات المتوفرة لديهم، بل إنهم سمدونه بمعلومات جديدة كان لها تأثير إيجابي على مسار
تأليف الكتاب.

ومع ذلك، فإن الجانب الذاتي في عملية سرد الوقائع والأحداث، قد طغى كثيرا، بل إن
مزاجية الصيغ كانت هي المحددة في بعض الأحيان لأحكامه وتصويراته. مثلا، يكفي أن يسلبه
فرد من قبيلة ما لسمته، ليصبح أهلي تلك القبيلة جميعهم نمونجا للخداع والظلم وقطع لطريق
إلخ... بالمقابل، فإن القاتل الذي أكرمت ضيافة الدرويش، مستعبر نمونجا للشهامة والسخاء
والطيوبة. أضف إلى ذلك، أن هذا الجانب الذاتي قد غلب أيضا في نقل بعض المعدات إلى درجة
تصبح معها أقرب إلى الأسطورة منها إلى الواقع. (نشير هنا إلى سرد وقائع الكرنفال بنسملان
والحدث عن فروسية بني بويحيى وعن الاقتال بين أفراد بني ورياغل في الأسوق إلخ...).
ونقصد بذلك أن هذه الوقائع، وإن كانت فعلية، إلا أن الصيغة التي رويت بها هي التي تجعلها
محط ملاحظة.

هذا الاقتباس يتجلى أيضا في تصور العالم المتعلق بأهالي الريف وبمناطقهم. فمن جانب،
هناك اعتراف بأصالة الريفيين وبشهامتهم وخصوصا - وهذا أمر بالغ الأهمية - بأصالة المرأة
الريعية وبشخصيتها القوية وجمالها المتميز وسلطانها التي لا تتزعزع دافع مغربها. وأيضا بارتباط
الشخصية الريعية بالحرية والاستقلالية بشكل قل نظيره.

ومن جهة أخرى، هناك إقرار بجهل هؤلاء الأهالي ونسوتهم ولعلوهم على ذاتهم
وحزمهم، ليس فقط من الأجانب، بل من بعضهم البعض، إلى درجة يصعب فيها على المرء في
حالات الأذى بالمثل أن يغادر بيته نهرا، لأن مصيره سيكون هو القتل.

وهذا الأمر، يضبطنا أمام التقابل المثير للجدل بين مفهوم الجماعة وواقع " القبيلة " الذي
يصوب موليراس، كغيره من الأنثروبولوجيين الدارسين للمغرب، في وصفه. لفترة يتحدث عن

⁶ - انظر مقدمة الكتاب.

الجماعة كشكل من أشكال التمثيلية الديمقراطية ما دامت كل أقسام القبيلة ممثلة فيها.⁷ وثمة أخرى، وتحدث عنها فقط كأولها عارضة مؤسسة بإقتل، هدفها الأساسي هو الوقوف في وجه سلطة المخزن. ومن هنا، فإن التنظيم الجماعي لم يمنع قبائل من العيش بحرية هي أقرب إلى القوضى و " السبية " . وهو ما يجعله مولييراس صراحة في الصفحات الأخيرة من الكتاب، حينما يعتبر بأن الريغيين يبدون سعداء جدا بحياتهم التي يقضونها في جهل وقوضى كاملين، وإن بقى به الأمر ضد هذا الحد، بل سيطلق العنان لرغبته المكنونة والتي تصبغ عن الوجه الآخر لخطبه، حيث يقول: « إذا كان القدر المكنون سيحكم على بلد الحريات هذا بأن يخضع تحت سيطرة الأجنبي، فإن ما نتمناه هو أن يحكم من طرف فرنسا، لأن وطننا اللطيف نوما مع رعاياه المسلمين، قد دأب على معاملتهم بشكل جيد، بل أفضل بكل تأكيد مما هو عليه حالهم في المناطق التي تحكمها الأمم الأوروبية الأخرى.»⁸

طبعا، سنجد بين ثلثي الكتاب تلميحات وأمانى من هذا القبيل، خصوصا عند وصف الطبيعة الرائعة لمنطقة الريف والتمسك على عدم استعمال خيراتها المأهولة والمطعمية من طرف الأهالي، ودعوة فرنسا إلى استغلال كل وسقليا للتمكّن من هذه الخيرات، وعدم ترك المجال لألم الإسبانيين ليعطوا ما يشاؤون بالمنطقة، مذكرا بأن مذلة الفرنسيين هي قتي حرمتهم من السيطرة على الجزر الجبلية، كنقطة انطلاق للتحكم في أراضي الريف.

من جانب آخر، سيقر مولييراس بأن التعامل مع أي شعب يستلزم التعرف على عاداته وتقاليد وفهمها بشكل جيد. وأحسن وسيلة لتحقيق ذلك، هي تعلم اللغة. لذا، سيكون من الناصح إلى تعلم اللغتين الأمازيغية والعربية قبل الكتابة عن أي جزء من أجزاء المغرب الكبير أو العالم الإسلامي. وسوجه بذلك، نقدا لادّعاء للمستشرقين والإثنوغرافيين والمؤرخين الأوروبيين الذين لم ينتجوا في غالبيتهم سوى أعمال جوفاء، سيطلتها السيان سريحا، وإن تفرد لا القلطين ولا أصحاب القرار السياسي والعسكري. وطبعا، يعتبر مولييراس بأن ما قام به هو النموذج الذي يجب أن يحتذى، فهو ملم بالعربية كأستاذ لها ومفبره (الدرويش) يتكلم الأمازيغية، وهو ما سيسمح للمعرفة بأن تكون في خدمة السلطة.

⁷ - نقاق مع الأستاذ محمد الوالي في ترجمة fraction (بالإسبانية fraction / seccion) يقسم بدل فرقة، حتى يتم تقاضي التمس بين فرقة وترافقت. انظر: نقد مونتجوري عارت، القلقون العرفي الريفي، ترجمة د. محمد الوالي منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية طبعة المعارف الجديدة الرباط 2004، ص. 11

⁸ - انظر قسم المتعلق بيني بنور.

ورغم هذه المفارقات والالتباسات التي وكفنا عليها، يظل هذا العمل في نظرنا، ذا أهمية كبيرة. لأنه سمح بالتعرف على نمط حياة الريفيين في مرحلة حرجية من تاريخ المغرب، أي أواخر القرن التاسع عشر. وثقنا، لأنه مكن من إبراز خصوصية العلاقة التي تربط أهالي الريف الأحرار بالآخر: سواء كل هذا الآخر هو المغرب، أو العرب المستعمر (إسبانيا، إنجلترا، فرنسا، ألمانيا)، أو الجار نفسه (قبائل جبال).

ولا بأس من الإشارة إلى أن سرد الوقائع قد اتخذ أشكالاً متعددة، إذ تم فيه الانتقال من المستوى التثري الوصفي، إلى المستوى الملحمي (شاعري) ومن جدية وصرامة التحليل، إلى الدعاية والسفريّة. وهو ما انعكس على صياغة الجمل وال فقرات، بحيث يتم في كثير من الأحيان الانتقال بنا بشكل مفاجئ، من موضوع إلى آخر ومن حدث إلى حدث مغاير له تماماً (مثلاً الانتقال من موضوع المرأة، إلى الأولياء، إلى الملف بين القبائل نون أية رابطة بين هذه القصص). لكن ذلك، لم ينزع عن الكتاب طرافته وإثارته وأهميته.

ولا يسعني في الأخير إلا أن أتوجه بخالص الامتنان إلى زوجتي التي ساعدتني معرفتها التسمية بـ"ملاويخت"، على تحقيق معاني بعض الحوارات الواردة في الكتاب باللغة الأمازيغية. كما أن استحضار روايات المرحومة جدتها التي عاشت طفولتها بالريف (قلعة)، في هذه المرحلة بلديات التي تحدث عنها مولييراس، شكلت مادة معيدة للتمحيص والمقارنة بين الأحداث. وهذه دعوة للباحثين في المجال الأنثروبولوجي خصوصاً، كي يولوا أهمية كبرى لما يعرف بسرد وقائع الحياة Réécits de vie، كخزان هلم من المعلومات والأخبار يمكن أن يساهم في كشف عن واقع وحقق طواما النسيان.

فاس، في 02/02/2006

د. عز الدين الخطابي

المغرب المجهول

استهلال

الأرض طاووس والغرب كعائته *

مثل عربي

لماذا وكيف أنجزت هذا الكتاب؟

ما بين إقليم وهران والمحيط الأطلسي، يمتد بلد شامع وجميل أكبر من فرنسا. ندعو هذا البلد، المغرب، وهو الاسم المقطع من إحدى مدنه الرئيسية (مراكش). ونحن نعلم بل المغرب لا زال إلى حدود اليوم، أرضا مجهولة تقريبا. وعلى الرغم مما يذكره واضعو الخرائط والجغرافيون الجيودون الذين ينقل بعضهم عن البعض الآخر دون نقد ولا انشغال بالحقيقة، فإننا نستطيع التأكيد بأننا لا نعرف ولو جزءا واحدا من الألف، من هذه الإمبراطورية العريقة. وغلبا ألا نظل متدهشين من هذا الجهل العظيم، في قرن عرف العديد من الاكتشافات الجغرافية، ولتبحث بالأحرى عن الأسباب. ذلك أن هذا الجهل مرده سبب واحد ووحيد وهو عدم معرفة اللغة العربية.

ولاخترق المغرب واكتشاف أبعد زواياه وأركانها، يلزم على كل أوروبي راغب في المغامرة داخل هذا البلد، التسليح بلمس وشكلان في الحقيقة علما واحدا: يجب عليه معرفة العربية الكلاسيكية بشكل لا بأس به ومعرفة العربية الدارجة بشكل جيد. وهذا الشرط الوحيد ليس هو الأسهل، وإليك بيان ذلك: ففصلا عن الضرورة المطلقة للتكلم بالعربية، وهو ما يعتبر بالنسبة للأجنبي أمرا محيرا، يجب أيضا معرفة القرآن الكريم برعته تقريبا، وحفظه عن ظهر قلب

* - ملحوظة المترجم: كتب هذا الفصل بهذه الصياغة في النص الأصلي.

ولمراحمه وفق قواعد ثابتة، مع الالتزام بالبنية العربية الفصحى. ويجب على المرء أن يكون على درجة بلغة القنوية والمصار الصغرية وأن يلقى بالمصاحد عروضا بنية حول الأوعية والأنبياء وصلحاء الإسلام الذين لا يحدهم إحصاء؛ ومعرفة عناصر من تشريع الإسلامي على الأكل وإهانة الناس في المصاحد والمشاركة في الحجاز وقراءة بعض الآيات القرآنية بمعنى الفهم الآخرين ولحضا بعض الأسماح القنوية التي لها قيمتها بالبلد. ويمكن لهذه الأمور أن تشغل أكثر الأوروبيين موهبة ، عدة خمسة عشرة سنة تقريبا، دون أن يضيع ولو دقيقة واحدة.

إن معرفة العربية وحدها توافي معرفة أكثر من عشرين لغة وإليك المصحح على ذلك. فدراسة الأدب العربي تتغير من الأمور الصعبة، إلى درجة أن الشيوخ المتقنين في اللغة، يحترفون صراحة بمجزهم عن مساهمة الحد الكثير من الألفاظ الجديدة التي يلقونها في كل صفحة، وينضاف غريب الحركات وعلامات الوقف وغريب الكتابة بحروف كبيرة majuscules إلى الفنى المعجمي لهذه اللغة، وهو الفنى الذي يتجاوز كل ما يمكن للمحيلة الأكثر عطاء أن تعلم به. فمن نصاب بالدور أمام رقم 12 مليون و 305 ألف و 412 كلمة التي يشتملها القاموس العربي. كما أن المترادفات لا تعد ولا تحصى تقريبا. وقد صنف الباحث المجتهد دوشامبر De Hammer ، 5744 كلمة ذات علاقة بالجملة Chameau. ووجد العالم اللغوي ليروز لبادي ثمانين مرادفا لكلمة صل وألف مرادف لكلمة سيف. كما أن كلمة مصيبة تشتمل على أكثر من 400 مرادف. ويمكن للفقه في اللغة Philologue أن يؤلف كتابا حول أسماء الأسد التي يبلغ عددها 500. وقد كانت مترادفات كلمة ثعلب التي بلغ عددها 200، موضوع بحث أحد المؤلفين بالإحصائيات. ولا وقف الأمر عند هذا الحد، إذ تصل صعوبة هذه الدراسة إلى ذروتها عبر تضمن كل كلمة لعملي عديدة ومتشعبة. وكان عبقرية جهنمية وجدت منعها في جعل هذه اللغة عبارة عن لغز أدهي. وعطوف أن محاولة تجميع كل لهجات شبه الجزيرة العربية، في قاموس واحد، قد تسببت في حدوث القوضى.

ولا تتوفر العربية المدرجة على الفنى المحير للأدب، لكنها تقدم مع ذلك ولغة من المترادفات ، ربما لا توجد بنفس الدرجة في أية لهجة أخرى. ومنذ حوالي ربع قرن من دراستي لها، استنطعت أن أترك بكل كلمة من كلمات العربية المدرجة، تتضمن في المحل ثلاثة مترادفات. وإذا أضفنا إلى ذلك الجمع غير القياسي Phrasiel irrégulier، الذي يشكل غريب الفنى بينه وبين مفرد تقريبا، كلمات جديدة يتعين فهمها، فإتينا سنحصل على ست كلمات يجب معرفتها، بالنسبة لكل كلمة مقابلة في الفرنسية مثلا. ونشير أيضا إلى ضرورة تأييد الحجرة للنموذ على النطق الفصح الذي لا تعرف منه لغتنا الأوروبية شيئا. لذلك كله، يمكننا تصور المجهود الذي

يجب بذله للنكلم بالعربية مثل العربي. وليس غريبا أن نرى القليل من الأوروبيين فقط، من يستطيعون التحدث بأكثر اللهجات إثارة للإحياء، وكتفتها بشكل ملائم

ولأنني مقتنع بأن العمل الدؤوب سينتهي بنا إلى بلوغ مستوى العرب المتعلمين على الأقل، وهذا أمر جميل في حد ذاته، فبني أسبق لنفسي بالإقصاد عن أمنية تتعلق بالدراسات العربية التي عرفت الإهمال بفرنسا وبالجائز. فلتقدم للنولة من أجلها أكبر التسهيلات، لأننا سنكسب عن طريقها حب العرب والمسلمين في العالم أجمع؛ وستعرف على نمط تفكير المجتمع المحمدي وعلى رغبته؛ لأن مساعدة هذا المجتمع لئلا، تعتبر بالغة الأهمية. ولنطبق وصية رسول الإسلام إلى أتباعه والتي جاء فيها: « من علم لسان قوم أمن من كفرهم ». ففي المغرب، تعتبر المعرفة الجيدة بالعربية كافية. وفي المناطق التي يسيطر عليها الأمازيغ، وهي مناطق عديدة يجب علينا أن نصيغ إلى العربية لهجة أمازيغية مغربية أو جزائرية. ويمكننا أن ندلس بكل جرأة داخل كل جزء من المغرب، متكررين في زي طلاب مجتهدين، مستعدين مسبقا للتعجب والحرمل، مع الاحتراس من أية توصية، كيما كان مصدرها.

وانتم أيها الفرنسيون الشباب المقبولون على السفر إلى المغرب، عليكم أن تستمعوا دائما هذه الحقيقة التي تم تجاهلها لمدة طويلة وهي أن كل المكتشفين الأوروبيين قد فشلوا وسيفشلون في العالم الإسلامي، بسبب جهلهم للغة العربية. ونحن لا نريد هذا القليل من شأن أولئك الذين تعرفنا بواسطتهم على جزء واحد من ألف، من أرض المغرب؛ ولكننا نؤكد بأن لا واحد منهم، بما فيهم صاحب الاسم المستعار: علي باي باديا ليليش⁹، كان مستعدا للحديث بطلاقة، بهذه اللغة المحبطة التي تبحث في نفس كل من يريد التعمق فيها. فلا واحد منهم اخترق البوادي، بعيدا عن الطرق المرسومة من طرف الحمائر Hammar (وهي القفلة المرسومة من طرف الجنود المصارية).

ولأنهم كانوا محبين ومحترمين ومثيرين للتشبهات وغير مستوعبين للمعلومات التي كانوا يتوصلون بها والتي كانت خاطئة في الغالب وأيضا ملزمين باتباع المسالك المعروضة عليهم، فإن هؤلاء الشجعان، كانوا مع ذلك، يقلومون كل هذه التعطيلات، وقد أدى بهمهم حوته ثمنا لهذه المجازفة المتهورة.

إن السفر إلى بلد نجهل لغته معناه السفر مثل الأعمى - الأعمى. فما هي المعلومات والمعارب التي يمكن أن يجيبها مكتشف يجوب البلاد دون التمكن من التفاهم مع السكان؟ إنه إن

⁹ - كان مجبرا على أن يقدم نفسه كتركي لتبرير وطنيته. وكان قد تلقى تدريبا لغويا إلى حد ما، للإهتمام بالثقافة في أرض العرب.

يستطيع أن لا يحصر ما يراه ولا ضبط التفكير مما يقل له. فإلى جانب بعض الخلق التي
مستحق. سنكون هناك معاهدين خاضعة وأحكام مشوهة، ولدينا عيبات منها في الوثائق الحالية.

فيها، في المغرب قد تفادى إلى حد الآن النظرات الفصولية لأوروبيين، وذلك للأسباب
التي عرفناها من قبل. ومنه طوقتي، فإن فضول معرفة الجار الذي يشتركنا منات الفلوسوفات
من الحدود، كمن يوركي بشكل لا يتصور. وأن مسقط رأسي يتسلسل، على بعد خطوات من
الحدود المغربية، فبني تزييت وترعرت تحت تأثير فكرتين لم تواف عن استحضارها إلى
يومنا هذا: معرفة جزأيا الغريب وإجراجه - أصل مجال التأثير الفرنسي.

وقطعا من هنا الهدف المزيج، شرعت منذ سنوات في دراسة العربية والأمازيغية.
وتشكل الأصل التي شرحتها حول حلتين قنعتين مراحل تعليمي ميكتل تدريجيا، ولاشي أرغب
في ضبط الأمور معتبرا بأنه لا يوجد مكتشف أوروبي يمتلك، قبل دخوله إلى المغرب، مثابة
فبحث لجاد والطويل قصير، فقد تابعت بنون كثرة، المهمة التي أروضتها على المعرفة الدقيقة
بأنس وأثناء الإمبراطورية الشريفة والتي ستعرضها لاحقا، على كل من يريد كشف الخز
المحيط بهذا البلد الغريب.

ولم أتردد لحظة في ربط علاقة صداقة مع العديد من المغاربة، عربا و أمازيغ، متعلمين
وجاهلين، والذين لم يبطوا علي بما يعرفون عن بلادهم وما يعكرون فيه، معتقدين بأنني مسلم.
ومن أعلى إلى أسفل درجات السلم الاجتماعي المغربي، اكتسبت لصفاء حقيقيين، طلبوا مني في
كثير من الأحيان للتخلي عن خدمة النصارى والهجرة إلى جنة الإسلام هناك، حيث الحرية
والحياة السهلة. فالتأثير الذي تمارسه المعرفة المصقة إلى حد ما بالأدب وباللهجة العربية على
المسلمين، يكون له فعلا وقع سحري لا يقلوم. والمسلم الأكثر مكرًا (وكل المسلمين هم كذلك)
سيروج بكل شيء، مثل الطفل، للضابط الأوروبي الذي يستحق هذا الاسم حقًا والذي يدرى كيف
يطرح عليه الأسئلة. ومع ذلك، ففأنا لم أبح بسري لأي أحد. فقد احتفظت به لنفسى حتى اليوم
الذي حصلت فيه على مهمتي. واعتبرت نفسي مستعدا بما فيه الكفاية للقول بهذا الأمر. فذاك
فتبعت إلى الخطأ الجسيم الذي ارتكبته، بعدم القيام بحملة شخصية نقدية. وطلب مني عالم من
باريس، وهو الشخص الوحيد الذي أعرفه جيدا وألوح له بالسراويل، بالتخلي عن مهمتي، مبيدا لي
كيف أن العديد من المصممين أنفسهم لا يحصلون على شيء، لأن هناك من حظي بقرينة فنيهم.
وبالمختصر فقد أجهشت لإرائتي في القيام بطلب رسمي بمهمة لم برعاية ما. هكذا، فبني كمشغل
مضبور، يوجد بعيدا عن منية الأثوار (باريس) بمئات الفلوسوفات وغير مستعد بطبيعي
للتعاطف في الممارسات السيرة التي تقتضيها مهمة الصداق، لم أجرا على الإمبراطور بمرءة أناسك

الذين يترهبون بخصوع، في قاعات الانتظار، إشارات من متنفذي هذا الرمن. فهل يتوجب على
لتغلي مع ذلك عن حلم حياتي؟ وهل سيصبح مجهود السنوات القارطة إلى الأبد، ما دام قد أصبح
بفضل ظروف غير متوقعة، بدون هدف ولا موضوع؟

إن نساء الغاليين Gaulois اللداسي التي تجري في عروقي لا تتوافق أبدا مع المنصب
الجري العريز على الكسالى. مستحيل على الذهاب إلى المغرب؟ فليكن. غير أن هناك مسلمين
قاموا بزيارته. هي كل يوم، هناك حركة دهاب وإياب إلى ومن المغرب وهذا يبرز أمامي الحل
شبه التام للمشكل المطروح باستمرار والذي ألخصه كما يلي: إن معرفة المغرب وحمله معروفا
من طرف الآخرين، بشكل مماثل وربما أفضل مما لو قمت بزيارته بنفسي، قد يتم بفصل
تصريحات المفاربة والرحالة المسلمين الآخرين. وعلى الفور، شرعت في العمل وحيدا، دون
سوية أي أحد ودون أي دعم كيما كان نوعه، مستغلا كل وقتي بما في ذلك عطائتي وكل أوقات
الفراغ التي تسمح بها خدمتي المزدوجة والمضنية التي طالبت الإعفاء منها، بدون جدوى. هكذا،
سينجر هذا العمل على مدى عدة سنوات، وهو العمل الذي فرضته على نفسي، من أجل بلدي
ومن أجل العلم، والذي يشبه مجهود ثور الفلاح.

والآن، ولنا أعين المسار الذي قطعته والعمل الضخم الذي أصبح مجسدا على أورقي،
منتظرا الترتيبات النهائية، فإني أتساءل عن الاستقبال الذي سيخصصه المعاصرون لي (ولنا
كفد هنا المتشككين والمتهمكين)، لعمل سيكشف عن الحياة الحميمة وعن عادات وأفكار شعب
عظيم. وسيبرز لهم مواطن أرض مجهولة لديهم.

طبعاً، فلنا لم أكتب من أجل هؤلاء، بل من أجل ذوي النفوس الأبية، الذين لا زالوا
يؤمنون بالوطن والأخوة الممكنة بين البشر والتسامح والطيبوبة بشكل عام، وأخيراً من أجل خالق
المغرب وخالق كل البلدان والكواكب.

وهي اللحظات العرجة من عملي، وخلال لحظات اللباس والقنوط من الأنتية الفترة
والمتصدمة التي تميز عصريا، هناك شخص واحد دعمني عبر أيامه القوي بفائدة أعماقي، وغير
صدفته الثابتة وحسه السليم والعتين، إنها المرأة التي تحمل اسمي، أم أطفالي المحبوبين والتي
أحيى بها وجودها النبيل المكرس كلية لأزواجها ولتعليم وتربية أبنائها ولبيتها. ولن أكف عن شكر
من يعلم بسرنا، وهو الذي جعلني ألتقي في هذا العالم النديوي بالرفقة التي حلمت بها منذ
الصغر، ربة البيت الحقيقية كما لفهمها وكما يجب أن تكون في كل ربوع فرنسا العزيزة علينا
وكما ستبقى بالتأكد، حينما تزول أهواء الأشياء السطحية.

التي سائر بسرعة على التفصيل المتعطف ببدلية مهمتي وتطبيقاتي الدقيقة مع أسطواني
المطوية، وأحاديثنا الطويلة وقطع النقدية البيضاء المتتالية لمكافئهم، ووقتهم الذي خصصوه لي
والمعلومات التي قدموها والتي تتواجد بين دفتي هذا الكتاب، دون إشارة إلى اسم الرحالة، لأنني
إن لم أكن ثقة هؤلاء الناس البواسل الذين توسلوا إلي بعدم ذكر أسمائهم،

وكيفما كان الحال. فإن تصريحاتهم تعتبر محدودة، بالمقارنة مع العلاقة التي ربطتني
برجل تعرفت عليه بفضل القنينة الإلهية، رجل سيسمح لي بعد تردد بفهمه من يعرف النظام
المنمصبين، بكتابة اسمه بالأحرف البارزة. وهو ما أقوم به الآن، لأن محمد بن الطيب كان
منفذاً، لجدونه لم يكن باستطاعتي نشر ولو جزء واحد من المائة من هذه الوثائق، ولربما لم يكن
بإمكانني كتابة أي شيء عن المغرب؛ بل إن المعلومات المقدمة من طرف الرحالة لمسلمين
الأخرين، ستكون ضعيفة وبالقصة وعديمة الأهمية، تستحق الإحراق بدل النشر.

إن محمد بن الطيب هو نموذج للرحالة النادر. ولم أكن أتوقع العثور على هذا الرجل
المناسب من قبل، إلى أن أخبرت عنه بمحض الصدفة في الأيام الأخيرة من سنة 1893. في
إحدى الأسبوعيات قال لي أحد المصنفين وهو جزائري مسلم أقام بالمغرب خمس سنوات وروى لي
كل ما يعرفه عن هذا البلد، وكنت قد كلفته بمهمة اكتشاف الرجل النادر الذي أبحث عنه. * لقد
وصل إلى وهران طالع رث الثياب، على هيئة درويش مختل العقل شبها ما ويدهي معرفة
عصيفة بالمغرب. * ولم يكن هذا المخبر يدري بأنه قد وضع اليد على مكتشف رائع، سيسمح لنا
أخيراً بكشف الثغاب الذي يخفي لقرون عدة، هذه الإمبراطورية المنسية. وكفى من اللازم لتكميل
الحيلة لامتنعاج هذا الطالع الشديد الحذر، إلى مقر إقامتي، وبعد اقتناعه بأنني أديب مسلم، نأته
وسط النصارى، وهو ما أكتنحه له طبعاً، عزم على زيارتي مساء أحد الأيام، بعد انتهائي من إلقاء
دروسي، في إنبار كرسى المربية الذي أشغله وقد حماه ظلام الليل من أنظار أبناء ملته
المنمصبين الذين كان يخشى شرهم. وكفى الرجل الذي تعرفت عليه في مساء من أمسيات شهر
يناير 1894، بلبس جلباب طويل من الصوف الأبيض بأكمام قصيرة؛ وكان مغطى الرأس، ذا
لحية شقراء لامعة ووجه نحيل بعض الشيء. بمل المشي والحرماني، إلا أنه كان يشبه بشكل
متقرب، صور المسيح الملوكة لدينا، بعينين زرقاوين لا يرفعهما إلا لماماً، وكانهما مثبتان على أنفه
ولحيته، وبمشية مقنة ومتزنة وكان نحيها غير متين.

وبالفعل، لقد كان يبدو كدرويش مختل عقلياً إلى حد ما، لكنه مسلم، وسري كفيف أنه
تظاهر بهذا الشكل كي يثير شفقة من يراه، ويمر دون إثارة غضبه أحد، أينما حل وارتحل، وهو
تعبير احتياطي ممتاز خصوصاً بالمغرب. وعند أولى الكلمات التي تلفظت بها، انتبه إلى جودا

ورفع عينيه باتجاهي، مظهرا قبحه بسماع حديثي عن الدين الإسلامي والرسول وكبار
 الشخصيات في الإسلام. دخل بسطري وهو واقف، ميمينا عن دهشته، من فترة لأخرى، وراقبا
 يديه نحو السماء متعتما: " الله كبير الذي هدى رجلا مثل هذا إلى الطريق المستقيم (أي
 الإسلام)".

وهكذا تولدت الألفة بيننا. لكن دهشة هذا رجل مستعظم حينما سأقول له فجأة وبلفظ
 زولوية Zouaou - لأنني كنت أعلم عن طريق المسلم الجزائري المذكور بأنه يفخر
 بأمازيغيته: " Al asedh a rekkan ay ameddakoul ? (هل سنتي غدا يا صديقي؟)
 ويصبح بالعربية: " لا. فكم أنت نصرانيا.. أنت مسلم، عربي أو أمازيغي، لكنك أنت روميا
 وأنا لمجد بالذي لا إله إلا هو ". وسيضيف بقبولية قحة: " azekkan ad asegh " (سنتي
 غدا). ويكرر هذا القول وهو يضحك، مغطيا رأسه بقلنسوة التي كان نصفها قد سقط على
 كتفيه، حينما رفع رأسه فجأة عند سماعه لحديثي بالأمازيغية مباشرة بعد حديثي بالعربية.

وفي الغد، جاء التدريس في الموعد تماما. عندئذ بدأت سلسلة من الأسئلة والأجوبة
 وتحقيق طويل وثيق، سينتج عنه هذا الكتاب. ومن خلال الجلسات الطويلة، التي كانت في العادة
 تتوأم ساعتين في اليوم، تعرفت تدريجيا على هذا المسلم الجوال الذي اكتسب عادة السفر
 وحيدا، لحوالي سن العاشرة سافر بمعية طلبة آخرين، لزيارة مختلف الزوايا بتونس وبالقلم
 فسطاطية. ورجوعه إلى بجاية مسقط رأسه، تابع دراسته الشرعية، دون أن يطن لأي أحد عن
 مشاريعه المستقبلية. وعند تلك المرحلة، بدأ يفكر في رحلة كبيرة إلى المغرب، بغرض تحقيق
 ثلاث رغبات شخصية وهي: رؤية البلد والابتعاد عن النصراني الممقوت وحضور دروس علماء
 فاس الذين كانت شهرتهم، المبلغ فيها إلى حد ما، قائمة بعد الهيمنة السياسية والأدبية التي كانت
 للمغرب في ما مضى.

وفي صبيحة أحد الأيام من سنة 1872، سيغادر بجاية ومزول الأسرة دون الإعلان عن
 ذلك، بل ودون توديع والديه اللذين سيفقد أثرهما بعد ذلك. وقد كان عمره آنذاك ستة عشر أو
 سبعة عشر سنة تقريبا. هكذا، سيدير ظهره للشرق وسيأخذ وجهة المغرب مشيا على الأقدام،
 خالي القفاص إلا من لوحة الدراسة، متقيا من المسجلين، أينما حل، طعاما محدودا لكنه كاف،
 وسيتوقف بضعة أيام بمدينة الجزائر للتعرف عليها وللإستراحة بها في نفس الوقت. لكن
 الفصاري واليهود كانوا أكثر عددا في هذه المدينة منهم في بجاية، ويتابع طريقه بمحاذاة البحر
 حتى لا يضل طريقه.

وهران وقع له حادث مزعج مثيره بشكل تام من الجزائر التي كان فيها اليهود، حسب اعتقده، هم الأسياء. فأحد هؤلاء الساميين Semites المعروف بثلاثة أو أربعة أشخاص من أبنائه ملته، وأدين كفوا جميعهم يرتدون الزي الأوروبي، سيخترض طريق الطلعب المتجول الذي كان متبعها في مراقبة الحي الإسرائيلي. وسيقول اليهودي الوقح للدرويش: " أنا صيد الشرطة، نولتي أودق تعريفة وإلا لحظتلك السجن ". وعلى الرغم من أن هذا الكلام قيل برطانة تمزج فيها اليهودية بالفرنسية بالعربية و بالإسبانية والتي لا يعرف سرها إلا الإسرائيليون الأكلقة، فإن محمد الذي لم يكن يتوفر على رخصة السفر للقانونية، فوجس ألحاح العوالب وظن بأنه سيسجن لا محالة، معتقدا بأن ذلك المحتال عمود شرطة بالفعل. وكان في اليوم السابق قد جمع شيئا من المال، بفصل بعض المحسنين المسلمين، من أجل الإبحار إلى طنجة وشرائه بعض الزاد أثناء عبور البحر. ولتسوية المشكل سيقترح طمع لتتبن دورو Douros ، غير أن هذا الاقتراح سورخص باعتقار.

وفي الأخير، سيطت من قبضة صيد الشرطة المزيف، بالتخلي عن كل ما يملك من نقد أي ثلاث قطع من مئة قلم. وحينما طُلب منه جواز السفر، معتقدا بأن ذلك من حقه، تلقى لطمع الشنقم من طرف ذلك اليهودي العقير، الذي دفعه وصفحه وفتنزه الفرصة ليصعب وبلا من الشنقم على الرسول وعلى العرب بشكل عام.

وفي قرية الأهالي التي وصلها محمد في أسوأ حال، أخبره السكان بأنه كان ضحية نصب من طرف اليهود، وأن النصارى لا دخل لهم في القضية. ولم يكن بإمكانه الانتقال طبعاً، فقد كانت السفينة المتوجهة إلى طنجة تطلق صغیرها. وكان السامسة الممتلون للشركة المالكة للسفينة، يصرخون بأعلى صوته: " البهور بغى بعد " (السفينة ستقطع)، وينغمون مجموعة من الريفيين الذين كان من المقرر أن يبحروا في نفس اليوم، باتجاه الساحل المغربي. وقد قدس محمد وسط الحشد ووجد نفسه وسط أمازيغيين، هم إخوان له في آخر القطار، لأنه يفهم تقريبا لهجتهم الخشنة. واستطاع أن يجلب عطف بعض النفوس المحسنة، من بين هؤلاء الجبليين الأنداء، الذين كانوا في طريق العودة إلى الريف، بعد رحلة شاقة إلى إقليم وهران، حيث حصنوا محاسيل معمرينا مقابل ثمن زهيد. هكذا، سيبحر معهم، وستغادر السفينة التي كانت معلومة عن آخرها بهؤلاء الريفيين الذين كانوا يريدون أمازيج بلدهم، ميناء وهران متجهة نحو الغرب. وعند مصب واد كيس Kis، ادعى قبطن السفينة حصول عطب ميكانيكي سيؤدي إلى التوقف لعدة أيام. وقد جرع المطاربة من فكرة بقائهم بدون طعام ولا شراب على ظهر السفينة التي لم تكن تتوفر على المؤونة الكافية. لذا، سيطليون من القطار إنزالهم على الساحل

الجزائري، شريطة أن يحملهم ثغية حالما يصلح للطب. وسيقبل القبطان هذا المقترح على الفور، لأنه كان يخوف من اندلاع تمرد على ظهر سفينته. ولربما كان قد أعطى أوامر سرية للبحارة المكلفين باستعمال الزوارق، ليكونوا مستعدين لأي طارئ. وكيفما كان الحال، فإن "أشياء الغرقى" هؤلاء سيبرلون بالأرض المغربية، وهو الأمر الذي سيتأكدون منه عند رؤيتهم لبحار من الأهالي المصلحين الذين سيأمرونهم بالعودة من حيث أتوا. وأثناء رجوعهم، تحركت السفينة قتي لصالح عطبها، ولأن مقدمها Proue كان موجها نحو الشرق، فقد أثارت أمواجاً من الريد الأبيض وفوران المياه. وانبعثت صيحات الاستكثار والغضب من الشاطئ أمام هذا الهروب المعتمد، إذ فضلاً عن ثمن السفر الذي تم خسارته، وجب القتوجه إلى الريف مشياً على الأقدام، وسط قبائل إن لم تكن معادية، فهي على الأقل مستعدة لابتزاز الغرباء الحاملين للمال. وقد حصل اتفاق جماعي على القتوجه إلى وجدة مشياً بمحاذاة الحدود الفرنسية. وكانت المجموعة مكونة من ألف رجل، لذلك لم تشعر بأي انزعاج وبلغت وجدة دون مشاكل.

مكنا، متبدأ بالنسبة لمحمد بن الطيب، حياة الطالب المشرود اللثائه، عبر المساحة الشاسعة للمغرب والتي سيقطعها من كل الجهات، مدة اثنتي وعشرين سنة، حيث كان ينام ويأكل بالمساجد، مع الطلبة الآخرين الذين كان إحسان السكان الدائم، يخبثهم ويكسبهم لسفوت عديدة، دون القسائل عن هوية الوافد الجديد ومن أين أتى وإلى أين هو ذاهب. لقد كان للدرويش إن، من أكثر الرحالة المؤملين لاكتشاف هذا البلد. فهو من أصل قبائلي، والأمازيغية هي لغته الأم، بحيث ستكون له مقداً بشكل كبير، في هذا البلد الذي لم تكن فيه اللغة العربية هي المهيمنة. وبفضل معرفته الجيدة باللهجة القبائلية ليجاية، فإنه سيستقبل كأخ في الريف، هذا البلد المتوحش شبه المجهول والذي سيتمكن من اكتشافه خطوة خطوة، بإطمئنان وإعطائنا الوصف الوحيد المتوفر حالياً. وبفضل العربية والأمازيغية، سيتغلف في أعماق منطقة البرابر Braher، حيث لم يسبق لأي أحد أن وضع أرجله. وسيكون مظهره كدرويش بنيس، أفضل ترخيص له، ولم يكن له شيء آخر غير ذلك.

لقد كان يهوب البلاد، مدفوعاً بقوة القاهرة لا يتركها هو نفسه، حيث لم يكن يستقر بمكان محدد، لأنه كان يرغب في رؤية مناطق جديدة وأناس جدد وعادات جديدة، ولم يكن يدور أية ملاحظة، بل كل يسجل ذلك في أروع مذكرة جغرافية يمكن أن يجدها المرء. وسيدأ هذا الاكتشاف دون توقف أو راحة سنة 1872، لينتهي سنة 1893. وكما أشرت من قبل، لقد التقيا بمحض الصدفة قتي أرجعاهما معا إلى العملية الإلهية. ولسوء الحظ، قبل هذا الدرويش لم ينفذ برحلات لكي يرويه، فبالأحرى لينونها، ورغم إلحاحي الشديد، لم أتمكن من التظلب على الرعب

الذي يملكه من الكتابة، وكان يستحيل علي نفسه إلى تكوين ولو حرف واحد بيده. مرة واحدة، رأيته يخرش بسرعة على ورقة بيضاء بالية. وبذل الحبر والمناواة، كان يستعمل بصفة نيئة، يغمس فيها ريشته القصبية، يرسم على الورق بعض الحروف اللامرئية. وكان الأمر يتعلق بتميمة صد صداع الرأس، يضمها على شعر رأسه الفريز، الذي كان شكله القفوصي ورائحته يشيران إلى الـ المشط والمطور لم يمار منه أبدا. وهذا الاحتقار للخطقة الذي دفع به الدرويش إلى أقصى الحدود، كاد أن يكون وبالا على حياته في الريف، حيث أدرك الأهالي بأنه يؤدي سلوكاته المتطرفة دور اللجوء إلى قواعد الموضوع المحددة شرعا. وجب علي إذن، أن أستسلم لهذا العمل المزدوج والشاق، المنعبد حقيقة إذا ما أدركنا بأن الأمر يتعلق بموضوع شاسع وجديد كل الجدة.

فالمطلوب هو الكتابة والاستفهام: للكتابة باستمرار والاستفهام بلا هوادة. ولم يكن الدرويش يشك في القيمة التي ستكتسبها اكتشافاته، وهو الذي لا يعرف كلمة فرنسية واحدة ولم يسبق له أنقرأ رحلة مروية، كما أن معارفه الأدبية لم تخرج عن الإطار القرآني؛ لذلك سيدفعه حسه السليم إلى الخضوع للتوجيه فقد يبدو له عصر جزلي قليل الأهمية، لكنه يحكر مهما بالنسبة لي. وقد يبدو له حدث آخر مثيرا للاهتمام، لكنه يبدو لنا نحن الأوروبيين مخيفا. غير أن هذا الرجل كان يتوفر على جغرافية المغرب في رأسه؛ وفي ذلك المكان بالذات كنت أبحث عنها، فهناك كنت أكتب لكي أخرج من هذه الذاكرة الرائعة مئات الأسماء للقرى والقبائل والوديان والجيال التي طعمنا بها العلم؛ هناك تطبعت في الذاكرة، كل من العادات والتصرفات والأعراف والتقاليد والسلالات واللغات والمساكن والقوى العسكرية والثروات الغلوية والزراعية والمعدنية والتي ساهم عليها لمحة دقيقة ومتقنة، بحسب ما يسمح به قلبي المتواضع .

أؤكد أنه لم يكن باستطاعتي رؤية المغرب في جميع تفاصيله، بنفس رؤية رحالتنا. وأعترف بدون مواربة، بأن طبيعتي لم تكن تسمح لي بتحمل دور القديس الجوال الذي لعبه هذا الدرويش مدة اثنتي وعشرين سنة، دون كلل. فسيرته الثلاثية، كمستول وكطالب وكدرويش، سمحت له برؤية كل طبقات المجتمع تقريبا؛ إذ أن النوم في العراء وفي القصور أو داخل كوخ مليء بالزجاج لم يكن يهيم بهما. كما أن مواجهة كل أشكال التلوس والأمراض والفظائع الجسدية والمخوية، لم تكن تؤثر فيه ولم تكن تثير استمزازة. وسواء كان الطعام الذي يتناولونه جيدا أو رديئا، فإخرا أو صبر كاف، أو غير موجود، مما قد يؤدي به إلى الصيام لفترة طويلة، فإن ذلك لم يكن يشي عرم هذا الشخص الذي خلق كي يتجول في بلد إسلامي. وكطالب، فقد كان بإمكانه الانسجام داخل كل المجتمعات دون إثارة الشبهات؛ وكان يترك المسؤولين ليذهب إلى قصره.

ويخاطر هذا الأخير ليعود ثانية إلى عالم الدرويش، وكغريب ورحالة، فقد كان بإمكانه التقرب من كبار قبلة، الراغبين دوماً في سماع أخبار الرحلات واكتساب معلومات دقيقة إلى حد ما، حول بلد يصعب التعرف عليه. وكندرويش، فإنه كان ينسل في كل مكان، في المساجد وداخل منازل المسلمين بل وحتى داخل البيوتات، لأن ابن الطيب كان يضع نفسه فوق الأحكام المسبقة، ولتصعب التصيق لأبناء ملته. ولأنه كان مدفوعاً بفضول طبيعي، لم يعد للمغرب يمتلكونه في لباسه هذه، لكن لا زال الأمازيغيون يتفرون عليه بدرجة كبيرة، فقد كان يدرس الناس والأشياء، ليس بدافع غرور أدبي، بل فقط من أجل تلبية رغبته الملحة في السفر، لأنه لم يكن يشك في أنه سيأتي يوم، سيروي فيه كل ما رآه لنصراني يعرف كيف يحل عقدة لسانه.

وهنا نصل إلى نقطة حرجية. فهل نصب علي هذا الدرويش؟ إليكم جوابي: لقد كنت كل مرة أرهب أقوال هذا الرجل كلما تيسر لي ذلك. وكان مئات المغاربة يؤكدون لي ما قلته من معلومات، كاشخاص مطمئنين. كما أنهم قدموا لي معلومات إضافية، عملت فيما بعد، على إدراجها ضمن الحصة الوفرة التي أنجزها رحلتنا عن المغرب ولم يسبق لي أن ضبطت هذا الرجل متلبساً بجريمة الكذب. وقد كنت في بعض الأحيان أتسلى بمساعلته فجأة حول بعض لقري النقية بالبربر Hrabar، بالريف وبجباله الخ.. وكان يجيبني مباشرة، ذاكرة لي لقيلة وأنصاميا والمكان بالضبط الذي توجد فيه والذي سبق لي أن حددته بصعوبة، على الحرائط. ولم يكن هذا الدرويش الضعيف البصر مستعداً لمساعدتي بهذا الخصوص، فقد كان يرفض بتلأنا رسم خط أو كلمة، لأنه لم يسبق له أن رأى خريطة في حياته. وكنت مضطراً، لكي أصبط خريطة، بأن أنظره بالأسئلة حول الجهات الأربع ومجاري الوديان والجبال والمسافات والمدن والقري الصغيرة، وبتجسُّر كل علي أن أعيد من جديد وبمشقة، العمل المتعلق بكل قبيلة على حدة، ولأنني متقل بخدمتي المردوجة كأستاذ كرسي بالجامعة والثانوي، وكمهمتهم بهذا المشروع، فقد شعرت لحظة بأن قواي متخوسني وبأنني لن أتمكن أبداً من إتمام مهمتي. وفي لحظات الضعف هذه، قمت بالعمل بحماس أكبر، وقد أحسنت فعلاً، لأنني لاحظت بأن الدرويش نفسه بدأ يشعر بالوهن، فحم تحركه لمدة سنة، رغم الامتيازات العالية التي حققها، أثر كثيراً على غرقه كرجال متبوء على الفصائل للشاسعة أضف إلى ذلك، أن معرفته بالأجراء الجنوبية للمغرب، كانت تشوبها غفرات، مما استدعى القيام ببحث إضافي وبسفر جديد. وبتاريخ 30 يناير 1895 وضعت القلم أخيراً. فقد زودني هذا الرجل بكل ما يعرف ولم يبق لديه ما يضيفه. وقد ملحته جوار سفر وسأضقه على العودة إلى المغرب على نفقتي، مع تعليمات خاصة أعطيتها له ولنا وثق من أنه سينجزها إذا ما تمكن من الخروج سالماً من الجحيم المغربي. ومنذ تلك الفترة، لم

أطلق أخباره سوى مرة واحدة فهل ساراه مرة أخرى؟ أعتقد ذلك، وأتمنى من الذي حفظه على مدى اثنين وعشرين سنة، ألا يتخلى عنه في هذه الرحلة الأخيرة.

وبينما يراكم الدرويش الذي عاد إلى حياة التجوال، الكيلومترات ويتمشى في القصايع الواسع ويجد نفسه من جديد في بلد كل الحريات، أظل من جهتي مغلقا في حجرة الرهبان التي اغترتها لنفسي، في مواجهة الوثائق الكثيرة التي أتوفر عليها، ساعيا إلى كتابة المجلد الأول من سلسلة من الكتب التي يعلم الله متى ستوقف. فأنا أقدم ببطء داخل هذه الإمبراطورية الصعبة الغنى وكما تقدمت، كلما أدركت حقيقة كلمات لغستون المعظم: « أعتقد بأن من الأفضل لي أن أطلع القارة الإفريقية من جديد، بدل نشر مجلد ثانٍ، إذ أنه من الأسهل للقيام برحلة بدل كتابة تفاصيلها ».

وتوجد كل ملاحظاتي بالعربية، وبعضها موجود بالأمازيغية. ويتعين علي تنظيمها وتنقيحها وحذف التلويل والتكرارات وتصحيح الأخطاء. وأخيرا الكتابة بالفرنسية، أي القيام بتكوين جديد بلعنتنا لما سبق لى خططلته في لغتين محبتين مخالفتين يجهلها للأسف أغلب الأوروبيين. وقد كان من الممكن، لو لى إمكانياتى سمحت بذلك، أن يقدم بشر مخطوطي بالعربية، خدمات كبيرة وعملية لأولئك الذين يرغبون في اكتشاف بلد إسلامي مثل المغرب. كما أن العربية الدارجة المتحدث بها في هذه الربوع، كانت موضوع بحثي المستمر. وأظن بأنني أوردت في الجزء غير المنشور من عملي، كل العبارات المغربية المستعملة تقريبا، والتي تعتبر معرفتها ضرورية بالنسبة لكل من يريد السفر إلى هذا البلد دون إثارة الانتباه. ومع ذلك، فأنا لى أتخلى عن الأمل في إصدار بعض المقاطع من هذا المخطوط . في مرحلة لاحقة ربما؛ وبالتالى عدم إحراق الجزء الذي يبدو لى أكثر إفادة بالنسبة لجنودنا وتجارنا ورحالتنا.

وأنا أصحح النسخ المطبوعة من هذه الصفحات، واصلتلى ثلاث رسائل من الدرويش تبعاعا. وهي رسائل مكتوبة بالعربية. وقد توصلت بالأولى، بفصل مسلم وهراني تسلمها من ريفي؛ وكانت الرسالة الثانية تحمل طابع بريد طنجة، أما الثالثة فقد أرسلت من بريد العرائش. وكل واحدة منها، مكتوبة بخط مختلف، وهو ما يؤكد بأن رحالتنا لا زال مصرا على عدم حمل القلم، مفعلا إملاء رسائله. وقد لاحظت ذلك من خلال الترددات والتلميحبات التي لا يمكن لأحد إدراكها سوفا. ولربما اعتقد الطلبة الذين كتبوا هذه الرسائل، بأن هذا الرجل الذي يعلى عليهم خطابا تهيبجا غير مفهوم، هو إنسان محتل عقليا.

ولا رلت ألتقى بعض الأفكار المتفرقة من محمد بن الطيب السريع الخطوات هي مارن المصردم كتبلى بالأمازيغية من كورارة، مشيدا إلى وجود وحدة استطلاع مكوبة من سباط

فرسمين، في قلب الصحراء. والآن، ها هو موجود بالعرائش، حيث يستعد للزول إلى منطقة
سوس التي ينوي عبورها من الغرب إلى الشرق. وكانت أولى الرسائل الثلاث والمؤرخة بقلعة
(الريف) قد وصلتني متأخرة، إذ أن الريفي الذي حملها، كان قد أجل سفره إلى وهران ببضعة
أيام.

هؤلاء أيها الرحالة الجريء الذي يعتبره الجميع مجنوناً، أقول أحسنت! أنت الذي خدمت
فرنسا رغم عدم ثقتك في قدراتك بعض الشيء، أقول أحسنت! ثلاث مرات أقولها! التفتيح
مشوارك داخل هذه الإمبراطورية الفاسضة، أنت أيها المحتاج العظيم.
أكيد أن الوطن الكبير سيفكر فيك، وأنا الضامن لذلك، حينما يرغم السن والعاهات،
مضامك الحديدية على الاستراحة. بعد أن أنهكها العمل لصالح هذا الوطن.. لصالح قضية
جميلة ونobile.

أوجست مولييراس

المغرب المجهول

- مقامة
- تأملات عامة حول المغرب
- أقاليم المغرب
- الإسم الحقيقي للمغرب
- الأعراف
- الأمازيغ
- العرب
- الزنوج واليهود
- ثروات وسكان المغرب
- الدور الموكول لفرنسا في الشمال الغربي لإفريقيا.

مقدمة

تأملات عامة حول المغرب

إن وصف المغرب الذي أشرع فيه الآن عبر هذا المجلد الأول، قد تم انطلاقاً من الملاحظات المباشرة ودون اللجوء إلى الكتب. ولأنني لم اعتمد على أي مؤلف، فإني لم استشهد بأي واحد. فكل المطومات التي تقدمها تعتبر جديدة تماماً ولم يسبق نشرها. ولقد استوثقت، كما قلت سابقاً، من رحلة مسلمير لم يخفوا علي أي شيء، معتقدين بأنني واحد منهم. وسنكون أحسن مكافأة بالنسبة لي هي أن تنتفع فرنسا بهذا العمل، إذا ما كان مفيداً لها.

ولأن المغرب يعتبر مجهولاً تقريباً، وذلك للأسباب التي عرصتها في المقدمة، فهل يتعين علينا أن نبقى إلى ما لا نهاية، لسرى هذا الجهل الذي لا يشرف في شيء. قرر الاكتشافات العظيم ماذا؟ لا أعتقد. ولذلك، فبالرغم من عظمة المهمة وصعوبتها، وبالرغم من الفترات والفتاكن التي ستشوب هذا الكتاب بكل تأكيد، فإني لن أتردد في اقتحام هذا البلد الذي لم يكتشف بعد.

قد مد لنا الدرويش بدء، فليمد له يداً أيضاً دون خوف، ولنقتحم معه هذه الإمبراطورية المربعة فمع هذا المرشد وبرفقة أصدقائنا الآخرين من الرحالة المعتربة، فإننا لن نفيه وإن يتجراً أحد على القول بأننا غرباء عن البلد. لكن ونحن ندخل هذا الأخير، لنذع الله مثلاً يدعوه المسلمون الذين يخطرطون في مغامرة خطيرة ونقل: " اللهم احفظنا من الأنياب الخبيثة للحاسدين والمنافقين في تقدم ".

أقاليم المغرب

ما هو هذا البلد الجديد علينا؟ صحيح أن شواطئه معروفة بما فيه الكفاية؛ لكن داخله يظل قابعا في ظلمة شبه تامة منذ أن وجد العالم. ومع ذلك، توجد به ساكنة نشيطة، أثبتت حيويتها باستيلائها على إسبانيا والاحتفاظ بها عدة قرون. وقد عرفت فترات من المجد في تاريخها، حيث نالست على مستوى القوة والأبهة، إمبراطورية خلفاء الشرق العظمى. ما هو هذا البلد الذي لا يمكننا معرفته بعمق إلا في حالتين:

- 1 - إذا ما قامت قوة مسيحية بغزوه.
- 2 - إذا قرر المكتشفون تعلم العربية بشكل ملائم.¹⁰

يتشكل المغرب الشمالي من ثلاثة أقاليم:

- 1 - الريف: ويمتد على شواطئ المتوسط من إقليم وهران إلى القبلة البحرية لعمارة، غير بعيد عن نيطاوير (تطوان).¹¹
 - 2 - جبال: جنوب الريف وتشغل كل الساحل المتوسطي، انطلاقا من الحدود الغربية لهذا الإقليم، بالإسكفة إلى شريط بالساحل الشمالي للمحيط الأطلسي.
 - 3 - دائرة فاس: جنوب جبال، وتمتد من غرب وجدة إلى المحيط الأطلسي.
- ويتضمن وسط المغرب ثلاثة أقاليم:
- 1 - هوز مراكش الذي تحده البرابر Braber شرقا والمحيط الأطلسي غربا.
 - 2 - البرابر، وهو إقليم ماء يشمل قلب المغرب.
 - 3 - الدهرة، وتشكل الحدود الشرقية للمغرب، حيث تمتد على طول حدودنا الوهرانية من وجدة إلى فجيج.

وهناك أربعة أقاليم تحد المغرب جنوبا:

- 1 - سوس.

¹⁰ - ينسب مقتع بلن الفرنسية الأولى ستمحق قبل الثانية.

¹¹ يشبه كتابنا الأوروبيون باستمرار الكلمات العربية والأمازيغية. لذلك قلنا لمعظم بصراحة في كتابي. حتى التكوين المعقلى والحلي للأسماء المغربية. حتى ولو اقتضى الأمر وضع الاسم المشهور المعروف في أوروبا. بين فوسين. إذ يجب النطق بكل حروف الكلمات العربية والأمازيغية.

2 - درعة

3 - قساقية الحمراء.

4 - الصحراء.

وهذا التقسيم معروف لدى المغاربة المتعلمين، لكنه مجهول بأوروبا، وهو يتم صوره جديدة عن هذه الإمبراطورية التي تبدو خرائطها مقبلة على فوضى وعلى اضطراب، لا مثيل لهما في أي بلد آخر.

الاسم الحقيقي للمغرب

كل الكتاب الأوروبيين، لا يكون بقوة على أن المغربية لم يعطوا أي اسم لبلدهم.. وهذا أيضا خطأ يحسب على جهلهم باللغة العربية. أما الحقيقة فهي كما يلي:

إن المغربية يسمون بلدهم في مجموعه باللفظة المألوفة: الغرب. ويمنحون لأنفسهم اسم مغاربة ومفرده مغربي. أما تسمية Maroc و Marocain ، فهي مجهولة لديهم تماما، إذ أن لفظة "ماروك" Maroc ، هي كلمة مشوهة بشكل فظيع، نتعرف من خلالها بالكاد، على التعبير العربي لمراكش، المدينة الرئيسية للإقليم الذي يحمل نفس الاسم.

وفي العربية النصحى، نجد المغرب الأقصى كقابل لللفظة Maroc ؛ يستخدم الأهالي المتعلمون وحدهم هذه الصيغة أثناء حديثهم لكنهم يطقونها: ElMag'rib أو (El Mug'rib (avec un ، حتى لا يتم خلطها مع لفظ مشترك وهو El Mag'reb أو El Mug'reb (المغرب، الذي يعيد غروب الشمس). ولم يتمكن العديد من المستشرقين الأوروبيين من وضع هذا التمييز، لأنهم كانوا يجهلون النطق الحقيقي للكلمتين.

وكيفما كان الحال، فعلى اعتبار أن كلمة El Mag'rib أو El Mug'rib (المغرب) لم تكن مستعملة إلا في العربية النصحى أو من طرف بعض المتحذلقين القلائل، فإنه لا مجال لتبنيها على حساب اللفظة المألوفة وهي الغرب، التي يشير من خلالها، كل من المغربية والجزائريين المتعلمين والأميين، العرب والأمازيغ إلى المغرب Maroc . ويجب أن نحل تسمية الغرب التي يبررها استعمال مختلف سكان إفريقيا الشمالية، بما فيهم المغربية أنفسهم، محل اللفظة البهجية والمغربية "ماروك" Maroc ، المثبتة في خرائطها وجغرافيتها.

وتلقا لمزيد من التقويد، ودون اعتبار الجمع في اللغة العربية، ونحن أن تكون كلمة
 مغربي Mr'arbi لم بالأحرى غربي، هي القطعة المحجرة عن عرق سكان الغرب برمتهم. ولنا لا
 أشك مع ذلك، في الصعوبات التي ستلقاها هذه التعديلات الصعبة، إذ من الذي يستطيع مقاومة
 قرويين القوي والمنفس؟

الأعراق

لقد كانت الأراضي الممتدة من الصحراء إلى البحر الأبيض المتوسط ومن المحيط
 الأطلسي إلى الحدود الومالية، منذ العصور القديمة الأولى، مهد شعوب وحلول التاريخ دون
 جدوى لنفاذ إلى أصولها. ولأنه يتشكل من عصابة جبلية ومن سهول شاسعة ويمتلك أعلى قمم
 الأطلس ويحيط به بحران عظيمان وتسقيه أكبر مجاري الأنهار بإفريقيا الشمالية، باستثناء النيل،
 ففي المغرب فتح لو جذب إليه سبكراء أعراقا نشطة وسحابة بشكل كبير

المازيغ

يوجد حاليا بالمغرب شعبان رئيسيان وهما: الأمازيغ والعرب. ومن المحتمل أن يكون
 الشعب الأول هو ساكن البلد الأصلي، في حين أتى الشعب الثاني كغزاة.
 ولا يعرف أصل الأمازيغ، ولربما ظل الأمر كذلك إلى الأبد. وقد شغلوا منذ زمن سحيق،
 كل ذلك الجزء من إفريقيا الشمالية الممتد من الصحاري القارية إلى المحيط الأطلسي ومن
 المتوسط إلى السودان.

إن المازيغ المغاربة الذين رأيتهم (قريف ، سوس ، مراكش، درعة)، هم على العموم
 قصير قامة من العرب فطولهم قريب إلى حد ما، من طول الفرنسيين. وتجعلهم خصائصهم
 الجسدية، شبيهين بأعراق جنوب أوروبا، مع ملائح صلبة أكثر برورا مما هو عليه الأمر لدى
 القرويين الفرنسيين. أما خصائصهم الأخلاقية فلا تتميز كثيرا عن خصائص العرب الذين أخذوا
 عنهم تعصبهم الديني. ولربما كان الأمازيغي لا يكتب بسهولة مثل العربي، إلا أنه يكتب مع ذلك،
 في غالب الأحيان. وهو لا يأخذ من التعاليم القرآنية سوى ما يتعلق بصوم رمضان، لكن ذلك لا
 يمنع من أن يكون متعصبا مثل أبناء ملته في العلم بأسره.

وكعرق لا يروض، فإن الأمازيغ شكلوا منذ فجر تاريخهم، كلبوساً للفراء الذين كروا،
لخضاعهم. فكل من قرطاجيين والرومان والوندال والبيزنطيين والعرب والإسبان والأتراك، لم
يحطوا بفترة هدوء مع هؤلاء الأعداء المهندسين لوجودهم باستمرار. وإذا ما كانت القوة المنظمة
لفرنسا حالياً، قد تمكن من السيطرة عليهم في الجزائر، فإنه في حالة ضعفها سيحدث التمرد
سواء لدى الأمازيغ أو لدى العرب. لذلك، فإن شعار الأمم الأوروبية التي تخضع هؤلاء الأعداء
غير المتسامحين مع المسيحية هو: الصرامة القصوى والعدالة القصوى.

ويعتبر التفكير في إجماعهم بمثابة يوتوبيا لا يكتثرون بها أبداً. فالمسلم يعتقد، بعمل دينه
وتاريخه وحضارته الواقعية جداً، بأنه مطلب بنشر الدعوة وسط الشعوب. فله نفس المشاريع
التي وصحها بشأنه. وهو يريد هدايتنا وأسلمتنا ونمجنا بالإفحاح أو بالقوة. وقد علم باندعاش،
لكن دور اضطراب، بل لدينا بشأنه مشاريع مشابهة. ولهذا فهو يقبل الصراع ويتحدى في
الاعتقاد بأن الكتلة الإسلامية لن تمس وأن النصر النهائي حليفه. ومنذ أن عرف مخططاتنا أصبح
أكثر مقاومة لممارساتنا التحضيرية.

إن الأمازيغي الجزائري بالخصوص، والذي وضعنا فيه آمالاً، أصبح محرباً أكثر فأكثر،
فهو يشارك مصطلحيه القدامى الذين كانوا أيضاً معلميهم، نفس القضية. ومجمل القول، لقد كان
مسلماً وسبغ ذلك. فالاهتراق العربي سارم عليه تأثيراً مصاداً إلى الحد الذي فقد فيه، أينما تم
تربيته، ليس فقط حب الوطن، بل فكرة هذا الأخير ذاته، وهي فكرة مقدمة شكلت أسس قوته
وكانت شعاراً له على مدى أربعة وعشرين قرناً من الصراعات الصارية ضد الشعوب القنزيرة.
وكل ما في الأمر، أن حب مسقط الرأس قد عوض لديه بالتعصب، وهذا حاجر لا يمكننا الانتفاخ
حوله ولا اجتيازه.

أما الأمازيغ المغاربة الذين يعرق العرب وسطهم، فقد ظلوا إلى حد الآن، أمازيغ حقا
وحقيقة، أي مرتبطين كثيراً بالأرض وبالمنطقة التي ولدوا بها

إلا أن نزعتهم الوطنية لا تشمل كل المغرب في الواقع، فهي إقليمية بالأساس ولا تذهب
أبعد من الحدود التي رسمتها الطبيعة أو الانتصارات، لأقسامهم القنزيرة. وسيساهم المبقر الذي
بإستطاعته جمع كل هذه القوى الأمازيغية تحت راية واحدة، وهي القوى التي يجهل بعضها
بعض وبشل بعضها بعضاً، في خلق إمبراطورية قوية على أبواب أوروبا، يكون وزن سبغها
ثقيلاً في ميزان الأمم.

ولا تعرف المسائل السياسية للأمازيغ ولا ميولاتهم الفكرية ولا تطوراتهم الاجتماعية،
إلا بشكل يسير، نظراً للمعلومات الضئيلة والعقيمة، وهي معلومات مدونة من طرف أعدائهم

بمؤونة وجهل معطرين. وأنا إن أبحث في ماضي هذا الشعب، فذلك لا يهمس. أما اليوم، فإن الأمازيغ يشكلون عرقاً متميزاً، ذكياً، شغلاً ويتصفون بعقيدة أكثر عقلية من عقيدة العرب. وعلة ما يتم إرجاع ما لجزر من الأشياء العظيمة والجميلة في كل بلاد الأمازيغ إلى الأجنب الذين جاؤوا كمزاة، لكن للمسي بأنه منذ بداية الاحتلال القرطاجي، فإن بلدان العرق الأمازيغي كانت متوهدة على مدن أهلة بالسكان وغنية بشكل كبير، وكل الأجنبي يدخلها بسهولة. ومما لا شك فيه أن سكان صيدا القدامى، قد علموا الأمازيغ الشرقيين الذين علموا إخوانهم الغربيين، بعض الصناعات الكمالية مثل: صناعة الزجاج ونسج الأقمشة الباذخة والكتلية الأبدية.¹²

عبر إلى الأمازيغ كانوا يتوفرون، قبل هذه الغزوة الأولى، على حضارة جعلتهم أندادا للتجار الفينيقيين. ولربما كانت المدن المهدمة التي حددت لي أطلالها الهامة في قلب إقليم البرابرة، سابقة على المرحلة القرطاجية والرومانية، ويدعوها سكان المنطقة لطلال نامير Ruines de Nemroa. وهذه لفظة معبرة، تعيد بأن الأمازيغ كانوا معاصرين لأقدم الأثر في العالم.

العرب

يشكل الأمازيغ ثلثي سكان المغرب تقريباً. ويتشكل الثلث الباقي في غالبية من العرب، ويأتي بعدهم الزنوج واليهود. ولربما سمحت إطلاقة سريعة على أسباب عظمة واتحطاط العرب، بتصور الخاصية التي يصعب تحليلها، والتي تميز هذا الشعب الغريب والمعروف بالكلاد.

إن دينة المسيح شقت طريقها ببطء، فقد كانت قبل كل شيء كياناً أخلاقياً أمر بعدم إشهار السيف. وعلى العكس من ذلك، فإن الدعوة الإسلامية التي جعلت كنوز الأرض ونعيم الآخرة، تتلأأ أمام أعين أتباع محمد (ص)، قد دفعت بالعرب إلى غزو العالم كضلال هادر. وقد غزل غزو هذا العرق الذي جاء متأخراً، كالصاعقة. فهي أقل من قر، كانت المساحة الشاسعة الممتدة من نهر الغانج Gange إلى جبال البرانس Pyrénées، تخضع لحكم الخلفاء. وكان الشاطئ الشمالي لإفريقيا من أولى المناطق التي احتلها هذا الشعب الجريء الذي تختلف عقيدته عن عقيدة الرومان. ففي حين كان الروماني يرجع كل شيء إلى الدولة ويتقبل المركزية المفرطة، فإن العربي الذي كان قد انتقل فجأة من الحياة الرعوية المتواضعة إلى واقع السلطة السياسية،

¹² - لقد كان التكوين المزدوج للغة ثرما Thugga، يتم بالونيقية وبالأمازيغية.

حافظ رغم كل شيء على العادات المستقلة لحياته الجوفاء كزجاج وحل ونهاب. لقد كان ملكا في صمراته ويريد أن يبقى كذلك وسط أعدائه المهرولين، حيث يفرض على الجميع طاعة لروساء والتخلف مع رفاق السلاح وبعد انتهاء الفتح، يعود العربي كما كان قبل الحرب المقدسة، أي عضو كل سلطة وكل من يقف أمام عرائزه، كقسان أت من فصائل شاسعة. وهذا تخلص لريد من نوعه.. بقي حين تحمله طبيعته نصف المتوحشة على حب الحرية دون قيد ولا حد، فإن كبرياءه تلزمه بقبول لولوجاشية، يقوم بمحاربتها حالما لا يعود منشأها إليها، حيث يبني ويهزم تباعا، هذه الطوائف Colerics المشاكسة التي دمرت تدريجيا تحت اسم الصف içaïf الإمبراطورية العربية الشاسعة، وجعلت من الصعب في الجزائر الحالية مثلا، إدارة هؤلاء الرجال غير المنضبطين الذين خلفوا فقط من أجل الحرب والحسن.

لقد قام الرومان عدد بسط سلطتهم على العالم القديم، بمنح الأمم الفاضلة لهم، داخل إمبراطوريتهم الشاسعة، بجعلها رومانية. أما العرب الذين كان مهمهم الوحيد هو نشر ديانتهم مع أخذ العنق، فلم يفكروا ولو لحظة واحدة بالاندماج داخل وطن. فهناك شبه جزيرة عربية، وهناك قبائل عربية متناحرة فيما بينها، لأن الأمة العربية لم تتشكل وربما لم تتكون أبدا. فالعرب يحملون شعورا عميقا لبراء ديانتهم، وليس لهم وعي بقوميته. فكيف كان بإمكانهم التفكير، وسط انتصاراتهم، في جمع هذه العناصر المتفرقة والمتناحرة المكونة لممتلكاتهم العريضة، تحت راية واحدة؟

وفي إطار الانقسام العام الذي وجد فيه كل عرق وكل أمة وكل قبيلة، نمسه مستجرا وشبه معزول وسط الفوضى الإسلامية، فإن الشعوب الفاضلة، ومنها من اعتنقت الإسلام، ستعالمظ على تقديس قوتن وسيعمل كل واحد منها، حسب الظروف العامة أو المحلية، على طرد أو إخضاع هؤلاء الأسيد اللامبالين والمستغنين، الذين لم يحسنوا معاملتهم، من أجل دمجهم بأكثر إمبراطورية عرفها التاريخ. إن العربي لم يكن فلقا ولا مستعمرا بالمعنى المتداول لهذه الكلمات، بل كان ومثل داعية¹³ ومبشرا متحمسا، فهو لا يدمج الشعوب بل يهدمهم ويؤملمهم muslimanise، وهي مهمة عظيمة، تكفي وحدها لتحقيق مجدد. فالانشغال الأساسي لهؤلاء الفراء، لو نقل مهمهم الوحيد، كان هو جعل كل شعوب العالم مسلمين. وكل هؤلاء الدعاة القرسون الحاملون السيف بيد والقتران بيد أخرى، يكسبون نفوسا لطبع الله، دونما اهتمام بالفضلة إقليم إلى وطن لرضي غير موجود بالنسبة إليهم. وتترجم أقوال عقبة بن نافع بوضوح هذا الموقف قنات لدى كل العقائدين المسلمين؛ إذ يحكي أنه بعد وصول هذا القائد إلى الشاطئ

13 - مصفا كلمة داعية على كلمة كاهن كقبيل للغة الفرنسية prêtre . (المترجم)

الأطلسي، متبوعا بقلعة المحدودة والشجاعة من الجنود الذين عبر معهم شمال إفريقيا كالسهم، دفع بهرسه إلى موج البحر مغالبا ربه، بأنه لو لا الأمواج التي واقت حليزا أمامه، لاستمر في مسيرته من أجل نشر كلمة الله الطيبة والإعلان عن عظمة إسمه. وقد وقف الجيش كله وراء فقهده واتحلى إجلالا للإرادة الإلهية، مرددا عبارة: الله أكبر. وسيسكر عقبة ذلك اليوم على الشاطئ، وفي اليوم الموالي سيتوغل مع مجموعة من الدعاة المسلمين داخل المناطق الجنوبية للمغرب، ليس من أجل الغزو، ولكن من أجل الهداية إلى الإسلام.

إن الهيمنة الدينية والفكرية للعرب، قد تطورت بشكل يلائم عقيدة هؤلاء الرُحل الحلمين والمهوسين بالحرية والشغوفين بالحرب المقدسة والنهب، علما بأن الهيمنة السياسية بالمعنى الدقيق، لم تكن موجودة بالنسبة لهؤلاء المبشرين المحاربين الذين كانوا يجهلون الاسم الجميل للوطن. وقد وصلت هذه الهيمنة إلى الذروة في عصر هارون الرشيد وأضعت بقوة لا مثيل لها على باقي العالم. وتمثل هذه المرحلة أوج وبدئية انحطاط العرق الذي بهما. وستتحدد ساعة نهاية هذه الهيمنة بنقطة بالغة، أي في اللحظة التي سيعيد فيها انقسام سلطة حلفاء المشرق الناتج عن غياب التشريعية القومية لدى العرب، هذا العرق إلى القوصى؛ ويسلم هذه المجموعة من الرجال إلى ظلمات الجهل من جديد، وهي التي اتسمت بالشجاعة واعتبرت من أكثر الجماعات موهبة وإشعاعا خلال لقرون المنصرمة.

الزواج واليهود

سأحدث بإيجاز عن الزواج واليهود المخاربة الذين يشكلون أقلية صنيعة ومحتقرة؛ علما بأننا سنتعرف عليهم بشكل أكبر عبر صفحات هذا الكتاب، ويعتبر مواطننا الميكونت دو فوكو Vicomte de Foucauld، هو الكاتب الأوروبي الوحيد الذي درس اليهودي المغربي عن قرب ولاحظه بشكل جيد. فقد سقط اليهودي المغربي، وهما عدا بعض الاستثنائات، في أدنى درجات الخسة التي نخس فيها بفعل ذنابة طبيعته وقساوة أسلاف البلاد.

أما الزنجي فقد لظنت، حينما أصبح مسلما، من هذا الانحطاط المحسوس والجسدي الناتج عن التعتصب والقمع. فهو لا يختلف عن سيده الذي يملكه أمينا في الشجاعة والتعصب والكرم؛ إذ أن المسلمين الذين لا يراقون بسبيدهم الكفرة، يبدون لطفا راقما لاتجاه إخوانهم في الأمة من

العبيد الذين أصبحوا ملكا لهم، بفعل قوة السلاح أو نتيجة ضيق ذات اليد. وهذا مثال صريح للطبوبة، فمعه هؤلاء المسلمون لقوى المسيحية، على مدى قرون طويلة، لكن بدون جدوى.

ثروات وسكان المغرب

إن المغرب المجاور لنا، بلد رائع. وليس هناك في إفريقيا شاسعة بلد أجمل ولا أكثر تنوعا ولا أغنى منه. ويحتر اطلال مناخه ولطافته مضرب الأمثال عند العرب. كما أن خصوبته لا مثيل لها، إذ يكفي أن نلقي حفنة من القمح على أرض مخدوشة بالكاد بالمحراث الخشبي، كي نحصل على حصاد رائع. وقد كان من الممكن أن يكون هذا البلد الموجود في منطقة مستقلة والمحاط ببحرين كبيرتين والمروى بالمطر آتية من جهتهما، مخزون زراعيًا غنيا بالنسبة لكل إفريقيا الشمالية، لأنه لا توجد أرض غنية ومعطاء، مثلما هو الشأن في المغرب. وبينما يعني جيرانه بالشرق من الجفاف، فللغرب لا يشككي إلا من الحدد الكبير من الفيضانات التي تكون ذات فائدة مع ذلك والتي تغمره في فصل الشتاء، مؤدية إلى نمو الأعشاب في مروجها، حيث ترعى قطعان الماشية الوفرة الحدد التي يمتلكها الرحل.

ورغم ذلك، فإن احتقر الملوك القدامى من الصحراء للأعمال الزراعية والضرائب المعروضة على الفلاحين والمنح الكلي لتصدير الحبوب، كل ذلك شكل ضربة قاضية للفلاحة المغربية. لذلك ظلت الساكنة القروية على حالها ولم تستفد من محصولاتها. كما أن كمية المنتوجات الفلاحية المعروضة في الأسواق، كانت بالكاد تكفي لحاجيات السكان.

وفي كل الأقاليم والسهول، كما في الهضاب، يتم على الخصوص الاهتمام بتربية الخراف والماعز والأبقار والحياد والجمال. وتعتبر الجمال والخراف موارد ثمينة بالنسبة للرحل، ولا يوجد تصدير الحيوانات إلا على حنودنا، وهو لا يقطع من المغرب سوى جزءا يسيرا من ثروته الرعوية؛ كما أن ثمن الأبقار والخراف زهيد جدا في كل الإمبراطورية، باستثناء المدن التي يتواجد بها الأوروبيون. فالخراف الجدد يساوي ثلاثة فرنكات في السوق والثور السمين نادرا ما يتجاوز أربعين فرنكا.

لدى الجبال المغربية العديدة والرائعة والتي يسمح لها ارتفاعها بقتوفر على الثلوج بشكل دائم، فلها مكسوة بغابات شاسعة، عالية الأشجار وبأدغال خطيرة تعيش فيها حيوانات مفترسة.

ومن بين المناجات السارة التي تنتظر الأسيد المحتشمين للمغرب، تذكر في المقام الأول، للثروات المعدنية لهذا البلد الذي نجد فيه بكثرة، كلا من الذهب والفضة والنحاس والرصاص، إلخ...

وقد سجلت بحافية في حكائتي وخرائطي، الأماكن التي توجد بها المناجم المعدنية لهذه المنطقة الحية والتي لم تستغل بعد. وهناك مفاجأة سارة أخرى، خصوصا بالنسبة للقوة التي ستقوم بتكبير مصير المغرب، ويتعلق الأمر بالمعد الإجمالي لسكان هذه الإمبراطورية. وكل ملي، هو أن أبرهن بالفعل، على أن جميع التقديرات المنجزة إلى حد الآن، بهذا الصدد، هي تقديرات من سيج خيال مؤلفيها، وحتى تلك التي تبدو فيها المبالغة، تظل أقل مما يقدمه الواقع. فالمغرب أهل بساكنة أكثر عددا من ساكنة الجزائر التي تلح دائما على مقارنتها بها. ويجب أن نعلم بأن الأمازيغ يشغلون أغلب أجزاء البلد، جبالا وسهولا وأن يقللهم سواء كانت معربة أم لم تكن، تمتد بعيدا حتى الجنوب.

وإذا ما أردنا وضع مقارنة بين ساكنة المغرب وساكنة منطقة شبيهة إلى حد ما بالمغرب، من حيث الأرض والرجال، فإن للقبائل هي التي يجب أن تستخدم كنموذج لهذه المقارنة. وبالفعل، فهذا وهناك، نجد نفس الحرق والأرض والعمادات واللغة، باستثناء بعض الخصوصيات اللهجية البسيطة، ويحظى المغرب بامتياز على منطقتنا القبلية. فلكونه ظل على الدول مكان لجوء للمسلمين المظلومين، فإنه سيتوفر بالضرورة على أكبر عدد من السكان بالكيلومتر مربع. تطرد المورسكيين من إسبانيا وغزو الجزائر من طرف قواتها، مكن جارتنا من ربح ملايين المهاجرين. أضف إلى ذلك، أن الحرب الخارجية لم تؤد أبدا إلى أضرار داخل هذه القلعة المحصنة للمسلمين الأمازيغ.

وإذا ما وضعنا مقارنة بين متوسط الساكنة بمنطقتنا القبلية، والذي يقدر بتسعين نسمة في الكيلومتر مربع، فإننا سنلاحظ بأن المغرب بمساحته البالغة 812 ألف كلم مربع، يمكن أن يتوفر على 73 مليون نسمة، أي نفس عدد سكان روسيا. لكن، نظرا لكون الصحراء تمتد على أكثر من ربع هذا البلد الشاسع، فيجب، كي لا نسقط في المبالغة ولكي نحقق لتوازن بين الأجزاء الأمانة والأجزاء غير المأهولة، أن نفر بوسط سكاني أقل بالثلثين من الرقم المذكور، أي ثلاثين نسمة تقريبا في الكيلومتر مربع. وهذا الرقم المتواضع والأدنى مما يوجد في الواقع على الأرجح، سيحطينا على الأقل 24 إلى 25 مليون نسمة بهذا البلد الجميل المعروف بالكلا، والذي يلح جغرافيوننا على تقدير عدد سكانه فيما بين خمسة وستة ملايين من النفوس.. ولا بد أن يكون المغرب أهلا بالسكان، لأنه بإمكان قبيلة واحدة من قبائل الأمازيغ أن تواجه كل قوى المملطان مهتمة وأن تجهز للمعركة 100 ألف مقاتل. وتبدلنا معاركنا بلدا هو Dahomy وطونكان

Tonkin مجرد مناوشات خفيفة إذا ما قورنت بالمجزرة المريعة التي تحدث عندما تصطدم قبيلتان فيما بينهما. ففي أوسط شهر ماي من هذه السنة، تنازعت قبيلتان، ليستا هما الأكثر عددا من بين القبائل، بالقرب من الحدود الجزائرية وهما القهالية وبنى زناسن؛ وقد تركتا على أرض المعركة 600 رجل و 300 فرس. واقتربت هذه المجزرة في كل من ثلاث ساعات، بدون مدافع، وببنادق قديمة وبالمصوف أو بالسلاح الأبيض إن صح القول. وقد أكد لي مغاربة الذين تحدثوا عن هذه المعركة، بل المغرب هو وكر نمل يمج بالرجال، وفقدانه ل 600 رجل شبيه ب 600 قطرة ماء ناقصة من البحر..

إن المسلمين الأقارب الذين طاردهم الجيوش الأوروبية المقصورة لم ينجوا سوى ملجأين آخرين بإفريقيا وهما: ليبيا والمغرب. ورغم شساعتها، فإن الصحراء لم تمنحهم سوى مقاما بسيطا لا يليق بالحيش الكريم والأمن. ولم تكن ليبيا، هذا البلد القاحل والخالص للسيطرة المنفرة للأتراك، لتمارس عليهم أية جاذبية تذكر. أما المغرب، فقد كان بمثابة الأرض المصيفة للموجة وجنة المسلمين المرغوب فيها والقلمة المحصنة للإسلام والأرض المباركة التي يسودها إلى يومنا هذا العدة النبلاء لعظمة الزهراء، البنت المحبوبة للرسول (ص). وإذا ما نجت هذه المنطقة المحظوظة من أطماع الأمم الغزوية، في المئة سنة المقبلة، ففيها ستوفر عند نهاية القرن العشرين على حوالي 40 مليون نسمة. وبدون انتظار لهذه المدة الطويلة، فإن الإمبراطورية بإمكانها من الآن، وبساعتها التي تناهز 25 مليون نسمة، أن تبرز فوق حلبة القوى العظمى؛ وذلك إذا ما حررت لدخول فعلا في دولة الأفكار والسياسة الأوروبية.

لكن، من المرتقب أن يظل المغرب محظوظا على حدونه وسكيبته العميقة التي حظي بها منذ قرون. فالمسلم المغربي لن يتغلى أبدا عن أحلام اليقظة اللطيفة وعن الحرية للاستقامة والحياة البسيطة والسهلة، وذلك بغرض الارتواء داخل بواليب أنشطتنا؛ وهي الأنشطة التي لا يرى فيها سوى الجانب المادي، أي تلبية الحاجيات المتجددة باستمرار والرغبة اللامحدودة في اكتساب الثروة. ومع ذلك، كم سيكون مخطين لو تصورنا أن وكر النمل هذا، الذي يمج بالرجال، لا يتوفر على أفكار ورغبات وأهواء وأنشطة؛ أو تمتلئنا كهذا مصاب ببلادة لا أمل في الشفاء منها.. إن المغرب يشبه خلية نحل منطقة بشكل محكم، ولا يمكن لطنين وحركات النحل لشغل ولا لحبة المعارك والمنافسات بين المملكين للخلية أن تخترق الجدار المانع الذي يفصلها عن الخارج. ويجب أن نكون نحلا في الخلية نروية الحياة للنشيط داخل شبه قنابوت هذا. فالأمر يتعلق بحضارة حقيقية هي نتاج للتعاليم القرآنية وبنقلها مثيرة، سائتين في المناطق المغربية.

إن الزوار الأوروبيين للبحرين عن سرفة المجتمع الإسلامي الحقيقي والذين لا يسيطرون اللغة العربية ولا يرون أي نشاط مفيد عن هذا الشعب الغريب، قد اختلطت عليهم الأمور واعتبروا الحالة الوجدانية التي لم يدركوها مجرد بلادة أو انتشاء دهم. وحتى اليهودي المغربي نفسه، ليس أكثر دراية من المسيحيين، بالحياة الحميمية لأسواده. فهو محقر ومهمش في أغلب المناطق المستقلة داخل الإمبراطورية، أي في خمسة أصداف المغرب وهو بالكاد مقبول في بعض المناطق التي يتواجد بها، لكنه يظل على مسافة بعيدة عن سيده المسلم الذي يحتجزه هو وزوجته وأبنائه داخل غيوتوات مخزية، معروفة تحت الاسم المهين: الملاح.

الدور المؤكول لفرنسا في الشمال الغربي لإفريقيا

يبدو أن فرنسا مدعوة لخلافة العرب على مستوى الهيمنة الثقافية التي مارسوها في كل البلاد الأمازيغية، منذ فتوحاتهم الأولى، ومدعوة أيضا لخلافة الأمازيغ على مستوى الهيمنة السياسية التي ما فتئ هؤلاء المحاربون الأشداء يمارسونها فعلا لمواجهة سيطرة الغزاة، بالرغم من الانتكاسات التي لحقتهم. لقد كان العربي داعية مشاكلنا لا بشيع، وكان الفوندي متوحشا والروماني طاغية مستحوذا والقرطاجي ناجرا عبدا للعجل الذهبي. ويجب أن يكون دور الأمم الحديثة المؤهلة لقيادة الشعوب المسلمة، مغايرا تماما.

فبعد الدروس القاسية للحروب الصليبية وبعد المسار القشاق للاستعمار الذي تم في شروط غير ملائمة، نصف علمية ونصف حصارية؛ ها هي الأمم الأوروبية وعلى رأسها فرنسا، ترسم لنفسها عندما في فجر القرن التاسع عشر، وذلك في إطار حملتها الاستعمارية الإفريقية. وهو نموذج بلغت تماما من تصورات وأحكام الشرقيين. وقد اتبعت كل أمة من هذه الأمم الطريق التي رسمتها منذ قرون، أكثر المبادئ الأخلاقية صفاء، لكن النتيجة كانت عكسية. وبهذا الصند، تعتبر فرنسا الآن تعرضا للنور المسلمين. هؤلاء يؤخذون علينا فقط طبعا المتساهل، بالمقابل فإن العيوب التي يجدونها في الشعوب الأخرى كبيرة. وإن لنذكر هنا سوى الأمم التي يمكن أن تلمع في امتلاك المغرب، وسأقول بصراحة المعهودة ما يتصوره عنها المسلمون المغاربة خصوصا. فقد قالوا لي مرات عديدة: « إننا لا نحب عجرفة وبرودة الإنجليز ونكره تعصب وفصر نظر الإسبان والتهور التراجيكوميدي للإيطاليين وثقل قل الألمان. ورغم طيش الفرنسيين ومنهم

نحو اليهود، إلى حد ما، فإن فرنسا هي التي سنختار لتحكمنا، إذا ما لجبرتنا الظروف على ذلك».

في فرنسا الطيبة والغالية، إن حبك للامحدود للشعوب وخصالك للنبيلة وكرمك للخيفي والمطيم، تجلب لك التعاطف وتؤثر في القلوب الأكثر قساوة. لكن جهلك بالرجال وبمخطيئهم، وإزدادك الراسخة في إقرار سمادة بشرية، رغم كل شيء، كلنا السبب في ارتكابك لأخطاء شنيعة وإساءات مؤلمة. فقد أردت إجماع المسلمين. ودفع بك فلاسفتك الذين لم يسبق لهم أن رأوا عبادة البرنوس، باتجاه هذه الطريق المعطاء لكن المحفوفة بالمخاطر.

فتقبل التفكير في إجماع المسلمين وجب معرفتهم. ذلك أن كل مسلم يولد وفيه شيء من الدبلوماسية. وسيكون أكثر رجالا السياسيين ذهاء، مجرد تلميذ أمامه، فالمسلم بشكل نقزا، وهو معروف فقط من طرف بعض المسيحيين القلائل الذين شاطروه حياته واندمجوا معه إلى صبح القول. وهو من طبيعة مرنة، ذكية، متمرسة على المجادلة، تلتف ببراعة على الصعوبات، منفعلة، لكنها تحسن الانتظار؛ لذلك فنحن أن نجد فكرا أعقد من فكره، فهو أكثر غموصا بالنسبة للآخرين، بل حتى بالنسبة لنفسه. ورغم أهمية تعليمنا، فإنه لن يغير من هاته الطبيعة شيئا. فلتحقيق ذلك، يتعين أن نجرده من ديانته، وهذا أمر مستحيل، علينا تجنب محاولة القيام به.

هل معنى هذا، أننا ملزمون بالتخلي عن استعمال هذه القوة العظيمة التي تضغط بشمال وفي قلب إفريقيا؟ كلا.. بل يجب علينا استعمالها واستغلالها في أقرب وقت ممكن.

وما دام المسلم غير قابل للإجماع، فنتركه مع أفكاره ومعتقداته المحترمة إجمالا بشكل كبير، ومع عاداته وقوانينه وأعرافه العتيقة وأحواله الشخصية وأحكامه الممبينة، التي تشكل سماعته الوحيدة في هذا العالم.. ولنحصل فقط على مساهمته معنا في ثلاثة أعمال أساسية وهي: الحرب والزراعة والفرعي. إنك هو كل ما يمكننا أن نستقيده منه، وهو شيء كثير. وفي حصرنا هذا الذي توجد فيه فرنسا محاطة بالأعداء، فإنها ستكون في حاجة إلى كل أبنائها للدفاع عن أهداف جبرائها الذين يفوقونها عددا. وسيكون عدد 300 ألف سيف مسلم في صفوفنا أمرا لا يستهár به. ونحن نعلم بأن شهامة المسلمين لا تصامى، كما نعرف احتقارهم للموت. فلنعلن في الجزائر إذن، للخدمة العسكرية بالنسبة لكل الأهالي وسبقيلوبها بكل سرور إذا ما احتفظتم لهم بقوانينهم وأعرافهم ومحاكمهم. وليظل المسلم غير المنجز، رعية فرنسية على قنوام. لنعامله بطيبة وبعدل مع الصرامة. لنسحق إدارة مبنية على أسس جديدة، إدارة متجددة، لكن غير مختلفة عن القديمة التي يجب إصلاحها فقط. فالدوايب المعقدة لإدارتنا الحالية والبطء المحيط لعدائنا، يثير

محافظة هذا الشعب البدائي المتعود على قاصر وحيد ذي كفاءات لا محدودة، بحسب أثناء الجلسة في الخلافات التي قد تتطلب شهورا عديدة ومصاريف باهظة بالنسبة لمحاكمها.

صحيح أن اليهودي الجزائري كان محفوظا بالمقارنة مع المسلم، علما بأن الأول لا يتوفر على الفصل الحميدة للثاني. لكن ما زال أمامنا متسع من الوقت كي نضع في مصاف الرعية، المريب الذي لا يستحق شرف أن يكون مواطنا فرنسيا. وستكون إعادة اليهودي إلى الوضع الذي كان يوجد فيه قبل السنة الرهيبة L'année terrible، عملية عادلة بشكل تام وعملا سياسيا رفعا.

ويجب أن تكون للرعايا المسلمين واليهود نفس الحقوق والواجبات. فالمسلم الذي أراق دمه مرات عديدة من أجل فرنسا، يشعر بالظلم وبالتمرد، عندما يدرك أننا نكيل بمكيالين، وبأن الكائن الذي يحتقره أكثر من أي أحد، قد يصبح أحيانا سيده، بل وسيدا نحن.

وإذا ما كتبت الجزائر وتونس بإمكانتهما مجتمعيتين، أن تقدمنا لنا 300 ألف سيف مسلم، فمادا سنقول عن المغرب، عندما يدخل نهائيا في تلك فرنسا؟ ففي ذلك اليوم، سيصبح وطننا سيد العالم. فمن هو الجيش الأوروبي القادر على مقاومة هجوم مليونين من الأمازيغ والمغرب المسلمين والمندريين على الطريقة الفرنسية؟ وأية إمبراطورية استعمارية رائعة ستكون لنا في هذا الجزء الشمالي الغربي من إفريقيا؟.. تونس! الجزائر! للمغرب.. وخصوصا للمغرب الذي يساوي وحده أكثر من الآخرين مجتمعين! ونتمنى أن يكون المغرب، هذا البلد الإفريقي الذي لا مثيل له، في يوم ما، أجمل رخرفة على التاج الاستعماري لفرنسا! فهذه القطعة مهمة وتستحق أن نهتم بها، وستكون ممتلكاتنا الأخرى باهظة مقارنة بهذا الجزء الملكي.

وإذا ما كانت غالبية المغاربة غير قلقة على مستقبل وطنها، فإن أصحاب الرواية المسؤولين عن مصير المغرب، يعرفون جيدا أن سيف المسيحي المستعد لاختراق أعماق الأقاليم بالإمبراطورية؛ إنهم يحلمون بأن الاستقلال الحالي لهذه المنطقة الجميلة، يرجع إلى المنافسة القائمة بين القوى العظمى ولا يجهلون بأن المسألة المغربية ستحل مع مسائل أخرى، بعد الانعجار لعالم الذي سيأتي للمبارزة الأوروبية الكبرى. لذلك، فهم يبحثون عن كيفية تقادي العاصفة المدوية فوق رؤوسهم.

لقد ناقشت مرارا المسألة المغربية مع أعيان فاس ومراكش القلتين جدا وعن حق، على مستقبل بلادهم. والنتيجة التي توصلنا إليها، قد تقدم لفرنسا امتيازات لا تعصى والمغرب منافع لا تقدر بثمن. وأن تراق قطرة دم واحدة للوصول إلى هذه النتيجة! غير أن الزمن لا يرحم، وخصوصا يعملون دون هوانة لمصاعفة تأثيرهم داخل هذا البلد الرافع الذي يستعصرون ثروته

وأهميته. ويجب على فرنسا التي لها الأهمية في هذا البلد، أكثر من الآخرين، أن تتأمل في قول
شاعر عربي: وربما قلت قوماً جل أمرهم
من التلقي، وكان الحزم أو عجلوا

وهان، حديقة ويسفورد Welsford، 31 غشت 1895
أوجست مولييرس Auguste Mouliens

المغرب المجهول

اكتشاف الريف

توطئة

لريف كلمة عربية، تعني الأرض المعروثة والخصبة التي توجد عادة على سفك النهر أو بجانب الصحراء. وتعني كلمة "الريف" في القبائل صفة وشط. ويطلق الريفيون هذا الاسم على بلادهم دون فهم معناه.

ويحد الريف شمالا البحر الأبيض المتوسط وشرقا بإقليم وهران وغربا وجنوب بإقليم جبالة. أما في الجنوب الشرقي، فيحد على مساحة صغيرة بإقليم الدهرة. ويمتد شاطئه المتوسطي على 230 كلم تقريبا، أما حدوده الجنوبية فهي أطول. ويختلف اتساعه كثيرا ما بين الشمال والجنوب. ففي وسط الريف يصل إلى 180 كلم وعلى الحدود العربية يصل إلى 80 كلم، أما على الحدود الشرقية فيبلغ 60 كلم. ويقسم الريف من الوسط تقريبا عبر الدرجة 35 من خط العرض، كما يتفصل عن إقليم جبالة في الدرجة 7 من خطوط الطول. وعلى الرغم من كون الريف أصغر الأقاليم المغربية المشورة مساحة، إلا أنه حافظ مع ذلك على استقلاله منذ فجر التاريخ. فهو لم يخضع أبدا للأسلاك الذين تعاقبوا على عرش المغرب. وشكل دوما سلافا للثلاثين والمسلمين في الحكم. ومازال إلى أيامنا هذه، يعتبر ملجا يستحيل اختراقه.

إن قطاع الطرق والمخبرين والأمراء المتمردين وكل أولئك الذين لا يجدون الأمن في الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية، ما عليهم إلا أن يطلوا هذه الأرض المعتادة على الحرية، لكي يشعروا بالأمان. ذلك أن الريفيين يستقبلون الأجانب بكل ترحاب، خصوصا منهم المرتدون الإسبان الذين نجوا من محاكم التفتيش وتشكل عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" جولا سحريا بالنسبة لكل أوروبي جعله كدرا بين يدي هؤلاء الجبابرة العتاة.

وعلى المستوى الاتنوغرافي، فإن الريفيين ينتمون إلى العائلة الأمازيغية الكبيرة. وهم أصغر فلة من القبائليين الجزائريين، إلا أنهم يتفرون على قوة وصلابة فلتقتين. ويمكننا رؤيتهم

ببقلتنا في كل سنة أثناء مرحلة الحصاد وحتي المحاصيل، وبالتالي دراسة هذا النموذج المتكامل للعامل القنوع الذي لا يكل. ونستقبل منطقة وهران أكثر من 20 ألف ياتور عند صمربا للبحث عن القنود الثمينة القادرة في الربح.

ومع ذلك، فإن بلادهم ليست أرضا قلحة ما دامت قراها ومداشرها تعد بالمنتجات، وما دامت قبيلة قلحة وحدها قادرة على مواجهة القوى الإسبانية المتمركزة بمليلية. فالربني يأتي عندما قسط، كي يربح خلال شهرين ما يكفيه للعيش برحاء على مدار السنة دون أن يشتغل. وهو يشعر بمتعة الوجود وسط الفرنسيين الذين يقدرونهم حسن نيتهم ولطيمهم للنسبي. بالمقابل، فهو يحقت اليهودي والاسبقي، الأول باعتباره ملعونا من الله، والثاني باعتباره عدوا لبلدا.

ولربد أن أثرك جانبها كل اعتبار سياسي في عمل علمي خالص مثل هذا العمل، والاقتصار على اكتشاف طبيعة المجتمع المغربي وكيف يعيش الأفراد داخل أسرهم وبهية طريقة تنظم القبائل المستقلة، مع إعطاء فكرة مختصرة وصحيحة تقريبا عن هذا البلد الغريب، وعن الوجود قرائع لمائتين لرجال الذين يعيشون في أماكن داخل القنوصي، أحرفا كوحوش كاسرة في غابات والذين لا يضر بعضهم بعضا. غير أن الأطماع الأوربية تعبدى ربحا عني إلى السياسة المرعجة، بل إن المخاربة أنفسهم يدفعون بي إلى هذه الطريق. ففي جميع محادثتي معهم، كانت تتكرر على شفاههم، المسألة الأروية المتعلقة بمصالح وبقدرات القوى المتوسطية.

وهناك دولتان لهما مصالح كبيرة في المغرب وهما: فرنسا وإسبانيا. فهذه الأخيرة تملك منذ مدة بعض الصخور المنزلة بالشاطئ المغربي، ولم تكن لها القدرة لهذا على توسيع مساحة احتلالها الهش. وبمليلية وحولها، توجد قبيلة واحدة، وهي قلمية، تقاوم الإسباني ندا للند. ولو كان القلميون متوفرين على المدافع بدل بنادقهم القديمة، لكففت الأمور قد تغيرت رأسا على عقب. فالصعب النسبي لإسبانيا، ولم أمام المغرب، يبدو جليا. وبالتالي فإن غزو هذا البلد سيكون بالقسبة إليها محاولة فوق طاقاتها. فمجرد الإبقاء على كوبا تحت سيطرتها، يعتبر الآن صعبا بالنسبة لهذه الأمة التي لم تعرف كوب تحافظ على ممتلكاتها الشاسعة بأمريكا.

بقيت فرنسا التي تعتبر مصالحها أكبر من مصالح إسبانيا. فبإمكان فرنسا بجيشها العظيم وقوتها البحرية الرائعة، أن تتولى بسهولة على المغرب الذي لديها معه مئات الكيلومترات من الحدود المشتركة. ولا يتعلق الأمر هنا ببعض الصخور الجرداء التي تظلمها الأمواج وتطلق بقجائها رصاصات الريقير، بل يتعلق بحدود مشتركة وشاسعة، وبقجرة تكفي يوما بعد يوم، أهمية أكبر بين الجارين. إن الأمر يتعلق بمعرفة من سيملك ثغورا بسيطة، محاسبة من كل جانب بالأراضي الفرنسية.

والأول، إذا ما نحن انتقمنا إلى مشاعر شعب، سيخضع أجلا أم عاجلا للسيطرة الأجنبية، فإن هذا الشعب سيجيب بأن المهمة الفرنسية هي الأخف بالنسبة إليه، فالإسبان لم يكتسبوا ود المغاربة، رغم جوار لمدة قرون؛ لأنهم لم يريدوا ولم يستطيعوا دراسة وتعلم اللغتين العربية والأمازيغية. وكل الأعمال الأكاديمية المتعلقة بهاتين اللغتين، قد أُنجزت من طرف الفرنسيين والألماني والإنجليز والإيطاليين. فالمربية والأمازيغية لا تستساغلان من طرف الإسبان.

وعلمنا ما فعلت بملاحظة ذلك في دروسي بثقوبة وهران وداخل إقليمنا، فهل يرجع الأمر إلى حمز؟ هل هو شعور عرقي؟ ثم هناك سؤال أخير: هل بإمكان إسبانيا أن تطل جيدا عن طموحها في حمل مشعل الحضارة خارج أوروبا، في ظل الوضع الثقافي الذي توجد عليه حاليا؟ وهناك أخيرا قوة ثالثة لا تشعب، وهي إنجلترا التي تريد الاستيلاء على طنجة لإغلاق مصيق جبل طارق والتحكم بذلك في كل البحر الأبيض المتوسط. وتتمثل خطتها في الاستيلاء على بعض المدن الشاطئية، لأنها تعلم جيدا بأن تطفل جيوشها داخل المغرب سيواجه بمقاومة باسلة. كما تعلم أن بإمكان هذا البلد تجنيد أكثر من مليون من الرجال الأشاوس المختلفين تماما عن المسلمين الخاملين بمصر أو بالهند. وهي على علم بأن مثل هذا الغزو يقتضي شحنة أكثر من 100 ألف إنجليزي. وبالتالي، فإن هذه المهمة ستكون فوق طاقتها. وبإمكانها أن تحرق وتتهب الشاطئ المغربي، لكنها لن تستولي أبدا على شبر من اقتراب الداخلي.

كانت تلك هي القوى الثلاث للمهمة أكثر من غيرها باحتلال المغرب، وبميل المعاربة إلى فرنسا التي إذا ما استشررت، فإن بإمكانها أن تحصل على هذا البلد الجميل دون إزاحة فطرة دم. فبعد لويس الثالث عشر لم تتغير سياستنا هناك، كما أن تأثيرنا مثل تأثير كل الأمم المسيحية الأخرى، لم يكن ذا أهمية. فقد كان القاصلة الأوروبيون المصطرون لاستخدام مترجمين من البلد، وهم في غالبيتهم يهود، لا يحظون بالاحترام الكافي من طرف أعوان المجتمع المغربي الذين كانوا يهشونهم ويحترونهم مجرد كفرة متلبسين بلباس القداسة ومدعون بالقوة القمائية. ولم يسبق لإمبراطور المغرب أن دخل في محادثات خاصة مع أحد ممثلي القوى الأوروبية الذين كانوا يجهلون كلا من لغة البلد والأدب العربي.

إن المؤرخين قد اختلفوا بالنجاح الذي حصل عليه غوليوس Golius سنة 1622 بالبلط الشريف. فهذا العالم لم يكن يعرف ولو كلمة واحدة بالعربية الدارجة. لكن، وبفضل عريضة الاستعطاف syplique المكتوبة بالعربية والمقدمة إلى السلطان، وهي العريضة التي سيجب هذا الأخير بكتابتها الجميلة، سيحصل على ما كانت السفارة الهولندية ترغب فيه. وكم من امتيازات كان سيحصل عليها لو أنه وضع للسلطان بالعربية موسوع عريضته والفنية من

المهمة التي كلف بها، بذل مخاطبته بالإسبانية. ألم نفهم بعد في فرنسا، بأن على كل مستفيد بالمغرب وبالبليدات المغربية الأخرى، أن يكونوا مغربيين بشكل كبير، يتكلمون ويكتبون جيدا، لغة الرسول (ص)؟

انرجع إلى الريف، فتصاريصه تشبه كثيرا تصاريص القتل الجزائري، بحيث يشكل امتدادا له. ولأنه محاط جنوبا بحمال عالية، فإن قمم بعضها تظل على ما يبدو، مكسوة بالثلوج في عز الصيف، ولا يمكن عبور هذه المنطقة أرضا، إلا من خلال حدودها البحرية، شرقا وغربا. ولا يقدم القشطين أي ملاذ آمن. لهذا وهناك تستخدم مرقى غير عميقة كمصب لبعض الأنهار السيلية التي لا تبعد منابعها كثيرا عن البحر. وفي كل مكان تقريبا، باستثناء منطقة الغاريت (garète) الموحشة، يمو تيات رفتح. وتتموج خلقات القتل، المنفصلة عن الأجزاء الخلفية البعيدة بالجنوب، تحت غابات من أشجار الفوكه، لتنتهي بهدوء داخل أمواج البحر الأبيض المتوسط.

إن الريف الذي يشغل مساحة قريبة من 23 ألف لكم مربع، أي ما يناهز مساحة ثلاث محافظات فرنسية، يتوفر على كثافة سكانية مهمة. وتقدر المعلومات المختلفة التي حصلت عليها من مصادر متنوعة، عدد المحاربين الريفيين القادرين على حمل السلاح بـ 250 ألف رجل على الأقل. وإذا ما ضاعفنا هذا العدد خمس مرات، فإننا سنحصل على مليون و 250 ألف نسمة بالغين. وبالنسبة لسكانه أصغر الأقاليم المغربية، ونفهم الآن لماذا يمكن لهذه المنطقة الصغيرة تحدي كلا من السطى وإسبانيا. فهي محصنة طبيعيا من كل الجوانب، سواء بشواطئها الخطيرة أو بأوديةها الوعرة.

وهي تتوفر على عرق من أكثر أعراق العالم صلابة، عرق لم يخضع أبدا للأجنبي، ولربما كان قعرق الوحيد على الأرض، الذي لن يقول عنه التاريخ أي سوء. فهذا شعب الصغير، تمتع باستقلاله في كل الحقب. لذلك فإن الريفي يحشق موطنه إلى حد العبادة. وهو يحمل حقا نفينا لإسبانيا التي نجحت في الاستيلاء على بعض صفور هذه الأرض المقدسة والاحتفاظ بها، لكن بأي ثمن ..؟

ولا يمكن لأي أوروبي أن يتباهى بكونه عبر الريف. فهذه المنطقة مجهولة وخاصة وقد ظلت محتقة بسرها ومغطاة بحجاب منيع. ونحن نتذكر المحاولة غير المجدية لمواطننا هنري دوغريسي H. Duveyrier الذي عاش بعيدا عن هذه الأرض الموعودة ولم يتمكن من ولوجها. لكن هذا الرجل الشهير سامم بنفسه في فشل مهمته. فقد كان يرتدي لباسا أوروبيا وينحن في عز رمضان ويأكل أكل الأهل الملتزمين بالصيام القاسي ويتحدث المغربية بطريقة خاطئة. وقد لدهش وانزعج حينما اعترض الريفيون على عبوره لمنطقتهم، رغم أنه كان صمم حائشة

للشريف فوزاني. وقد كان بإمكانه وبقليل من الدماء، عبور الريف واكتساب مجد خالد مثل كريستوف كولومب جديد لهذه الأرض المجهولة. وسأفسر في المجلد الثاني، لماذا عجز الشريف فوزاني عن إزالة شكوك الربيعين واستصحاب هنري توفيري معه.

ونحن نعتقد جازمين في أوروبا، خصوصا في فرنسا، بأن شرفاء لزاوية فوزانية يسلمون في بلادهم باحترام لا محدود. غير أن العكس هو الصحيح، إذ لا تمر سنة دون أن تتعرض لزاوية الشهيرة للنهب من طرف القبايل المجاورة. وقد سمحت الحكومة الفرنسية التي خدعتها التقارير الخاطئة، للشريف فوزاني بالمجيئ أحيانا إلى وهران، لجمع تبرعات الأهالي، في حين كان يحتمل بالكاد في بلده. وكلفت التبرعات التي تتم عندنا لأجل هذا الولي المزعوم، تعود عليه ب 200 إلى 300 ألف فرنك. ويمكن القول بأن أموال فرنسا هي التي تميل هذا المهرج العديم الأهمية. وفي المغرب، هناك آلاف من الشرفاء أكثر احتراماً من شيخ وزان. وإذا ما رغب أحدهم في المجيء إلى محافظتنا لأخذ المال من رعايانا المسلمين، فإنه سيحظى بنجاح أكبر من نجاح منقسه الضعيف. ونتمنى ألا يثبني أي واحد منهم هذه الفكرة التي استطلت ببراعة إلى حد الآن من طرف مولاي عبد السلام وحده، والتي قد يؤدي موله مؤخرًا إلى وضع حد لهذه الجولات الرعوية المتفرقة.

هكذا، فقد كان رحلتنا مطالبا باكتشاف هذا الريف القوي، خطوة خطوة و سيحظى أيضا حل، وباستثناء بعض الأحداث العارضة، باستقبال يليق بوضعه كطابق ودرويش ومسؤول. وأنا لم أتابع بالصبط المسار العظيم لمحمد بن الطيب على مدى اثنين وعشرين سنة من تجواله عبر ربوع المغرب. فقد كنت ستمرّض للتيهان. لو كنت مرافقا له. وبالتالي، كنت سأضلل قرّبي الذين كانوا سيتحولون معي بدونقطاع، من الشمال إلى الجنوب، ومن لشرق إلى الغرب، على نفس الصفحة أحيانا. لذلك، حصلت إعطاء وصف كامل لمنطقة معينة قبل المرور إلى المنطقة الموالية. وكانت الصعوبة الكبرى تتمثل في الحصول على تواريخ إقامة الدرويش في مختلف أجزاء الإمبراطورية. غير أن محمد بن الطيب اللاميلي، الذي لم تكن له مهمة رسمية ولا أعمال ولا انشاء أخرى تدعوه إلى مغادرة المكان، كان يعيش بهدوء، دون أي اهتمام بمرور الأيام والشهور والسنوات. ولأنه شغوف بالأطعمة الفاخرة، فإن تذكيرته المضبوطة كرونولوجيا، لا تحيل إلا على المأكولات الطيبة والفاخرة التي تمتع بها في مملكة الشريف، صاحب الجلالة. وكان يتذكر جيدا البلدات التي احتل بها بعد الأصحى. وقد مكنتني ذكركه المطبعية بوضع اللاتحة التالية التي تبرز جزئيا الاكتشاف الرائع للدرويش وتقلاته الطويلة خلال نفس السنة، وأيضا تاريخ تواجده بهذا الإقليم المغربي لو ذلك. وقد يحصل لي أثناء تحرير صلي،

في أصل أحيانا تاريخ سفر رحلاتنا لذلك فإن المطلوب من القارئ في هذه الحلقة، هو البحث عنها في الجدول الموالي.

الأماكن التي احتفل بها محمد بن الطيب بعد الأضحي المسمى بالعيد الكبير

السنوات	الأقاليم	المسكن أو القرى	التقديس
1872	جبلية	بني بدو	بني رروال
1873	جبلية	غصاي	بني رروال
1874	جبلية	عين الريحان	الحجاية
1875	جبلية	لقلاية	بني رروال
1876	البرابر	صفرو	صفرو (المدينة)
1877	البرابر	المنزل	بني بلزعة
1878	فاس	فاس	فاس (المدينة)
1879	فاس	فاس	فاس (المدينة)
1880	البرابر	تولموت	بني مكيك
1881	تغلبالت	قصر مولاي علي الشريف	مدرارا
1882	درعة	زاوية سيدي أحمد بن ناصر	أيت ناصر
1883	سوس	تارودانت	تارودانت
1884	مراكش	مراكش	مراكش (المدينة)
1885	فاس	فاس	فاس (المدينة)
1886	الدمرة	المقام الموقاني	أولاد عمرو
1887	الدمرة	سيدي حمزة	غفالت
1888	الريف	صفرو	بني بربان
1889	الريف	بوحمزة	قلعية
1890	الريف	تيرمورين	بني ورياعل
1891	مراكش	أسفي	أسفي (المدينة)
1892	الدمرة	ديبو	ديبو (المدينة)
1893	الريف	قلعة	بني مكوثر، بني بربان

كيفية تكوين الكلمات العربية والأمازيغية والتعلق بها

إذا ما كُتبت هذه لغتنا، خضعت كلماتها لتأنيده غريب من طرف الأوربيين، فهما بكل تأكيد العربية والأمازيغية. فمثلا عوصت الجزائر بنزير ووعرن بونهوان والمغرب بمرتكن وتونس بتونس والممر قصيق بطق لود إلخ... فهل يمكن الجمع لتمييز بينهم؟ وما نعت لول من كشف مئات الأسماء الجغرافية الجديدة المنتمية بالمغرب، فبني أُنمى ب تصنيفي دراساتي المتخصصة من ارتكاب نفس الخطأ، لولئك الذين بعد تعلمهم من تعلم التكوين العربية والأمازيغية، يسعون بشكل رديء ويكتوبون بنصر قراءة الكلمات المحضة بهتين التكوين. ومن بين آلاف طرق لتكوين المستعملة من طرف المستشرقين، فبني أن لول في اختيار طريقة مؤلف " محاولة في النحو الفهلوي "، علامة لتوضيح الجزل علوضو Hanoteau. وهذا لتكوين هو الذي يبرز على كل حال في مؤلفاتي المنتمية بالهجاء الأمازيغية. وأسمح لنفسني مع ذلك، بتقديم بعض التحولات الطفيفة التي ستشير إليها في حينها. ولو كانت المطابع الوهرانية مجهزة بشكل أفضل، لكنت قد تمكنت، على غرار صديقي روني يلصي René Basset¹⁴، من إدراج الحروف المخصصة لتمثيل الحروف الأمازيغية sch ، g ، j ، ضمير أجديتي. لكن هذا الأمر صعب العمل. فمُصاحب المطبعة الجزائري الذي قد يشتد منه شراء هذه الحروف المطبعة الجديدة، موصرخ محتما وسيقدم أفضل تقديرات لرضه. هكذا، سأضطر لتمثيل " تش " بـ " sch " و " ج " بـ " j " و " ق " بـ " g " وكنز الأمر يتعلق تماما بهم لو يكاف. غير أن التكوين الفرنسي سيسمح بالنطق الصحيح مع ذلك.

¹⁴ - Cf. René Basset, *Manuel de langue Kabyle*, Paris, in - 12, 1887.

جدول يمثل الأبجدية العربية مع القيمة التي يعطيها لها العرب الأصليون.

القيمة العددية	الأحرف العربية
800	ض
9	ط
900	ظ
70	ع
1000	غ
80	ف
100	ق
20	ك
30	ل
40	م
50	ن
5	هـ
6	و
10	ي

القيمة العددية	الأحرف العربية
1	أ
2	ب
400	ت
500	ث
3	ج
8	ح
600	خ
4	د
700	ذ
200.	ر
7	ز
60	س
300	ش
90	ص

ملاحظات

نقادي أي خاطئ سأستعمل خط الوصل داخل نفس الكلمة كلما وقع الالتباس. مثلا، إن الحروف: t, th, kh, ch, dh, K ، ستكون متبوعة مباشرة بخط الوصل عندما يأتي بعدها حرف الهاء، مثال قتهمة Ett-him، فهي AK-ha، أي نفخ على أصابعه، أدم Ed-hem ، أي أسود، سيد q-had (حرفزة)، دهن D-han (زبدة مخوية)، كهن K-hhen (تتجم). وعندما يوجد حرف صوتي voyelle فرنسي بين الهاء والحرف السابق عليه، فإن خط الوصل لا يستعمل مثل: أتهم tchem، صبور çaboh (أبينوس)، دهن Dehen (نم م) إلخ...

وسأنتهي من هذه الملاحظات الفرنسية والندوية المملة، لكن المهمة، بالتأكيد على أنه من اللازم لطلق بكل حروف الكلمات العربية أو الأمازيغية مثلا: Tizemourin ستطلق تيزمورين، Taroudante، ستطلق تارودانت، Mengouch مونكوش، Ait Angad أيت أنجاد، Ait w'erouchchen أيت سفريوشن. وسواء كانت ch بسيطة أو مزدوجة فإنها تنطق دائما che كما هو الأمر في الكلمة الفرنسية arche (مخونة) . وستعاطف G* و G على نطقها المحلي أمام حركات مثل e, i, y, a, o ، مثلا Mglid ستطلق مغلاد ، iger ، وسيظل حرف g صلبا كما هو الشأن في كلمات مثل: guider (أرشد)، guerre (حرب) Mag'rib (مغرب). أما حرف 'س' S الموجود في الكلمات الفرنسية مثل sauver (أنقذ) savoir (معرفة) (songer (فكر) ، فوسمع دائما، سواء كان موجودا في بداية أو وسط أو عند نهاية الكلمة أو بين حرفين صوتيين مثلا: Fas فاس تنطق مثل Face (وجه) Tamsaman تنطق تاملان، Bni Znassen بني زناسن إلخ... وبخصوص ou ، هذا الحرف الصوتي المخصص لتمثيل الهمزة العربية، فستحفظ بالمعنى الوحيد الذي يعبه له الفرنسيون في كلمات مثل Cou (علق)، Fou (مجنون).

وتعني المختصرات (A-B) و (B-A) العرب الذين تمزجوا والأمازيغ الذين تعربوا. فـ (A) تعني عربي Arabe و (B) تعني أمازيغي Berbère وفي كل مكان تقريبا أوضح معنى الأسماء العربية والأمازيغية.

وهذه المهمة الدقيقة والخطيرة تضاعف أمام صعوبات حقيقة، خصوصا عندما يتعلق الأمر بأسماء محددة. لذلك، أرجو المعذرة عن الأخطاء التي ربما تكون قد ارتكبتها. وعلى أية حال، أعتقني ذلك الذي لم يخطئ أبدا، بالحجرة الأولى.

المغرب المجهول

القسم الأول

اكتشاف الريف

قبائل الريف

تاغزوت، بني بونصر، بني خنوس، بني سادات، مثوة،
بني جميل، بني بوفراح، بني يطفة، بقيوة، بني ورباغل،
تمسمان، بني توزين، تفرسيت، كزناية، لمطالصة، بني
عمريث، بني مزدوي، بني ولشك، بني سعيد، بني بويحيى،
قلعية، كبدانة، تريفة، أولاد ستوت، بني زناسن، بني محيو،
مغراوة و بني بشير.

يستخدم المخاربة تداعيا ذهنيا لمساعدة الذاكرة في تعلم وحفظ أسماء الأقاليم المشرقة. ويتمثل هذه الطريقة في جمع هذه الأقاليم متى متى دون اعتبار لوضعيتها الجغرافية، مع جعل كلمة كل زوج مقالة مثلا: الريف والذرة، البرابر والصحراء، جبلة والذيرة، الحور ودرعة، سوس العمرا. والذيرة هي مختصر دقرة فاس، أما الحوز فهو مختصر لحوز مراكش. وكلمتا الذيرة والحوز مترادفتان وتعنيان " الإقليم ". وكل أقاليم المغرب مستقلة تقريبا ولا تخرب إلا بالمنطقة الروحية لسلطان فاس. ولم يكن الريف خاضعا لهذا؛ فهو يشكل جزءا من " بلاد السبية " التاسعة (أي المنطلي عنها من طرف السلطان)، البلاد التي يتجول فيها المرء بحرية والتي تشمل أربعة أخصاص المغرب. أما الخمس المتبقى فيسمى بلاد المخزن (بلاد الحكومة) . وفي حين اتخذت الفوضى في بلاد السبية شكلا جمهوريا إلى حد ما، يتميز نميها بقتيل من الطغيان، إلا أنه لا يضمن أمن الأفراد، فإن أعوان السلطة في بلاد المخزن، بالمقابل، يشعرون فرعليا بقتل سلطة لا ضابط ولا حد لها. فلا غرابة إذن، أن نرى القبائل المتمردة لا تحر أي اهتمام لسلتي السلطة، قيد الإمبراطورية.

فليرف المحمي بجيله الجنوبية وبالبحر، لم يكن ليخشى عاهلا بحرية له ولا جيش له تقريبا. ومع ذلك، فهو يرسل الهدايا إلى السلطان مثلما يرسلها الكاثوليكيون إلى البابا. وتحمل هذه الهدايا عند وصولها إلى فاس، اسم الصربية، وبذلك يكون غرور الإدارة المغربية قد تم إرضاءه. والقبيلة الوحيدة التي فكرت باستقبال بعض جنود السلطان، هي قلمية، وذلك بسبب نراها المستمر مع إسبانيا بمليلية. وما عدا ذلك، فإن المخزني (الجندي النظمي) يظل غير معروف.

قبائل الريف

يتضمن هذا الإقليم ثلاثين قبيلة، تمتد إحدى عشر منها على طول البحر الأبيض المتوسط. والقبائل البحرية من الشرق إلى الغرب هي: طريفة، كبدانة، قلعية، بني سعد، تسملي، بني ورياحل، بقوة، بني بعلت، بني بولراج، بني جميل ومتيوة.

ونجد جنوب هذه القبائل، من الشرق إلى الغرب: بني زناسن، بني محيو، أولاد ستوت، بني بويحيى، بني ولشيك، تفرسيت، لمطالصة، كرواية، بني توزين، بني عمريت مغراوة، بني بشير، بني مردوي، زرفت، تارجيست، بني سدات، بني خوس، بني بونصر، تاغزوت.¹⁵

وكل سكان هذه القبائل تقريباً، هم من الأسانيف الذين يجيئون اللغة العربية. وتقدم لغتهم المعربة idiom، المسماة تاملزيغت، تنوعاً كبيراً للهجات المتقاربة بعضها من البعض، باستثناء ما يتعلق بكبدانة وبني زناسن، اللتين تعتبر لغتهما المعربة ذاتية، مختلفة نسبياً عن تاملزيغت، وإن كان أصلها أمازيغياً.

وقد تم، فيما مضى، اجتياح طريفة وأولاد ستوت من طرف العرب الرحل. ويختبر أمازيغيو الريف، القبائل الأربع الأخيرة: كبدانة وبني زناسن وطريفة وأولاد ستوت، غير ريفية، إذ أن لغة أهلها وعاداتهم تجعلهم غير مؤهلين للمعاملة كقبائل ريفية، من طرف السكان الريفيين أصحاب لغة تاملزيغت.

قبيلة تاغزوت

(المضيق، الالتحام)، التسمية أمازيغية

إن أشهر في شيه مسار محمد بن الطوب الذي دخل الريف لأول مرة عبر تاغزوت، وهي قبيلة جنوب الريف الغربي. وقد أقام في هذه المنطقة حوالي أربع سنوات: ما بين 1888 و1890 في المرة الأولى، وعام 1893 في المرة الثانية. ففي سنة 1888 ولأثناء عودته من رحلة بالدهرة، مر بالمنطقة التي تلتصق هذا الإقليم عن الريف الغربي وبلغ قبيلة تاغزوت، بعد أن تركه

¹⁵ - مذكور دائماً، بأنه يتعين النطق بكل حروف الكلمات الأمازيغية والعربية.

ورامه قبيلة كتامة (جبالة) التي ستحدث عنها في كتابنا الثاني. وكانت لقومه قبيلة وعرفت كدرويش جوال تثير لدى كل من يراه، تملطعا مشوبا بالشفقة. لذلك، كان من السهل عليه تسببا، المرور من قبيلة إلى أخرى، وهي عملية مخطوفة بالمخاطر دوما في المغرب.

وحينما يحظى المرء باستقبال جيد من طرف قبيلة مغربية، فإنه من الأفضل له الاستمرار دائما بها، لأن مسافرتها قد يجعله حرجة لاحياء القبائل المجاورة المتحاربة فيما بينها باستمرار تقريبا. وبالنسبة لمحمد الراجب في رؤية الريف، فإنه لم يخش أبدا المخاطر التي يمكن أن يلاقيها في هذا البلد الجهول والموحش. لقد هرب من كتامة دون توديع مصغيه الصباغين وتوجه بهجرة إلى قبيلة تاغزوت، متبعا المجرى المنعرج للتخدير الذي يحمل نفس الاسم. ودخل إلى قرية القطة حيث بقي لترحاب في المسجد، ثم عمل فورا وكعائته، على دراسة البلاد والعباد.

وتعد تاغزوت جنوبا وغربا بقبائل إقليم جبالة. وهي تتكلم من قسمين وهما: تاغزوت القوقنية (العليا) وتاغزوت القتمتانية (السفلى). ويمكن لكل قسم أن يجد أربعة ألف من المسلكر المشاء fantassins، أي ثمانية ألف رجل بالنسبة لكل القبيلة. ولأن التجرية كنت لي بأن كدرويش يقطع أربعين كيلومتر يوميا، كشأه جيد، فقد كان من السهل عليه تسببا، ضبط مساحة كل قبيلة وبالتالي كل إقليم. صحيح أن سيقان هذا الجوال الذي لا يكل، لا تتوفر على نقية وسائقا في مسح الأراضي، ومن الطبيعي أن ترتكب بعض الأخطاء في تقدير المسافات، لكن الصحيح أيضا، هو أنه بواسطة هذا النظام الفريد الذي يمكن تطبيقه بالمعاسبة، فإتني لم أحصل سوى على نسبة 30 كلم من الخطأ، ضمن خط معتد على طول الساحل الربي، من مصب واد كريس إلى قبيلة غمارة الجبلية..

وعندما نتصور بأن مساحة القرب الوطني الفرنسي نفسه، موطن الأنوار والطم، غير معروفة بدقة تامة، إذ أن المساحات المتخمة في الوثائق الرسمية ما بين سنوات 1878 ، 1886 تتراوح ما بين 52700680 هكتارا و 52910373 هكتارا، فإتني لوجو ألا يولخني الفقاد المتشددون على غراب الدقة في تقصيمي لثلاثي لمساحة الأرض، المتميز بهديته ويفصله.

وتتعد تاغزوت على حوالي عشر كيلومترات طولاً وعشر كيلومترات عرضاً (ربع يوم من المشي في كل الاتجاهات). ويتبع نهر تاغزوت ، وهو مجرى مائي جميل شبيه إلى حد ما بنقفا، من قمة جبل الأرز بأراضي بني بونصر. ويبلغ طول هذا النهر أربعين كيلومترا، كما توجد على جانبيه قرى ومنيعات عديدة. وأحيانا يجري النهر داخل أودية ضيقة جدا. ويتم عبور مجراه القام بين الصفور، على ست قناطر خشبية موجودة بقبيلة تازوت وحدها. كما يساهم الماء الصافي والظنب، في دوران العديد من دوابب المطاحن على طول شطآن النهر.

وبخصوص الحيوانات الأليفة، لا نجد في كل تاغزوت سوى الأبقار والجمال، إلا أن المراعي لا تكفي للماعز ولا للخراف. لذلك يقوم الأهالي بحلف لبقارهم بأوراق قشور. وحول كل الصيحات المحاذية لغير تاغزوت، نمتد بصيحات رائعة مليئة بالخضراوات، وهذه القبيلة الموجودة بأعلى الجبال كثيرة الأشجار وتتوفر الغابات أساسا على أشجار السنديان والعرعار والبلوط والأرز. أما البساتين فهي مليئة بأشجار الجوز والكرزم المتسقة. وقد هيئت في خريطة خاصة بتاغزوت، الأماكن التي توجد فيها مناجم النحاس والفصدير والقصاص والفضة والذهب والحديد.

ويميز هذان القسمان من تاغزوت في حالة حرب دائمة. وهذا الحقد القائم بين الأشخاص من نفس الأصل، بلع من الاغتيالات المتكررة التي يرتكبها رجال هذا القسم أو ذاك. فلتاغزوتي الحساس والجامع جدا، يغضب لمجرد كلمة ويضرب إلى حد الموت كل من يشتمه، بل وكل من يمارسه.

وكلماتي في العرق واللغة، فإن ملامحه متشابهة وطوله متوسط. وتعتبر أخلاقه منحلة، لأن مجاورته لجيلة، وهي أكبر منطقة لوطوية بالمغرب، جعل ميولاته الجنسية شاذة. فالعلم giron، هذا الشخص الفحير المسمى بالعليل في البلد، يشكل جزءا من الحريم Gynécée، وحتى النساء الثابتات أنفسهن، يقبلن بهذه المعاشاة المنفرة ولا يخجلن من الاعتراف بأن العليل يمنح المتعة للسيد، أحسن منهن. ولحسن الحظ، فإن هذا الجرح القبيح المتمثل في معايشة الفطام، ينحصر عند حدود جيلة. فهذه الممارسة مجهولة في الأجزاء الأخرى من الريف، البعيدة عن أكثر أقاليم الإمبراطورية الشريفة تهتكا. وفي المجال التالي، سنضطر إلى تحريك هذا المستقع الذي يبدو مستكرا من طرف جيلة، لكن، لنترك ذلك جانبنا الآن، ولنقل بأن الفطام يباعون في أسواق تاغزوت مثل البهائم.

وتعتبر تامزييت، وهي اللهجة الأمازيغية المتداولة بين التاغزوتيين، مختلفة بعض الشيء عن اللهجات المحلية الأخرى بالريف. وهي تقترب كثيرا من زواوا Zouaouا القبائل الكبرى. وتدعي أسطورة استقدمها الدرويش من القبائل، بأن أصل لزواوا الجزائريين، من قبيلة تاغزوت نفسها، وأن أجدادهم هاجروا منها إلى جرجورا في زمن سحيق. وفصلا عن ذلك، فإن يومنا هذا، ما زال التاغزوتيون ولزواوا يمارسون نفس الأعمال والمهن. فهم باعة متجولون وصانعو أسلحة. وإذا ما كان العديد من الزواوا قد بدلوا يتكلمون العربية، فإن أهالي تاغزوت بالمقابل، لا يعرفون ولو كلمة عربية واحدة. ويمكن على ما يبدو، أن نجد لديهم مؤلفات محررة

بالأمازيغية، ومن بينها ترجمة لسيدى خليل والأحداث النبوية. كما ينحصر أدبهم المحلي في الحكايات الشعبية والأشعار.

وتشتهر تاغزوت في كل المغرب بصاعتها للبنادق المغربية، المميزة، التي أصبحت عرضة للمنافسة القوية من طرف الأسلحة المستوردة من إنجلترا وإسبانيا. ومع ذلك فإن المكتبة (البنينة) لتاغزوتية ما زالت تشتري وتحظى بالتقدير من طرف قبائل الداخل التي لا يمكن للأسلحة الأوروبية أن تصلها، لأنها تستهدف قبل وصولها إلى وجهتها.

إن لتاغزوتيين جميعهم تقريبا، هم باتمو أسلحة. فهم يصنعون كميات كبيرة من تلك المسكوك الطويلة الشبيهة بالخناجر القبائلية. كما أن بعض التجار يتقنون صنع الصناديق الجميلة والصحون الكبيرة من الخشب (قصعة) وهياكل السفن إلخ.. وكانت هناك محاولات في القبيلة لاستغلال المناجم الغنية للمنطقة، لكن بدون جدوى.

وقد احتكرت خمس روايا مناجم الذهب والفضة، لكنها لم تستعد منها كما يجب. وينحدر شيوخ هذه الروايا من سيدي محمد أخمريش الذي تلقى بركة الوالي الشريف مولاي عبد السلام. ويوجد أيضا صانعو الأثاث الذين يشتغلون على الأرز والسرور بالخصوص، حيث ينجزون أثاث بيت متميز. وتمارس صناعة القطران من طرف عدد قليل من الأفراد الذين يحصلون على القطران والزفت بالطريقة التالية: يتم داخل مرجل منقوب مثل الكسكاس (وهو قدر الذي يطبخ فيه الكسكس) تحريص الخشب الصمغي للبخار الناتج عن غلي الماء، ويوضع القطران الذي يسقط قطرة قطرة بغلاية أخرى.

وكإخوتهم في جرجوراء، فإن أهالي تاغزوت يتجولون كبائعين في القبائل الأخرى، عارصين الجوز وقشرة شجر الجوز لتبييض الأسنان واللور والمغارل والبارود والقصاص. ورغم تميزها باستقلاليتها، إلا أن القبيلة تهبث إلى السلطان كل سنة بندق جميلة. ولا يكلف هذا النوع من الضريبة أكثر من خمسة سنتيمات بالنسبة لكل فرد من أفرادها. ومن جهةها، فإن قبائل بني بوشيت، بني بونصر، بني بشير، مريضة وزرقت، لا تؤدي أكثر من ذلك. فهي مثل تاغزوت، توجد في منطقة فقيرة نسبيا. وأغلب مداشرها مبنية فوق جحور حاوية للمعادن métallifères. وترحم الروايات أنه في عهد السلطان الأكل، كفت السلطة المركزية تشغيل مناجم هذه القبائل. ويحكى أيضا أن دقيوس Docius شيد قرب كل منجم حصنا ما زالت آثاره بادية للعيان. ولا يعرف الأهالي كيفية استغلال ثروتهم المعدنية، وهم يطمون أن بإمكان القصارى الاستفادة منها، لكنهم يخشون من تأثير مجيء الأوروبيين على استقلالهم. فهم يحصلون الموت عززا فوق منجمهم الذهبي، على أن يمرضوا هربتهم العزيرة للخطر.

وتعتبر الدار هي مسكن الريفي، وتتشكل في القبلات الجنوبية من طابق مطلي بالنيس
ampelodes mosterax و*chamoerops himiis* أو بالحلفاء *stipa*
tenacissima. وفي قشمل يقطن أهالي القبلة البحرية بمنازل شاسعة، مبنية بالطين وذات
طابق أو طابقين وسطح ر يخصص الداخل الربيعي الأضلاع المحاط بالشفق، مساحة واسعة
حورت بها مطامير لحزن الحبوب. وتستخدم هذه الساحة أيضا كزريبة المشية، وفي الوسط توجد
أربعة جذوع ضخمة للأشجار وضع فوقها برج عال من الخشب. وعلى قمة هذا البرج، يقف رب
الأسرة حارسا، حينما يكون عم الأمان مقدما بالحارج. فمن موقعه المرتفع، يتحكم في المحيط
الخارجي ويحار عن الخطر ويستقبل بطلقات البندقية أولئك الذين يريدون مهاجمته. ويوجد لقرن
الذي يها فيه الخبز وسط الساحة التي تفتح عليها أبواب البيوت. ولا يتميز بيت الريفي بلمبة
خاصية. فعلى طول المحيطان الأربعة المطلية بالبحر عند الأغنياء وبالقون الأسود عند فقراء،
توجد مصطبات واسعة وصخمة يصل علوها إلى متر، وتستخدم للجلوس نهارا وللنوم ليلا.
وفوقها هناك رفوف مبنية مثبتة بالحائط، توضع عليها الملابس وأدوات الطبخ والأطبحة
إلخ... ولا وجود للمراحيض بالمنازل، إذ تقتضى الحاجة في الحقول؛ لكن يمكن أن تجدها بالمقابل،
في المصلى والمساجد. ويحاط كل مسكن، وبكثافة، بالتين الوحشي القديم العهد *opuntica*
vulgaris، وهو مصدر غذائي هام بالنسبة للمعوزين الذين يستهلكون بشكل مخيف، هذه الفاكهة
ذات القشرة الشوكية الحمراء والمذاق الطو الذي قد يكون بدون طعم، والذي يسميه العرب
"كرموس النصارى".

لنرجع الآن إلى الدرويش الذي تركناه بقرية القلعة. فقد ذهب رأسا كعادته إلى المسجد،
حيث وجد مجموعة من الشباب المشغلين بحفظ القرآن وتلاوته بصوت عال. ولم يكن لصفوه
للمسجد أي تأثير على الحاضرين. فقد جلس إلى جانب أحد الطلبة وشرع في تلاوة آيات القرآن
الكريم معه. وسببت بالمسجد بعد تناول طعام العشاء مع زملائه الجدد. وفي الغد سمح له
المعلم بتلقيه دروسه.¹⁶ وهو ما يعني أيضا الحصول على المرتبة (قطعلم والقبيل بالجامع).
ويقدم الطعام من طرف السكان المحسنين الذين يعتقدون بأنهم ينجزون عملا صالحا، عبر الإنفاق
مدة سنوات عديدة، على شغل منشغلين فقط بحفظ سور طويلة من القرآن، لا يفهمونها من
جانبيهم. وتقتضي الموضة الجبلية التي أدخلت إلى تاغزوت، أن يرافق كل طالب راشد، معلم،
وهو عبارة عن خادم خفيف صالح لكل شيء *ignoble factatum*. ويبدو أن هذا الاحتياط يتم

¹⁶ - إن المغاربة لا يهتمون بمر الطاب، وسواء كان صرعه عشر سنوات أو أربعين سنة، فهو يظل دائما غاملا.
طالما الطم، ولا يقد هذه النسبة إلا عندما يصبح أستاذا أو عدلا أو عند ترقفه عن متابعة الدروس

المكتشفين للكنوز والمزارعين الذين يحققون أمام الرائي أحياء، معجرات تؤثر بقوة على المصنوعات الميزوزة لأوتك الذين يلجؤون إلى حيلهم " السحرية " ..

إن جبال تاغروت شامخة، بحيث تتواجد القلوج في قممها أثناء فصل الشتاء. وفي الأماكن المظلمة للوديان العميقة، تظل القلوج قائمة في عز الصيف. وعادة ما يجري نهر تاغروت ورافده نهر بني بوشبيت، أسفل الجبال، داخل وديان عميقة وضيقة. وبسبب قسرات الممخية لبلدهم، فإن أهالي تاغروت يزعمون بأن قبيلتهم كانت هي المنجم الذي أتيتق منه كل النوع الإنسقي. وفصلا عن ذلك، فإن تاغروت، تسمى في لهجتهم، المنجم والمكان المتوفر على كل شيء. وتخصص في هذه القبيلة حوالي خمس وأربعين قرية، تخصص كل واحدة منها في المتوسط، مائة منزل.

القرى للرسمية بتاغروت

- أبت علي (أولاد علي) : 300 منزل؛
 - زاوية سيدي محمد الأخضر ميش¹⁷ ؛
 - تازروث (التسمية أمازيقية) : (الصخرة الصغيرة)، 100 منزل؛
 - القلعة (التسمية عربية)، 100 منزل؛
 - القوي العسكرية: 8 ألف رجل من المشاة؛
 - العدد المحتمل للسكان: 40 ألف نسمة.
- ولا توجد بها طرق، بل فقط مسالك للجمال. التعليم الابتدائي قليل الانتشار. وفي سنة 1893 كان القائد هو المسمى : محمد أخمر ميش.

¹⁷ - تعلق أخمر ميش (التسمية أمازيقية) في المناطق التي تتحول فيها الراء إلى لام : أخمر ميش، جمع إخموش، وتعني المبروك.

قبيلة بني بونصر

(أبناء النصر)، (لتسمية عربية)¹⁸.

تد غربا بقاغزوت (الريف) وجنوبا ببني بوشبيت (جبال) شرقا بزرقت (الريف)
وشمالا ببني خلوس (الريف). وتمتد على عشر كيلومترات طولاً ومثلها عرضاً (ربع يوم من
المشي في كل الاتجاهات). وتشغل مع بني خلوس وبني سيدات أعلى قمم جبال صنهاجة
بالريف. كما أن التلوج التي تتساقط بكثرة على هذه القمم، تجبر الأهالي على السكن داخل بنايات
ولينة وضخمة. وتوجد القرى في قلب الغابة. ويكون فصل الصيف معتدلاً وعليلاً بل بارداً
أحياناً، إذ يضطر الأهالي في ليالي شهر يوليو إلى إشعال النار للتدفئة. أما المياه فهي موجودة
في كل مكان، في الفياض والجداول. وعلى قمة جبل الأرز، يبدو المنظر البهي لقرية تمديد ذات
الخمس مئة منزل تقريباً. وقد أدى منبع وافر المياه وسط البلدة إلى انبثاق واد تمديد. وجبل
الأرز شاقق جداً وهو مكسو بغابة من الأشجار، نهد من بينها أشجار لأرز الثمينة. وتنمو على
جنته الكروم وأشجار الجوز وهو يختفي تحت غطاء نباتي أخضر. وسجد في القبيلة الكثير من
القاعز والأبقار. أما الزراعة الرئيسية في الأودية، فهي زراعة القشطي (وهو نوع من البر
الأبيض) والحبس. ويستهلك الأهالي بكثرة، فواكه الخطوة للأرغال Argal وهذه الأخيرة هي
شجرة بحجم شجرة الفستق. وتشبه فاكهتها الفول السوداني، بحيث يتم طحنها واستعمل الدقيق
المحصل عليه، في صنع الخبر والكسكس والزمنة (الدقيق المستمد من القمح المحمص والذي
يبلل في الماء ليؤكل) والحريرة (التي تطبخ بالफल والثوم). وفاكهة الأرغال سوداء، شديدة
الحلاوة. وأغلب البساتين مكسوة بالبصل والذرة والفلل واليقطين.

وتتجار منجولين في أهالي بني بونصر يبيعون في تجوفهم، للجوز واللوز والمنازل
والقطر والرفات إلخ... وقد يفايصون هذه المواد بالصوف.

وما يصدرون أيضاً " الصامت "، وهو هلام لثيب gelée الذي يتم صنعه عبر تجفيف
هذه الفاكهة، ونظراً لقساوة اللثيم، فإن العملية تتم بالصعوبة. ونرى في كل القرى قورا
موصوعة خارج المساكن، يتم تعصير الهلام فيها. وإليك الوصفة: يصبر الحب القاصح ويطح
العصير الموضوع في القدر، ثلاث مرات، وبعد كل طبخ يترك ليبرد ثم يوضع على النار بعد

¹⁸ طبعا، فإلا لمثل هذا على التسميات المحلية دون تصحيح ما يمكن أن يعتبر خطأ بالسمية إلى النحو العربي.
هكذا، فإن بني بونصر يجب أن تكتب بالعربية القصص: بنو أبي نصر. ولما قم هذه الملاحظة للمرة الأخيرة.

ذلك ويبرز الهلام حينما يصبح المصير الذي خفض إلى القتل بنعل التبخر، مخفرا وحلوا كالسمل. لذلك يمسك في جرات كبيرة ويحتفظ به إلى ما لا نهاية. ويؤكل هذا الهلام بتزويبه في الماء. ويستمتع الأطفال كثيرا بشرائح الخبز بالهلام الخالص. أما الصامت الممسك enivrant، وهو نوع من الهلام المؤدي إلى السكر، فلا يطبخ سوى مرة واحدة. ويستهلك الصامت الكحولي بكثرة عند جبهة.

إن الصوف الذي يتم جلبه من طرف الباعة المتجولين، يستخدم من طرف النساء لصنع الجلابيب التي تباع في أسواق القبيلة. ويقوم الرجال من جهتهم، بصنع البارود والرصاص ومقابض البنادق المصنوعة من شجر الجوز. ولهذا سميت الجبال الصنهاجية بالريف 'صنهاجة الصرا' أي صنهاجة خشب البنغية. وليس أمالي بني بونصر جلابيب مخططة بالأبيض والأسود، أما النساء فيلبس الحايك. ويتكلم جميعهم الأمازيغية، وتحديدًا تماريغت القعة. ولا تتحجب النساء؛ فأغلاكهن طيبة. وعن التواني يشتغل بالفلاحة ويستخدمن المعاول، لأنه يستعمل في العديد من الأماكن، حرث هذه الأرض الوعرة. كما أنهم يصدن ويمارسن البستنة ويمن برعي الماشية، وبالتالي يجد الرجال أنفسهم في راحة تريبا. وتقرع قبيلة بني بونصر إلى ثلاثة أقسام وهي: الربع الفوقاني¹⁶، بني حماد وتمديث. ويمكن لكل قسم أن يجد 500 رجل من المشاة، وهو ما مجموعه 1500 رجل بالنسبة لكل القبيلة. وتتوافر هذه الأخيرة على الكثير من الطرائد وعلى بعض الحيوانات المتوحشة. ويلقي عرب الداخل عند بني بونصر لمقلوبة زرعهم بالبور والتمر والمحب والفسوق والقنب الهندي للتخزين. ونجد في القبيلة أيضا الكبار capres والقرع thym والحزم Peganum harmala واللبو pouliot والبطاطس.

ولكل قبيلة رغبة فاصبيها، ويقتصر دوره على تدبير معاملات أفرادها. فهو يحرر عقود الزواج والبيع والطلاق ولا يهتم أبدا بالعدالة الجنائية في بلد لا توجد فيه أية سلطة معترف بها. وسنحدث فيها بعد عن تنظيم الإناري لهذا الشعب المتمرد.

وهناك أمر غريب، وهو أن الصابون غير معروف عند بني بونصر، لأن القبيلة غنية بالعصير المنظف للأثواب Terre à foulon، وهو نوع من الطين الأبيض الذي يكون رغوة ويريل الأوساخ عن المسبل بشكل جيد. وتوجد كل قرى بني بونصر وعددها 50 تريبا، على جوانب واد تمديث وواد ناغروت. وهناك فصعات كبيرة بين المنازل، كما أن عدد المساجد كبير، وهي تستعمل كمكامل إقامة للغرباء وللطلبة الذين يحظون بصيغة مجانية وطيبة.

¹⁶ يعني الربع القبيلة في الدارجة المغربية. وهذه الكلمة المبتوعة بالفوقاني والتمديثي، تشير إلى أن الأمر يتعلق بالاسم الحقيقي لهذا القسم من القبيلة، الذي استعمل على معرفته.

القرى الرئيسية لهني بونصر

- تهرقت (التسمية أمازيغية / عربية)، 300 منزل،
 - تلمديت (المصاء) (التسمية أمازيغية) 500 منزل،
 - يزارت (القفرون) (التسمية أمازيغية)، 300 منزل.
- القوة العسكرية: 1500 من المشاة، عدد السكان المحتمل: 7500 نسمة والبلدة جبلية بدون طرق وتحيط بها الغابات من كل جانب. ولها نص قلعة القبيلة السابقة. أما التعليم الابتدائي فهو قليل الانتشار، وبالمقابل فإن الاغتيالات كثيرة في تلك الربوع.

قبيلة بني خنوس

(أولاد الخنازير الصغير)

إن هذه القبيلة الموجودة فوق قمة الجبل، لا تتلقى أبدا زيارة الغرباء، بل يقال في الريف، بأن السلطان يجهل وجود بني خنوس. ففي كل مكان، توجد صخور ضخمة ومنحدرات جبلية خطيرة وغابات شاسعة وقطعان من القردة.

وحيثما وصل الدرويش عند هؤلاء المتوحشين، أحبط من طرف الأهالي وتم جسه وتفتشه بدقة، لكنه لم يتعرض لأي أذى. وقد تم حمله إلى جحر يستخدم كمسكن وحصل على مئات الحبات من البلوط الطلو كتغذية. وبينما كان رحلتنا بمضيق هذه الثمار بصعوبة، نظرا لصلابتها، دخلت عليه مجموعة من الخنازير الأليفة وهي تصدر أصواتا مزعجة، تعمل دلالة مع ذلك. وبقفزة واحدة وقف الدرويش واضطر رغما عنه، إلى التخلي لسيوفه الجدد عن الجزء الأكبر من الثمار التي لم يجد الوقت الكافي لأكلها. وسلاحظ بأن هؤلاء الأهالي القليلي الورع، يربون الخنازير مع الصاعز. ويحش الجميع في نفس الكهف، في غلبة الاتصاف، بما في ذلك رب الأسرة الذي يسمن بفعالية، وبواسطة ثمار البلوط، هذه الخنازير الصغيرة التي يستطبخ لحمها المملوق إن الفرد من بني خنوس لا يخاف غيبته أبدا. فهو يزرع للاستهلاك الخاص، أنواع الكرنب والفشوق والكيف. وبهذه القبيلة الرعيية التي لا يجرؤ أحد على المغامرة بربورتها، يسقط تلج غزير. هكذا، وبعد فضائه لثلاثة أيام بين هؤلاء المتوحشين، سوسرغ الدرويش بالابتعاد عنهم، وقد اشملز منهم ومن طعامهم الرديء. فهو بقي بين ظهرانيهم تلك المدة ليتأكد من أن

لهجنهم هي تاملزيشت ولي قبيلتهم تمتد على عشر كيلو مترات طولا ومثلها عرضا ولها تقتصر قسمين. فلواد وثارروث (الصخرة الصغيرة) وما مجموعة خمس قرى. أما قوتها العسكرية فتتحدد في ألف رجل من المشاة. ولا يوجد فيها أي منظم؛ أما مسالكها فهي وعرة جدا ولا توجد بها أية طريق.

20 قبيلة بني سادات

هي قبيلة صغيرة تمتد على 10 كيلومترات من جميع الجهات. وتحد شمالا بمتنوة وجوبا ببني خوس وشرقا برزفت وغربا بإقليم جبلة وتوجد ثلاثة قسوم بالقبيضة: لدرثر (لجل)، إخموشن (الجاروكون) وأزبلا. وفي المجموع هناك ستون قرية في كل واحدة منها مائة منزل تقريبا وهي بلدة جبلية بشكل كبير، تحيط بها الغابات والمحدرات والشلالات ولقد اُول من كل جانب وتكون مكسوة بالثلوج في فصل الشتاء. لذلك، فإن الأهالي يدغرون المزوبة عند نهاية فصل الربيع وفي الصيف. وتبدأ الأمطار في الهطول عند نهاية الخريف، مما يجعل المسالك غير مستعملة. وتوجد فيها الطرقات بكثرة، وهي تشكل الغذاء الرئيسي للسكان ويتم الحفاظ عليها لمدة طويلة ومن بين حيواناتها البرية نجد القنفذ والضبغ والخنزير، وغالبا ما يتدنى الرعاة بهذا الحيوان الأخير. ويستخدم البلوط الحلو والأرغال في صناعة الخمر، كما يوجد الفسل بكثرة، لكن مذاقه مر، لأن الفحل يلقح أرهار بطنيو bekhnenu (بلغة تاملزيشت) لو أسامنو (بلغة راولا). وهذا لا يسمع الأهالي من التلطف عليه. وتوضع الخلايا داخل المنازل بسبب مساواة للطقس.

وما أن دخل الدرويش إلى أراضي بني سادات، حتى يأنره شيخ التقى به في الطريق بالقول: " يا صاحبي، إنك هنا في بلاد المسيية. فلا تقل لأحد بذلك جئت من تاغزوت، لأنك ستقتل حينئذ وستجرد من امتلاكك ". ولحقق الرجلان ثم استمر الدرويش في مشيه. وفجأة شاهد بالقرب منه مجموعة من الأفراد مستلقين على الأرض، صامتين ومصوبين بذلقتهم نحوه واعتقد في البداية بأنهم رعاة. وسيتوقف أحدهم موجهًا إليه الحديث بالأملازيفية.

- iouachou ou territ fellanegh esselam ? (لماذا لم تسلم علينا؟)

20 - أصل الكلمة مشكوك فيه. وقد قيل لي بأن هذه القبيلة سميت كذلك، لأن الثلج والضبغ يحيطان بها ويسدانها من كل جانب. وابن، فإن سادات هذه الكلمة العربية للممرعة، سميت عن الممرع سد بمعنى أطلق وأفل بشكل متبع.

- الدرويش : a oulidi, our zrir' had (باعزيدي بليلي لم لرا احدا)

- الرجل : anisik kedj ? (من اين انت ؟)

- الدرويش : Nekki d akthami (أنا من كتامة)

عند هذه الكلمات وقف جميع الرجال صائمين : kedj d'athar'zouthi (أنت من

ناغروت) . وقال له الشخص الذي يبدو هو الرئيس :

- Tikhret fellas. Ath k'echchether'. Itskiddib ! Netta d'azouggar' .
Aith tar'zout d'izouggar'en am netta.

(ابتهدوا عنه سأسلبه أمتهته . إنه يكتب .. فهو أشقر . وكل أهلي ناغروت هم شقر

منه) . وسيفيف : " اطلع ملايك يا ابن النصراني " .

بعدها ، سيصوب بنظفه نحو الدرويش صارخا : " ألم تطلع ملايك بعد ؟ " ولن يسمع

محمد أكثر من ذلك . فقد ألقته يد قوية لرصا وجرفته برمشة عين من كل ملابس . وقد فقد من

جراه ذلك ، جلابتين وروجا من النعل ولربعين مستيما وغطاء رأسه ، أي أربع أو خمس طواقي

بيضاء موضوعة الواحدة فوق الأخرى ومحاطة بعمامة . لكن السؤال هو : لماذا كنى كاسيا بهذا

الشكل الفلخر ، وهو الذي كان يسافر عادة بأسفل بالية ؟

وقد طالب الدرويش بمليه لكن دون جدوى ، ولم يترك له سوى قميصه . ولما ألح على

استرجاع النعنين (لأنهما كانا جديدين تقريبا) ، قيل له بقسوة : Sousem a ner' ak ner' res

(أسكت وإلا نبعثك) .

ويكون الهواء في هذه الجبال الشاهقة باردا ، كما تهب رياح قوية جدا . وقد أحس

الدرويش الذي ترك لحاله بقميص من القطن فقط ، بالتأثير المؤلم لرياح الشمال القلادة ، حيث

بدأت أسنانه تصطك بفعل ذلك وظل يمشي على يثنا قليلا ، دون أن يدري أين توجد قرية تزمننت

التي يقصدها . وعندما سأل أحد الرعاة عن موقعها ، كل الجواب هو : " اتبع نفس الطريق وحيثما

تصل إلى قمة الجبل ستري القرية . لكن احتط من الثلج فهو يوجد بكثرة هناك " . وفي الطريق ،

التقى محمد براع آخر يمشي ويعرف على آلة المشوكين فسأله : " هل هناك ثلج على الطريق ؟ "

ولأن الآخر شخص مازكر ، فقد ارتأى أن يخادع هذا الرحالة صاحب القميص وقال له : " كلا ،

كلا ، لا يوجد هناك ثلج " . وسيستمر الدرويش في صعود الجبل مطمئنا إلى كلام الراعي . وعندما

وصل إلى قمة الجبل ، رأى بأن الجانب الشمالي لهذا الأخير مكسو بالثلج عن آخره . ومن المؤكد

أن تزدحم توجد عند السطح في عرق أحد القوديان . لكن كيف السبيل إلى اكتشافها وسط الأشجار

وهذا الرداء الأبيض الناصع ؟ وبدأ الهبوط ، وكلما تقدم في المشي غاصت رجلاه في الثلج . ولأنه

كان يرتدي قميصا فقط ، فقد كد أن يموت من البرد . وكان يمشي بحذر مخافة السقوط في إحدى

الهاريات. ولم يكن يعرف مكان وجوده وبدأ يهتد من النجاة لذلك سمع نباح كلب. ويبدو أن هذا النباح كان صادرا من عمق الوادي الذي لم يتمكن عيون الدرويش المتعبة من رؤيته على بعد مئات الخطوات منه وكان اللون الداكن للأشجار واللون الأسود للأرض يشيران إلى أن الثلج لم يعد موجودا بهذا الوادي المسجد والمحتل الذي يتعين بلوغه قبل حلول الظلام.

وسيقود الرحلة بمجهود أكبر، عندما شعر بأن الأرض المبللة، هذه الأرض المرغوب فيها التي أحسر عنها الثلج، قد أصبحت صلبة تحت أقدامه وهو ما كان يتفاه منذ ساعات. وفي نفس اللحظة ستظهر له بعض المنازل المعزلة وسط أشجار عالية، لقد كانت تلك هي ترميث وما هو قد جاء. وجر أذنيه إلى أن وصل إلى باب المسجد حيث سقط منهوكا. وقد دعش طلب كل خارجا من المسجد، من رؤية شخص يقف في هذا الطقس البارد. وعلى الفور، سيرجع إلى المسجد وسيؤدي رفاهه قتلًا: *As nud dël tafgirth . Aouith ed timessi* . *adizzizen* (اشعلوا النار، صنع له شطة بتدأ بها)، واتهمك كل الطلبة في العمل. وبعد قليل أشعلوا نارا عظيمة من خشب البلوط ستساهم حرارتها القوية في إبعث الدرويش الممكن بشكل أسرع مما كان يريد. فقد تم تقييده كثيرا من النار إلى درجة أنه كان يحرق حيا بعد أن كان سيموت من البرد. وسيترك هذا اليوم العسير أثرا لا يمحي من ذاكرة محمد وحتى وهو يروي لي هذا الحدث، كانت أسنانه تصطك وكان يلع بقوة من سبوه لمتعته والزاعي المنحوس الذي نله على الطريق.

هكذا، سيحيط طلبة ترميث بـ محمد، وعندما رأوا علامات الانتماء بلدية على وجهه أدخلوه المسجد. وستوضع أمامه ملة صغيرة مستديرة من الدوم، مينة بالبلوط المشوي والسلم. وبعد ذلك، سيقدم له صحن مليء بـ سبانخ المفتر بالملح والهندية المشرحة والصل الحاد الحاد والاراسيو (ثمرة الأرجل المشوية) والشمشي (الزرع الأبيض) وقول والمرغو. وسيلامه الطلبة طعامه، حيث يغمسون أصابعهم في العمل ليضعوها بعد ذلك في الفم (المشوي)، وبعد الانتهاء من الأكل، ستقدم لـ محمد أكلة ملاتمة وسيمن له ركن بالمسجد للدوم الذي سيخلد له الجميع.

وفي الصباح، عندما استقر الدرويش عن مكان إقامته، كان الجواب كالتالي " إنك توجد في دشيرة (قرية) درونان المسماة أيضا ترميث. وبما أنك شرقي (من الشرق)، فقلت مطلق قبل الذهاب إلى أي مكان آخر، بزيارة قبر سيدي محمد نجيمون، أشهر ولي في بني سيدات، وهو مدفون في قلب الغابة، وكان يعيش في القرن التاسع وحقق العديد من المعجزات ."

لا تقسى، في هذا الإطار، بل المغرب ملاذ حصاة الرسول محمد (ص)، هو الجزء من العالم الإسلامي الذي يوجد به أكبر عدد من الأولياء. وتستدعي سيرة كاملة لحياة الأولياء، عمر باحث وخمسين مجلدا in-octavo .

ومن بني سيدات، يمكن الإحاطة بالبحر الأبيض المتوسط الذي تظهر صفحته الزرقاء من بعيد. ويعتقد أهالي هذه القبيلة جارمين بأن كل سحنة مسيحية تمر على مرأى قبر سيدي محمد دجيومون، الموجود على الجانب الشمالي من الجبل الذي يقابل البحر، تنكسر وتتهشم وتفرق في صبح نفاق.. وهناك كرامة أخرى لهذا الولي: فهي لأحد الأيام، جمع حيوانات الغابة للمتوحشة وخطبها قائلا: " لا أريد أن يصيغ أعزائي من بني سيدات وقتهم في حراسة مواشيهم. وستذهب شاعر والأبقار والحمير والأبقار إلى الغابة بدون حارس، ويمنح عليكم مهاجمتها وأكلها ". ومنذ تلك الفترة، دأبت المواشي على التجول بحرية داخل الغابة في أمان تام. وعندما يقبل الليل، تعود إلى منازل مالكيها. وتشكل الأبقار استثناء لهذه القاعدة، فهي تعيش في حالة توحش إن مسح التحيز، في الجبال؛ لكن حينما يريد الأهالي استخدامها أو بيعها أو أكلها، فإن القيص عليها يتم بسهولة. ولا تمتلك القبيلة جيادا، لذلك يتم إخصاب إناث الخيول عن طريق جياد مستقدمة من المناطق المجاورة. وتحكي أسطورة أن ابن أوى، الراغب في عصيان أوامر الولي، أراد مهاجمة معرة سيداتية، وعلى الفور، أحطت به القطعان من كل جانب، وقصي عليه بضربة قرن مميتة. وقبل موته، أمر الولي المبارك سيدي محمد دجيومون أتباعه ب إقامة وعدة (حفلة إحصائية) كل خميس قرب ضريحه. وإذا ما كانت هناك كرامة، ففيها تتمثل في اتباع السيداتيين بدقة، وإلى يومنا هذا، لأوامر السيد. وسيستعمل الدرويش أحد أيام الخميس لزيارة الولي، ولثناء نحوه الصريح سيدهش أمام بقاءه العظيم ورخرفته الداخلية، العند الكبير من الفلزات الحاملين معهم أصحبتهم. ويلج الأملازيغيون للصريح وهم مدحجون بالسلاح كالجلود؛ بجلايتهم للسرداء والقصيرة التي تصل إلى الركبة وسراويلهم الصيفة التي لا تتجاوز الركبة أيضا. ويصنعون لشريطة من شعر الجمال حول رأسهم العاري ويتوشحون ببنطقية بوشلفر للمستقدمة من تطول. ذلك هو المظهر المثير لهؤلاء الجباليين المتوحشين الذين ما أن يدخلوا صريح السيد، حتى يفرغوا بنادقهم في الهواء. وبعد كل طلقة يصيح البراج: " مرحبا بالقبيلة القلانية " وبعد الزيارة يهرج المحاربون ويقفون بشرفة أمام مدخل الصريح ويخرجون سكاكينهم الحادة من أعينهم ويشرعون في ذبح أضحياتهم التي يسيل دماها ساخنا على الأرض، مرددين العبارة الخاصة بهذه المناسبة. آنذاك فقط، يصمون أسلحتهم . وبالتدريج، يمثل السوق الذي يقام حول الصريح. ويجب على الرجال أن يدخلوه بدون سلاح، ولا يستردون بنادقهم الموضوعة داخل الصريح، إلا عند

رجوعهم إلى منازلهم بعد انتهاء الوعدة. وتكون هذه الأخيرة مناسبة لاستهلاك فطير الكسكس ولحم والطويات إلخ... ويجد الفقراء الذين تقام الوليمة من أجلهم، متعة كبيرة في ذلك. ومن جانب، فإن الدرويش الذي تستهويه الأطعمة الفاخرة التي يتناولها بانتظام في ضريح الولي، يستطلب المكوث بقرية قرصميت. ولأن زيارته للولي أصبحت متكررة ومظهره لورع أصبح مقما، فقد اقترح عليه بعض الأهالي بأن يكون حارسا لذلك المكان للمقدس. غير أن قصوره الطبيعي ورغبته الملحة في التنقل منعه من قبول هذه الوظيفة المربحة، مفضلا عليها رغبته في الاكتشاف. وبعد شهر، سيغادر القرية، متجولا داخل القبيلة، حيث كان ينام كل ليلة بقرية جديدة، ويلتقي في كل مسجد للضيافة التي تعتبر واجبا مقدسا لدى كل سكان المغرب وفي هذه المنطقة، يسود الأمان نسبيا. فالمسدثيون هم أناس صراخون، لا يكتفون إلا نادرا ولا يمزحون أبدا. وهم متفهمون حول ذواتهم، لا يريدون زيارة جيرانهم ولا أن يقوم جيرانهم بزيارتهم. ولأنهم بعيدون عن الساحل، فإنهم لا يعرفون للتصدير ولا الاستيراد ويجهلون كل أنواع السكريات والفاكهة والقهوة والسكر والقطنيات الأوروبية. ففي هذه المنطقة لا يعرف اليهودي ولا النصراني. والزراعة السائدة لديهم هي زراعة القطن والكيف والتشوق. ويستهلك الأهالي الكيف والحشيش، وأيضاً الأفيون ونباتا يدعى الكبار²¹، يتوفر على خصائص مقدرة. ويدخن النساء الكيف مثل الرجال ويرتدين ملابس صوفية. ويتشكل الطعام الرئيسي للقبيلة من البيضار²² والكسكس بالفلو والقمح والحبلة (البزلاء) وقشرة شجر الأرز التي يشبه مذاقها، لحم الحيوانات، عندما تطبخ بشكل جيد. ويعتبر الحارون طعاما مرغوبا فيه ويأكله الرعاة منهمون نينا، بمعية الفلوط الذي لا يقشر بالكامل.

وفي إحدى جولاته، لوجئ محمد بن الطيب برداءة أحوال الطقس واختبأ تحت شجرة بلوط *quercus ballota*، غير بعيد عن حظيرة يرتفع منزل وسطها. وكان الثلج يتساقط بكثرة وبدأ يغطي جسد الدرويش. في تلك الأثناء، خرج شيخ من ثقب سياج الحظيرة وسأله بتماريفت: *Manis tchouchedh* (عن أي شيء تبحث؟) وسجّبه الدرويش: *k'imer* oua ha (إنني جالس هنا فقط). وسيتم الحوار التالي بينهما، وهو الحوار الذي أترك للدرويش مسؤولية نقل اللهجة العبدانية الخالصة التي تم بها.

- الشيخ: *atad'fedh r'er taddarth innou ?* (هل ستدخل إلى منزلي؟)

21 - وهي كلمة شبيهة بكلمة كيار *câpre*، لكن الأمر لا يتعلق بشجرة شجر الكبار.

22 - انظر مؤلفنا "أساطير القبائل الكبرى"، الجزء الثالث، الأسطورة 23 والتي لدي استشهدنا به وهو: *trough' ad immas ad' icich abiqar* وملاحظتنا بخصوص هذه الكلمة.

- الدرويش : ia llah (هيا بنا) . وسيتلقى الدرويش خطي الشيخ ليدخل معه لبيت، حيث يوجد الأسرة منشغلة بشي القناد والأراب (inisyin d'iothal) ويشاركهم طعامهم وعند الانتهاء من الأكل حاطبه الشيخ : Ekhser' akoucher' illi , m'ana anisik chekk ? (إني أريد أن أهديك أهني، لكن من أين أتيت أنت؟)

- الدرويش: Gelh' akama ouroumi (من أراضي النصراني)

- الشيخ: täjiben yi medden enni (هؤلاء الناس يعجبوني)

- الدرويش: Mar'er ? (لماذا؟)

- الشيخ: Lj'doud enner' d'ifranciyin (لقد كان أجدادنا فرنسيين).

وإثر ذلك نهض الشيخ وأخرج كتابا من داخل صندوق وعرضه على الدرويش قائلا:

- lektab agi fellas arbà lek'roun , thura ines tafrancist Tamourth a n aith seddath oufrancis; H'acha souffer'en ten aith Mern d'auth ouattas. Ina ik'imen d'ououlen d'imselmen.

(هذا الكتاب عمره أربعة قرون، وهو مكتوب بالفرنسية، وقد كانت بلاد بني سادات

ههنا، بيد الفرنسيين لكنهم سيطرودون منها بواسطة بني مري وبي وطان، والذين بقوا معهم أصبحوا مسلمين)

وإذا ما صدقنا محمدا، فلي شعورا بالنعاطف ينتظرنا في هذه القبيلة. ولنا أفضل

تصديق ذلك، بذل الذهاب بنفسه للتأكد من هذا الأمر. ولم يهكر الدرويش لذي انفصل عن

علامه منذ زيارته لقبيلة بني بونصر، في مسيرة مشروع الزواج المقترح من طرف الشيخ.

قد وعده بالرجوع، لأنه لم يجرأ على رفض هذا الاقتراح. وسيتوغل في الخلفية، كي لا

يظهر مرة أخرى أمام هذا الصديق والحفيد المعروف للفرنسيين

القرى الرئيسية لبني سادات

- تدارث (الدار)، التسمية أمازيغية، 50 منزلا، محاذية لنهر أزيلا.

- إخلوشن (المباركون)، التسمية أمازيغية، 100 منزل، قرب نهر أزيلا.

- قزوية، التسمية عربية، 50 منزلا، على نهر أزيلا.

- تيزيميث (الحزمة)، التسمية أمازيغية، 50 منزلا على نهر أزيلا.

- الخميم، التسمية عربية، 20 منزلا

- القلعة، التسمية عربية، 10 منازل.

- سيدي بالقاسم، التسمية عربية، 50 منزلا.

القوى العسكرية 2500 رجل من المشاة، عدد السكان المحتمل 12500 نسمة. المسالك خاصة بالبحر، البلد مليء بالمنحدرات ومغطى بالغابات. التعليم القرآني منتشر بما فيه الكفاية. في سنة 1893 كان قائد القبيلة هو سي محمد أحمرش، وكانت القبيلة مستقلة تماما .

قبيلة متيوة

(الضخمة) - التسمية أمزيغية -

يمكننا أن نتابع على الخرائط مسار الدرويش خطوة خطوة. لقد انطلق من القبائل الجنوبية للغرب الريف، متقدما ببطء نحو الشمال، دون الاعتماد عن حدود جبلة. وما هو قد وصل الآن إلى القبيلة البحرية الموجودة في أقصى غرب الريف. وتشكل متيوة الحد الفاصل بين هذا الإقليم وجبلة، ويجب أن يكون هذا الحد متعاسكا، لأن البلد يتوفر على جوانب صعبة خصوصا بالساحل. وبالفعل، قلنس هناك أي حاجز طبيعي من جانب البحر، بين غمارة ومتيوة. فغمارة هذه القبيلة الجبلية القوية، الأكبر من متيوة مساحة وسكانا، تهاجمها من حين لآخر، مما يضطر المتوويين للإستعانة بالمقاتلين الريفيين المدركين لمخاطر هذه الهجمات.

وتمتد متيوة على ساحل من عشرين كيلومترا، وتتوغل جنوبا على مدى يوم من المشي (لربعين كيلومترا). وتحد غربا بغمارة، القبيلة الجبلية، وشرق بني جميل (الريف) وجنوبا ببني سيدات (الريف) وشمالا بالبحر الأبيض المتوسط. وتشتمل على خمسة أقسام هي: أيت محمد على جانب البحر بمحاذاة غمارة، تيثولا (البحر) المؤدية شمالا إلى البحر وعلى مستوى الجيوب القربي (إلى جبلة) أيت عبد الله، وهو قسم بحري أيضا يهادي بني جميل، بني علي بالوسط، ثم الربع الفوقاني بالجنوب ويمكن لكل قسم من هذه الأقسام أن يجند 200 رجل حامل لبنقية، أي ما مجموعه ستة آلاف من المشاة بالنسبة للقبيلة كلها

ولكونها تشكل الحدود العربية للريف، المنغمسة في البحر الأبيض المتوسط، فإن متيوة تكتسي أهمية خاصة. فهي تستخدم فعلا كمنبر بين الريف وإقليم جبلة. ولا يمكن لتلالها القليلة الارتفاع، أن تشكل حاجزا في نفس أهمية الجبال الشامخة لتبائل الريف الجنوبي. فبجانب هذه الطريق أو من خلال القبائل البحرية لشرق الريف، يجب أن نتغلغل فيلق الجنود التي تريد احتلال الريف. فالحاجز الكثيف من الصبار الذي يبدو أن متيوة وضعتة قصدا بينها وبين جبلة، لا يشكل سدا منيعا بالنسبة للجيوش الحديثة. لذلك نحن من نصيب إذا ما قمنا في البداية بإخضاع القبائل البحرية وبعد ذلك بمحاصرة سكن الريف الجنوبي داخل جبالهم. وطبعاً، فإنهم سيظهرون

مقاومة شديدة في حصلهم الطبيعي المشكل على طول الخط الجنوبي، من سلسلة جبال الأطلس
المتومة.

وإن لم يفارق مضيقه بدرونتار، تلقى محمد منهم جلابة من الصوف وروجا من الفحل
الجديد وحلكا وشينا من الفل يتقرب 2.25 فرنكا. وسيقوم بجولة طويلة بالقبائل المحاذية لجبل
فل لم يحد إلى الريف، فلما من قبيلة عمارة الجبلية وعابرا قبيلة متينة. ومن عمارة إلى قرية
القلعة بالريف. وتشكل الساحل من سهل معوج بصخور عظيمة لا يمكن لأحد تجاوز أمواجه
الجزائرية. للهد إذا تعلق الأمر بطائر أو بالأرجل السريعة للماعز. وتسمى طريق الصالحات هاته:
"الموم". ويصطاد الدرويش الذي ترك عن يساره، ميناء ناكومت الصغير والمعروف أيضا
باسم الجبة، إلى أخذ الطريق المتجهة جنوب أيت محمد. فلما من عمارة، ليتقوى الجروب
الصغرى للموم. وبعد أن سلك هذه الطريق الجبلية، وصل بعد يوم من المشي، إلى قرية القلعة.
ويتعلق الأمر بميناء بحري صغير، يعرف في البلد باسم مرسى سيدي فتوح ويقع على جانبي نهر
تيمولا حيث يوجد مصبه. وبإمكان السفن الكبيرة الرسو بهذا الميناء. وقد لهم بالقلعة حصن يروود
بالمونة من طرف أسلم قبيلة متينة. وحشية وصوله إلى القلعة، استقبل الدرويش كالمادة بحفاوة
داخل المسجد، حيث وجد الطلبة وبعض الرحالة الغرباء وهناك انتظر بناء حلول موعد العشاء.
في الغرب (المغرب) برمته، لا يتحلى الناس إلا بعد أداء آخر صلاة في المساء (صلاة
العشاء) وذلك حوالي الساعة ليل. وما لم يداي المؤذن للصلاة حتى ابتداء المسجد بحشود من
الجناب والشيوخ والطلبة والشرفاء الذين جاؤوا لأداء صلاتهم دون تخلي عن بذائهم (كلابط)
الإنجليزية المصدر. وهذا المشهد لشعب مسلح بقم صلاته، دفع الدرويش إلى الاستنتاج بأن الثقة
غير سائدة بين هؤلاء القورعين. وسيحقق من ذلك لاحقا. وبعد الصلاة، جاء الطعام المنتظر
محمولا من طرف بعض الرجال الذين يرافقهم حوالي ستين فردا حاملين يدايهم معهم. وقام
لضيوف المسجد، الفجاج والسك والعسل والزبدة وخبز الشعير؛ إذ لا يعرف خبز القمح، فمن
متينة إلى نيمور Nemours لا يزرع القمح إلا لماما، إن لم نقل إنه لا يزرع أبدا.

وبعد الانتهاء من الطعام، رجع الأفراد الستون إلى منازلهم، حاملين الصمون الفارغة.
ولم يبتعدوا سوى مائة خطوة، حتى سمع نوي تراثق بنيران البنادق. ومع ذلك، فإن نقاشات
وضيحات ضيوف المسجد، لم تقطع تقريبا. ويقول أحد الحاضرين بنوع من اللامبالاة:
" اسموا.. هناك تقاتل بالخارج ". وبعد برهة، جاء من أخبر الطلبة بأن اثنين من حاملتي
الصمون قتا وسط قرية من طرف أعدائهم الشخصيين. فتسائل الدرويش المتعود على المعادلات
السلامة للطلبة: " لية قبيلة هاته يتم فيها القرائق بنيران البنادق بهاته السهولة؟ ". وسجبه أحد

الطلبة: " لكم أنت سادج (غشيم) .. لماذا في القرية؟ وهل هناك ريفي واحد مات مونة طيبه؟ فكلهم يموتون بفعل الحديد والدار. وتقام عليهم صلاة الجنازة بسرعة، إذ يمثل أحد الأشخاص بلر فلتا مات وقد قتله فلان. فلنصل عليه وندفنه ونترحم عليه ". وسيصيف الشاب المتكلم وهو ينهم: " طبعا هذا ما نقوم به ". وبالفعل، خرج الجميع من المسجد بما في ذلك الدرويش وتم الالتحاق بمنزل القتيلى. وكانت مصليح ضحيفة تكبر الجنتين اللتين تم غسلهما وتكفينهما بسرعة. مع تركه الرأس مكشوفاً. وسبقهم أصحاب البيت العسل والزبدة والفيل للطلبة، كما سيشاركونهم الطعام دون أن يبدو عليهم أي حزن. وقد سألهم محمد: " لماذا لا تكون ؟ " فأجابوا: " لقد قاموا بقتل غيرهم ". ومرت الليلة في صلاة وأكل وشرب، إذ لا يحترق المسهر بجانب موت سرا محرنا في كل ربوع القرية، على الأقل بالنسبة للطلبة الذين يجدون فيه مناسبة معتلة لإشباع بطونهم مع ربح بعض المستلزمات كأجر على الصور القرآنية التي ترحموا بها على الميتين.

وعند الصباح، غادر الدرويش القلعة باتجاه سوق الاثنين الذي يقع وسط القبيلة بفقره سيدي إبراهيم. وقد شرع في تسلق مجموعة من التلال والجلال الصغيرة المليئة بالقرى. تاركا قهرا وراء ظهره. وعلى مدى البصر يمتد القين الوحشي (كرموس النصارى) الذي يمتلى التلال والوديان بكثافته الحصراء الداكنة. ومع ذلك، توجد بعض المسالك الصيقة داخل هذه الغلبة المقتردة. ورغم أن الفصل كان صيفاً، فإن هواء البحر كان ينعش الجو ويهب دون توقف. واستقر الدرويش في ترحاله دون استعجال منتقلاً من قرية إلى أخرى، دارساً البلد وعادات وأعراف سكانه. إن آمالي شتوية هم من حرق أساريهم يتحدثون جميعاً بتامازيغت وقليل منهم يعرف اللغة العربية. وهم شجاع وميلون كثيراً إلى الاقتتال ويحبشون في استقلال تام. وفي كل مكان تقريباً، من قرية إلى أخرى ومن منزل إلى آخر، تجد عدوات رهبة. وفي كل يوم، تسلك دماء أفراد القبيلة بسبب الاقتتال. وغالباً ما تلتقي شبلها في الضرب من عمرهم وقد وسيت أجسادهم بندوب ناتجة عن طلقات الرصاص أو ضربات السكين. ويتميز المنيوي ببنية قوية مثل خنزير. ورغم غلظاظته وطبيعته الشرسة، فإنه يحافظ على تقاليد حسن الضيافة، بحيث يتنازع الأمالي فيما بينهم على الصيف. وقد علم الدرويش يوماً، معركة منتظمة كان السبب في نشوبها مسافر أجنبي تنازعه عائلتان. وقتل من جراء الفراع ثلاثة رجال واستصحب المنتصرون معهم الصيف الغريب إلى المصلى الموجودة بعزوتهم. ويطلق إسم المزوة في القرية، على العشيرة الصغيرة المشككة داخل كل قرية من منازل أو ثلاثة منازل متحدة فيما بينها. ولكل هزوة مصالحتها الخاصة بها. وقد يحدث أحياناً أن تتنازع عروات القرية الواحدة فيما بينها، لذلك فإن الرجال لا يخرجون إلا ليلاً، وإذا ما ظهروا نهاراً، فإن الرصاص المنطلق من المزوات المجاورة

سيوقعهم على الفور. بالمقابل، فإنه بإمكان النساء التحرك في الأزقة متى شئن دون خطر على اعتبار أن المهانة القائمة والأبدية تخصهن وحدهن لا غير. وهن يذهبن إلى منابع المياه وإلى الفلاة والحقول دون خوف.

ويضطر أرباب العائلات المعرضون لمثل هذه المخاطر إلى تشييل الأجانب لزرع حقولهم وحراسة مواشهم. ويحظى هؤلاء المرتقة بالاحترام مثل النساء. ففي متيو، كما هو الحال في كل قرية، لا يعلن رب العائلة عن سفره حينما ينوي القيام بذلك فهو يسافر خلسة أثناء الليل، متسللاً بين الحيطان. وما أن يغادر القرية حتى يسرع المشي في الغلاء وحتى داخل الغاية في لمتن. وسيجد نمسا بعض الأمان عند ما يصل إلى أراضي لقسم المجاور، لكن أي امن؟ فغلبة بوندي Bondy، تعتبر مقام السلام والأمن والسعادة، مقارنة بالريف، ولهذا سبب فإن الرحلة عملة نادرة في المغرب، إذ يجب أن يكون المرء منطوقا بسبب وجهه، إلى مغادرة قريته أو مدينته أو دوائره.

لقد تحصل الهندة من حين لآخر بين العروات والقرى المتجاورة، لكنها لا تكون طويلة على العموم. وفي متيو، لا يخشى الغرباء شيئا، إذا ما كانوا يرتدون ثيابا ذات لون سدير لثياب سكان البلدة الذين تكون جلابيبهم سوداء أو مخططة بالأبيض والأسود. وهذه الحصانة لا تخص سوى الغرباء المقيمين بالمساجد.

وكل قريب أو صديق يحظى بصداقة عائلة ما، يمكن أن يتعرض لنفس المخاطر التي يتعرض لها أفراد هذه العائلة.

والمرأة المتيوية جميلة. وهي ترتدي نوعا من القماش الأبيض يسمى للرھيف وتحمل في رجليها نعالا حمراء وتزين كواحبها ومصاصمها بفلاند وأسورة من ذهب أو الفضة. وتكتمل هذه التزيين بحرص الأبن التميية ودات الحجم الكبير ويتاج مذهب أو مفصص وبعقود مثقلة بقطع اللوز الذهبية أو بقطع من الفضة وبشوكات فضية تجمع أطراف للرھيف على الصدر. ولا ننسى خواتم الذهب والفضة التي ترصع أصابع اليد. وتهيمن قطع النقود الفرنسية والإسبانية على الحقود، وبالمقابل فإن النقود المغربية نادرة. ولا تستعمل النساء الحجاب بتاتا، فهن يخرجن مغطيات الوجوه.

وتتزوج العراوات في سن مبكرة، ما بين عشرة أعوام وأربعة عشر سنة، وهن يكنن أزواجهن ثمتا باهضا نتيجة صفقة مع الأب أو الوصي الشرعي. وتصل قيمة التقيحات إلى 500 فرنك ومتوسطات الجمال ما بين 1000 و 1500 فرنك، أما للجميلات فما بين 4000 و 5000 فرنك، إضافة إلى جهاز الحروس والحلي. ويطلب الخطيب الذي يكون مرفوقا بثلاثة أو أربعة

تستأجر من أقربائه، يد الفتاة ويستأجر عن كومة القهر من ليها لو وصيها. وطبعا ، فإن المعنوية بالأمر لا تستأجر ليها. وإذا ما قبل الطلب، فإن الأب لو فرضي يخرج مع الزوج القومود وأقربائه، متجهين جميعا صوب قاضي القبيلة الذي يقرر عقد الزواج. بعد ذلك، يرجع الصليب إلى منزله لتأمين حفل الزفاف . ويقوم، حسب ما تسمح به ثروته، بأنح ما بين بقرتين إلى ست أبقار. وإثر ذلك، تطبخ جبال من الكسكس وتملأ حرات عن آخرها بالحليب وتجهز لغوت لبقار. وخلال تلك ولم العريس أكلوا من " المصن " (الفطائر) العذقة في بحر من القسل. وعندما يصبح كل شي جاهزا، يجمع العريس أملي قرية ويدعوهم للأكل والشراب. وبعد الظهور، يتوجه صناد من فرجال المسلمين لينظفهم وقد شدوا أعزمتهم بقوى، وكلتهم ذاهبون إلى معركة، صوب منزل الفتاة مشيا على الأقدام. وهناك يضعون بين يدي لب العروسة، القهر المتفق عليه، ثم يضعون هذه الأخيرة فوق بطة مرسجة بشكل أنيق ويحطون إشارة الانطلاق بطلقات مشتركة من بنادقهم.

وتوسع الفتاة المصيبة وسط الموكب فصاحب الذي تظن طلقات بنادقه المستمر من بعيد، من قرب وصوله. ولي منزل العريس، تبدأ النساء في الزغاريد بشكل قوي عند سماعهن لطلقات البنادق. وما أن يظهر الموكب حتى يسرعن لقاء العروسة، حيث ينزلنها من السرج ويرفقنها إلى منزلها الجديد. ويمكن معها دغل غرقتها إلى أن ينصف الليل، أذاك، يسعين ويركنا لوحدها. وسيت إخبار العريس الذي ظل بالخارج، بلهو ويطلق رصاص بنادقته مع أصدقائه، بأن موعد الفصلة المصيبة قد حقت. وتقوم بهذه المهمة الإخبارية، امرأة مسنة مخصصة لهذه المناسبة. إثر ذلك، سيبتعد عن أصدقائه خلصة، لملأكة زوجته. ويضع لوحة بنادقته بفتحة حددت لهذا الغرض، حيث سيملأ الوميض المتبوع بدوي الرصاص، لسكان القرية، بأن الفتاة لم تعد بكرا. هكذا، سيستقبل الخبر بالزغاريد الحادة التي تستجوب لها طلقات البنادق. وفي الوقت الذي يظل فيه العريس داخل الغرفة، يستمر الصيوف في الاحتفال طيلة الليل حيث يلقي الرجال والنساء بالقلوب، منشدين أغانيهم القديمة ومرتلين لأغنى جديدة. وتعتبر زغاريد النساء الحاصرات، كمكافأة على هذه الأشعار المسقنة. وعند الفجر، يرجع الصيوف الذين امتلأت بطونهم إلى مساكنهم مع الاتفاق على الالتقاء في عرس مقبل.

طبعا، فإن زواج الأرملة والمطلقات لا يتم بنفس بهرجة زواج العذراوات، فهو يمر بهدوء ويتواضع ويتناسب مع وضع تلك التي فقدت أكبر جزء من قيمتها، أي بكرتها. وفي جميع الأحوال، يتم الاهتمام بطون الصيوف الذين يهرعون إلى هذه الحفلات بكثرة.

وميزة المرأة الريفية أنها ولودة، وغالبا ما ترى امرأة محاطة بسبعة أو ثمانية أطفال، بل يتم ذكر نساء أنجبن 15 طفلا وطفلة. ويعتبر رجال ونساء هذا البلد الرهيب العائلات المتعددة الأفراد، كمنة إلهية. ولا ينتظر هؤلاء الجيليون الأشداء، كما هو الحال في أوروبا غالبا، أن يكون الرجل قد خارت ثلاث أرباع قواه، ليتم تزويجه. فالريفي يتزوج وهو صغير السن، ما بين 15 و 20 سنة. فأي اختلاف هذا، بين شاب قوي البنيان ومتين كتور، وطالب للزواج من أجداننا من أربعين سنة، والذي يساوي إنهاكه الجسدي، انهياره المعنوي.. ولا يحب الريفيون النساء العاقرات، بل يطلقوهن بعد انتظار سنتين أو ثلاث سنوات، مع إظهار احتقارهم لهن. ومن الأرجح ألا تتزوج سيدة الحظ هاته بعد ذلك، فهي تعيش في كنف أبويها اللذين يشبعانها شتما ويخضعانها لأشق الأشغال. ولن يكون مصيرها شبيها بمصير المرأة الأوروبية الكسولة، ولتصدق بذلك الدعارة. فهذا الجرح في بلداننا المتحضرة نادر الوجود في الريف، إذ لا يمكن للمرأة أن يمزح بشرف النساء هناك.

لقد سبق لي أن قلت بأن كل القبائل الريفية مستقلة ولا تعترف بتاتا بسلطة سلطان فاس. ومع ذلك، فقلعية تتوفر على حصن يتواجد به أفراد من الجيش النظامي وتؤدي الضريبة بانتظام. وهذا هو مجال خضوعها. ولكي لا أعود ثانية إلى هذا الموضوع، سأوضح كيف تختار متبوة وبقي قبائل الريف الأخرى، للقياد عندما يستدعي الأمر ذلك.

فالقياد الريفيون هم موظفون غير مستقرين، أكثر مما هو عليه الحال بالنسبة لوزرائنا، وهم معرضون أكثر منهم، لملاح مواطنيهم: إذ يتم انتخابهم ثم إعفاؤهم بسهولة مذهشة، بل ويتم إعادتهم بسهولة أكبر. وعندما يموت للقايد، موتة طبيعية أحيانا وعنيفة في غالب الأحيان، أو يتم إعفاؤه من طرف الأهالي، فإن أمر انتخاب قايد آخر يخضع للإجراءات التالية: يشكل أعيان القبيلة الرئيسيون الجماعة، وهي أعلى هيئة في القبيلة، شبيهة بنقابة قوية، ويجتمعون بالمسجد أو بسوق يحضره الناس بكثرة. ويكون أفراد الجماعة قد اتفقوا مسبقا على اسم للقايد المنتخب والذي لا يمكن أن يكون إلا فردا منهم لأن أعرافهم لم تكن ديماغوجية بحيث تسمح باختيار الشخص الذي سيشغل أهم وظيفة من أسفل المراتب الاجتماعية. هكذا، فإن الجماعة تعين أحد أعضائها كبديل للقايد الراحل. وستحضر عقد التسمية الذي ستم المصادقة عليه شكليا من طرف السلطان. وسيتجه الشخص المعين، مرفوقا بهذا العقد، إلى فاس أو مراكش حاملا معه ما بين 1500 و2000 فرنك، قيمة الهدايا المخصصة لصاحب الجلالة الشريف. لكنه لا يسافر لوحده، بل سيرافقه أربعة أو خمسة من أصدقائه القدامى، المكلفين بمراقبة القايد الجديد وحراسة محفظته. وتقابلا لكل مغامرة لا تحمد عقباها، فإن هؤلاء الأصنفاء الأوفياء، سيتكلفون بحمل المال، هذا

الحب، القتل الذي يشكل في القلب من قطع (X) سفوف. وسأخذ قود المنتج بالسلاح طريقه على ظهر القمل، وإذا ما حصل أن سقط في كمين، فإنه يرجع إلى القبلة خلف الوضوء. بعد أن يكون قد ترك للصوم، الهدايا والآنية والبهائم وهدايا أو أكثر من أفرادها. أما إذا وصل بناس إلى هنا أو مراكش، حيث يتواجد الإمبراطور، فإن أول ما يفعله به هو التوجه إلى باب قصر الملكي وسيفتح أثناء القصر بوضوئه وبرهته في المتول بين يدي العامل. غير أن هؤلاء الأمراء لا يهرون قود أي اهتمام، إلى أن يقتطعوا جزءا من المال المخصص للسلطان. وإذا ما حاول أعضاء قود عدم الاستجابة لهذه المعاملة المتقدمة، فإنهم لن يروا السلطان أبدا، كما أن هذا الأخير لن يعلم أبدا بأنهم يسطرون معبلة عند باب القصر. وعند تلبية رغبة الأمراء، يتم إدخال أعضاء قود حفاة إلى قاعة الانتظار. ويسأل الحاجب لطرح عليهم بعض الأسئلة من قبيل: من أين أنتم؟ وماذا يريدون؟ وهذا الشخص الذي يكون في العادة أحد أقرباء السلطان ومن أسمى بحيث لا يرعى بالهدايا الصغيرة التي يأتي بها الجبابرة القراء، سيدخل إلى قاعة العرش وسيفتح الباب على مصراعيه مطبا بأعلى صوته "يا بني كذا قد وصلوا...". ويكون السلطان، الذي تم إبعاده من قبل، جالسا على مقعد مرتفع وسيقوم بإشارة تحمل معنى: "دعهم يدخلون". هكذا يسير القليل الجديد خلف الحاجب باتجاه القاعة. وسيجري الأمير على الطريقة المغربية، أي بتقبيل رؤوس أصابع يده اليمنى، وهي حركة مؤدية معروفة تحت اسم "بندق" من جهته، فإن السلطان سيرد على هذه التحية بمثله. لذلك، سيتقدم الموظف الموعود من العرش بنوع من الرهبة، لأن حارسين خاصين للسلطان يحيطان به ويشهران سيفهما ويهددان سلاح لسيه. وسيتحدث أحد هذين الماردين بصوت قاطع، طالبا من القادم الجديد، الجلوس على مقعد موضوع أمام السلطان بالقرب من العرش. وهو ما سيدعه القليل، مقدما عقد تسميته دون أن ينسر بكلمة. وسيتناول الإمبراطور القليل، ثم سيسلمه لأحد القوراء الجالسين بجانبه، شيئا ما إلى القوراء، على مقاعد أقل ارتفاعا ولجهة من مقعده، حيث سيدأ الوزير بقراءة العقد بصوت عال. عندئذ سيحاطب السلطان القليل، سقلا ليام من قبيلته وأعيانها وحالة سكانها والمعاملات والمواثي. ولإنهاء اللقاء، سيقوم بإشارة من يده، سيقرب الحاجب على إثرها من القليل قائلا: "نوض أنسي" ²¹ (انصرف يا سيدي).

وعلى الفور، سيهضم القليل، وإذا ما كان عارفا بقواعد البلاط الشريف فإنه سيرجع بالقهقرة، أما إذا كان جاهلا بها فإنه سيدبر ظهره للشريف، إلا أنه لن يلام على ذلك، بل سيكتفى

²¹ - كلمة سيدي تعبر عن سي. وهذا دليل على التشف بالمثل. أما "أ" التي تسبق سي، فهي إضغاف للمقطع الصوتي "يا".

العاثرون بالهتاسة سائرا من غطائة هذا العرش. بعد ذلك، يستطع الحالب القيد في قاعة الاجتماع (طمطحة) المنصصة لاجتماعات القيد في مرحلة محددة من السنة. هناك، سيكون أمام القيد متسع من الوقت لتطرح بأعجب في فرزاي الجميلة وتستمر القشرة التي سيقدم عنها فيما بعد وصفا متخيلا أمام أصدقائه المشدوهين.

إثر ذلك، يستقبل السلطان أعضاء الوفد واحدا بعد واحد، ثم يصطحبه الحلب تارة إلى قاعة الاجتماعات حيث سيجدون القيد المعبر. في نفس الآن، سيقدم آخر عنصر قصر الوفد، الهدايا إلى السلطان، حيث سيمسها قرب العرش قائلا: " هذه هدية القيد " وسيكون لملقاة لصحبته. آنذاك سيقف الحلب باب القاعة على مصراعيه وسيكون أعضاء الوفد متواجدين يمكن لا يروا السلطان من خلاله، شتما لا يرفعهم بدورهم. وسيعتد في قاعة العرش مشهد هام وعظيم، لم يسبق للأوروبيين أن عاينوه من قبل. فذلك أن الحامل ووزراءه الجالسين على مقاعدهم، سيرفعون أيديهم مجتمعة قرب وجوههم وكثفهم بقروون كثيفة وسرودون بصوت عال لفقطة مضامين إليها بعض الانبثالات والدعوات لفقطة القيد وأعضاء الوفد وهيبتها.

وستقدم هذه الدعوات المكتوبة على ورقة، إلى الحالب الذي سيقف صوب القيد - بعد أن كان نظره منصوبا إلى قاعة العرش، وسيشرع في قرائتها.

عندئذ سحرك أعضاء الوفد بأن الاستقبال قد انتهى وسيغادروا القصر. فدا كانوا في قصر، فإن ضريح المولى إدريس هو الذي سيكون مكان ملوهم وسيتهده لما إذا كانوا في مراكش، فإلاهم سيقومون في ضريح سيدي بلخير السبتي. وفي الصباح، سيعود السلطان إلى القيد الجديد طالبا من الذهب أو الفضة، حسب أهمية الشخص وقبيلته. ويحصل الطابع القش التالي: " إن فلانا هو قائد القبيلة العلانية، طوعا أو كراهية ". وسيرافق ذلك بنوب قصر ويجوز رقع. هكذا سيقبل القيد راجعا ومعه عشرة فرسان مظمين (محربة) مكنين بمركبته إلى القبيلة، من أجل جلب الضرائب التي لم تود بعد. وسيأخذ الوفد طريقه إلى الريف، مع هذه القوات المساعدة الفطيرة التي سيقوم أفرادها عند القيد ويصبحون مغذي لأمره الانتصمية. وعند رؤية المغزبية، سارح القرى يتجهب إليها إلى القيد المنتخب الذي وفق الشطر على حضوره. وسيقوم هؤلاء المغزبية بهولات داخل القبيلة مستقرين بالبلدات التي يشكون في محالقتها تقديم وملتقن القصر على أعدائه للشخصيين المتهمين بعدم أداء الضريبة. وبعد شهر أو شهرين من العرش على هذا المنوال، سيجع المغزبية إلى حاميته بعد أن ملأوا بطونهم وألقوا بالهدايا. وسيقدمون للسلطان جزا ضميلا من الأموال التي جمعوها، إذ أن أغلبها سينذهب إلى جوبه أو جوب القيد ومناصريه.

إن رئيس الأهالي المحروم من مساعدة المخزنية ، سيحكم بمساعدة " قصف " وسيقرر كل أنواع الانتهاكات والتجاوزات، إلى أن يأتي اليوم الذي سيقتل فيه أو يجبر على الاستقالة، لأن عدد الرافضين له سيكون قد ازداد، كما أن لفظة المشايعة له ستكون قد ضعفت. وسيطر " قصف " المنتصر على الشخص الجديد، ويمكن لهذا الاختيار أن يحظى أو لا يحظى بموافقة السلطان، كما يمكن لهذا الأخير أن يتلقى بعد شهور من الحدث، خبر وفاة القائد المصن أو قتله بضاجر أعدائه، وذلك عن طريق الصنفة.. وهذا سيستخدم لمقتته لإعادة القبيلة المتمردة إلى جادة الصواب، وأحياناً ما ينجح في ذلك، إلا أنه يضطر أحياناً أخرى إلى انتظار سنوات عديدة قبل أن يعود إليه أبناء الصلوات وتصل مساهماتهم الصربية. وهو لا يحظى بتعاطفهم إلا بعد أن يكثر من شكواي في رسالته المطولة التي يحتجب فيها هؤلاء المسلمين الفقيرين الذين لم يلتزموا بأحد المبادئ الأساسية للفران الكريم. وسيبرز بالمساسبة سيرته كحفيد للرسول، وهي حجة لا تقوم وسيكون لها تأثيرها على القبائل الأكثر استقلالية.

هكذا، ستأخذ الهدايا طريقها من جنيد إلى فاس أو مراكش وستعلن الوكالات الأوربية للعلم المندمشر، بأن صاحب لجلالة الشريف، قد جلب بالقوة، ضرائب هذه القبيلة المتمردة أو تلك..

طبعا إن الربيعي لا يلتزم بالأداء المنتظم للصربية التي يعتبرها كهنية إلى حفيد الرسول، أكثر من اعتبارها كرسوم إرامية. وبغضلا عن ذلك، فإن الحصص المنفوعة *quoties-parts* تكون ضئيلة فهي تتحدد من طرف الجماعة وفق إمكانية كل واحد، ولا تتعدى أبداً، حتى بالنسبة للأغنياء، (1) إلى 15 فرنكا في السنة. أما حصة الفقير من كل ذلك، فهي ضئيلة ولا تتعدى بضعة سنتيمات. وللأسف، فإن قياد وأعضاء الجماعة لا يشبهون وهم غير عادلين لأنهم يهونون الموالين لهم من كل صربية، ويقتلون كامل خصومهم بالرسوم. وهو ما يفسر الاضطرابات المتواصلة بالقبائل الصربية وعدم احترامها لعاهل لا يستطيع حملتها من جشع لقياد المخرئين أو المستقلين.

لذلك ترى بعض القبائل تتخذ القرار الحكيم المتمثل في إدارة نفسها، فهي تعين جماعة تكون ملزمة بعدم تحميل أية صربية. ويحصر دور هذه الجماعة في جمع مرتكبي الجنايات والمخالفات وفي تمثيل القبيلة على مستوى العلاقات الخارجية وفي إصدار أحكام الإعدام في اللحظات العصبية. وللأسف، فإن أعضاء هذه الجماعة ليسوا بمضاي عن الارتشاء. فممارسة السلطة تذهب بصواب هؤلاء الذين انتخبهم الشعب. لذلك فهم سيتقنون لما يبيهم لإتقان كامل الشعب الفقير بالضررائب. وستكون الثورة عليهم آنذاك ضرورية لإزالة نموذج المستخدم بشكل

منه. ويشارك الخصومات والانتقاصات والاضغاثات وتصل القوصى إلى ذروتها. وهذه هي لحظة التكنولوجيا المتطورة من طرف السلطان. فبفضل مناوراته ومنورات بعض منصبيه يحرص أحد أتباعه على القيمة المتمردة التي أهدتها القوصى ويهبط لضرائب المستنقة من قبل. وهي مهمة صعبة وخطيرة بالنسبة لتقديم الجديد.

ولا يوجد أي نوع من الإشارة بالعرف. بحيث لن تتحضر إذا ما علما بأن السلطة القضائية ضلها مبهولة. ويختار الطلب الذي حظي بلقب القاضى مجرد كتب صومى يستخدم كلمة لتسجيل بعض الأحداث العامة، كالأرواح والطقس وعصفت البيع والشراء. ولأن جمع الجمليات والمخلفات لا يوكل لأحد بعينه، فإن أقرب الصيغة هم الذين يتكفون بعملية الانتقام. فطري لمتكافؤ العرف، يختار الأخذ بقلتر أمرا قاعما باستمرار. لكن حينما تأخذ الجريمة لباسا قاعما لموقفا، فإن الجماعة هي التي تأخذ المبادرة. ويولد لذلك الذي سيكون هدفا لمتكفمتها؛ إذ سوطارد كوحش جريح وسيحكم عليه بالقتل في القصة إلى الأبد لو القهرت. هذا إذا لم يتم قتله في إحدى القرعفت. وتصبح ممتلكته عرضة لنهب أعضاء الجماعة الذين يأخذون لقسط الأوفر، تاركين لباقي أفراد القبيلة المساكين، بعض الأسفل البقية. وقد روى لي ريفي من بني بوغفور، وهو قسم من القبعة، حكاية ذات مغزى بهذا الخصوص. فلغزو الذي قهر ظنما بالتركيب جريمة، قبض عليه من طرف أعضاء الجماعة وأعدم رميا بالرصاص بمنزله، وسط أفراد أسرته المرعوبين. وفي قبيلة الموالية، سيأخذ أفراد كل قريته من النساء والأطفال وسيخضعن بالقبلة حيث سوشرج في ضاية لهذا القاتل لغوه. وستكون المصيلة هي: مقتل ستة من أبناء عمه وسبعة عشر من أهدفه. وكان هو فرد الوحيد من القبلة الذي بقي على قيد الحياة. وبالرغم من أن بندقيته قتلت ثمانية أفراد من أعضاء الجماعة، إلا أنه لم يثر على البقاء بالقبيلة. وسيرحل إلى مليلية ويحدها إلى وهران. بحثا عن العمل والأمل. وهو ينتظر منذ عشر سنوات، الفرصة المواتية للعودة تلبية إلى دياره وما زال خائفا لتأثير الفكرة التي منحتها أنه لن يموت قبل توجيه رصاصات بندقيته إلى آخر أعضاء.

ومنذ وضع سلوات، ظلت مثوبة بدون قيد. فهذه الجمهورية الصغيرة تكبر شلونها بنفسها بالاعتماد على ممثلين للأهلي، منتخبين داخل كل قسم. ولا يجتمع أعضاء الجماعة الرئيسية المكونة من ممثلي مختلف الأقسام إلا في اللحظات القصية؛ حيث يتم القسم في أمور السلام والحرب والاعذار والظرد. وطبعا فإن لكل قرية جماعتها الصغيرة الخاصة بها.

ورغم استقلاليتها المطلقة؛ فإن قبيلة متبوة ترسل من حين لآخر، بعض الهدايا إلى السلطان. وهي هدايا مقدمة إلى حفيد الرسول ولهمت إقرارا بالخضوع لسلطة الإمبراطور الذي لا يخشى الربيعون بناتنا، سلطته الجنوبية.

وعلى الحدود الغربية من القبيلة، غير بعيد عن البحر، توجد مناجم الذهب والفضة. ويرجع ذلك إلى كون متبوة معدنية لخمسة، وهي المنطقة التي يبدو أن الطبيعة حينها باعته الثروات المعدنية في العالم. ولا يعرف سكان متبوة، مثلهم مثل جيرانهم، جهة الغرب، استقلال هذا المعدن الثمين. وهناك غدير ذو أهمية لا بأس بهاء وهو ولد تيثولا الذي ينبع من الربيع الفوقاني وينبع مجراء من الجنوب إلى الشمال ويصب في البحر الأبيض المتوسط بالقلعة، حيث يتشكل ميناء صغير.

القرى الرئيسية بمتبوة

- ناكموت (المحاطة بالصخور)، (التسمية أمازيغية)، قرب البحر 100 منزل.
 - القلعة أو سيدي فتوح (التسمية عربية)، قرب البحر 100 منزل.
 - تيثولا، على الغدير الذي يحمل نفس الاسم، 100 منزل.
 - سوق الاثنين، وهو المكان الذي يقام فيه أكبر سوق بالقبيلة.
 - تزيلث (كرمة العنب)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل.
- القوى العسكرية، 6000 من المشاة؛ العدد المحتمل للسكان 30 ألف نسمة. وهناك حوالي 60 قرية. التعليم قرآني قليل الانتشار.

قبيلة بني جميل (جميل)²⁴

وهي قبيلة بحرية، تحدها متبوة غربا وبني بوهراج شرقا وزرقت جنوبا، وتمتد بحرا على مدى عشرة كيلومترات، كما لى عمقها بالداخل تمتد على مدى عشرين كيلومترا تقريبا. وتتألف من ثلاثة أقسام وهي مصطاسة بالشمال، إشاويين بالعرب وأيت علي بالشرق. ويشكل هذان القسمان الأخيرين جنوب القبيلة.

²⁴ - من الكلمة العربية جميل التي تحولت فيها الهم إلى كاف.

إن سكان نزيلارث لم يفعلوا في منع الدرويش من زيارة بني كميل. وقد بذلوا كل جهودهم في إقناعه بأن هذه القبيلة توجد في حالة حرب مع متيوة، إلا أن محاولتهم باءت بالفشل. والشئ الوحيد الذي كان يثق محمد بن الطيب، هو الجلالة المتيوية التي كان يرتكبها، إذ كان لديه إحساس بأن هذا القلب الوحيد الذي يمتلكه، قد يؤثر نه القلائد عند جيران المتيويين.

وعند الفجر، سيعاد نزيلارث متجها صوب الشمال الشرقي، وقد كانت كل المنطقة من جانبي الحدود بين متيوة وبني كميل مقفرة. لقد هجر السكان منازلهم هربا من ويلات الحرب. وكانت المحاصيل المهجورة تنعفن في عين المكان والفواكه الطازجة ملقاة على الأرض وبجانب المنازل الفارغة كانت خلايا التحل ملينة بالحسل وتتساقط منها على الشب خيوط ذهبية سيغمس الدرويش أصابعه بداخلها لمرات عديدة. وكانت الحيوانات المتوحشة قد استقرت بهذه الضيقات المهجورة، حيث أن بذات أوى والتمالب والخنازير كانت تسير الألفة بالطمأنان وتقتل المنزل دون أن تعير اهتماما لرحلتنا الذي كان يحاول أن يحفيها بصراخه، وهو نفسه غير مطمئن لردود أفعاله. وعند الظهر سرى فوق تل، بلدة صغيرة مبنية على جانب منحدر باتجاه الشمال الشرقي. وأسطل المنحدر هناك حدير. نتجت عنه بركة مليئة بالطيور العابرة. وكانت أشجار الفواكه ممتدة على مدى البصر. وأمامه، على بعد كيلومترين، كان البحر الذي لم يره الدرويش إلا مرتين أو ثلاث مرات عبر ممرات الصبار، يفتح بشكل شامع على الشمال. ولم تكن البلدة الصغيرة سوى مصطبة، عاصمة بني كميل. وميتجه محمد رأسا إلى الأمام، نارا عبر التل. وبعد مدة خطوة، سيسقط في كمين نصبه له ما بين 100 و 200 فردا، لاسين جلايات سوداء. وكان هؤلاء الأشخاص مستلقين على المشب، تمت ظل الأشجار ومسلحين ببنادق إنجليزية. وفوق رؤوسهم العارية تلماء، كانت توجد جهة اليمن، خصلة من الشعر مقسمة إلى ثلاث ضفائر طويلة بشكل عجيب. وحول جنر هذه الخصلة المسماة كطاية، كان جلد لشعر مخلوقا بعناية.

وعند رؤيتهم للدرويش بجلايته المتيوية ذات الخطوط البيضاء والسوداء، صاحوا بالعربية: "إيه متيوي، فلنقتله". ولانقضوا على الرحلة، بحيث صوب أول المقتربين منه، بندقيته إلى صدره. عندئذ سيقول الدرويش: "لا بأس". وعلى الفور سيرفع الرجل فومة بندقيته. فهتافا للكلمتان السحريتان عربيتان وتعنيان بأنه لا بأس هناك. وفي الريف، خصوصا لدى بني كميل فإن مخاطبا هو: أنا صديق ولا أصمر أي شر. وسيقول الرجل لأصدقائه الذين اتفقوا به: "إيه صديق، فهو ليس من متيوة". وقد أسرع محمد بتأكيد ذلك، معلنا بأنه كل مجرد ضيف على هذه القبيلة. وسيخصصه رؤساء المجموعة لاستطلاق مطول، له علاقة بنوايا أعتقهم والقوى التي يتوفرون عليها قائلين: "قد سمعنا بأن متيوة حلقة غارة متهلجما عما قريب. لكن حدودنا

معروسة بشكل جيد. فحضر، سكان مصطبة نزلها من القسطنطين إلى حدود إشبليين، وهؤلاء يراهم ما تبقى إلى حدود ررقث*. وسيطنتهم الدرويش قاتلا بأن القيقويين الأميين في ديارهم لا يفكرون بنتا في مهاجمتهم. إثر ذلك، سيأوليه أحد الرؤساء قطعة خبز ملينة بالمسل وسيخاطبه قاتلا. " اذهب، ما أنت الآن في أرض مسلمة وليس لديك ما تخشاه. ففيلتنا غنية ومزدهرة وتعجب للزباء. أما أهالي متبوة فهم نصارى ". وسيزرك محمد هؤلاء للمحاربين ليتابع طريقه إلى حين وصوله إلى والد بني كميل. وباستثناء البركة التي تحدثنا عنها، فإنه لم تكن في القدير ولو نظرة ماء واحدة.

هكذا، سيجري محمد مجرى المهر الصغرى الذي رسمه الشلال، ليصل بعد ذلك إلى بلدة مصطبة المبنية على سفينة اليمنى عبر أن جلابته المتبوية ستثير فصول الرجال والنساء والأطفال الذين سيجتمعون حوله وسيحاصونه قائلين: " إنه سيوي ". لكن رحلتنا سيمرر الخطى باتجاه المسجد متفادا هيئة الدرويش المخبول إلى حد ما وسيستند عن الحشد الذي اعتقد بأنه رجل مجنون. وسطوم أن المجانين يحظون لدى كل المسلمين بعطف كبير وباحترام عميق، لأن جنونهم لا يؤدي أحدا على العموم.

فالإنسان على الفحول الذي يتميز مصدرا للعديد من القوبات الجسدية الحقة علينا، غير معروف في القرية.

وبعد تخلصه من الفضوليين الذين تحول عدائهم فجأة إلى احترام، دخل الدرويش المسجد. وكان حوالي 50 طالبا من كل الأصناف، يجلسون لفراصاء على حصائر، ويتلون آيات قرآنية بأعلى صوته. وسيقوم ثلث منهم بتقديم سلة ملينة بخبز الشحير، كلت متبوة بالحائط إلى الرحالة الذي كان قد انزوى بزاوية بالمسجد، فور دخوله. كما سيحضر طلبة آخرون لخدمة موسوعة بصحور من الطين الذي تم تلميمه، وتتضمن الفجاج والبيض والعمل والريدة. ولم يحصل أي تبادل للكلمات، بل سيزرك الدرويش أمام طعامه، يأكله كما يشاء. وبعد فتحه من الأكل، طلب منه إخبار الحاضرين، من أي بلد هو. وسيملن محمد بأنه ريفي، دون الإشارة إلى موطنه الأصلي. ولأنه رغب في تغيير جلابته، فلي الطلبة سيقول له على الفور بجلابته بلون أبيض وهو اللون المميز للصحوف. وبذلك سيتغلى الدرويش عن جلابته المتبوية مصدر كل مشاكله، وبعد أن حطى بالفتنة والمبيت بالمسجد، سيتفرغ لمعاينة بلدة مصطبة على مهل. وهذه البلدة تستحق اسم المدينة، لأنها في حجم مدينة مستعالم. لكن يا لها من مدينة فقيرة. فالدرويش نفسه اثناس منها كثيرا، وهذا أقل ما يقال عنها. تصوروا معي، أزقة ملتوية ملينة بزيل الأسدة وبالقنورات وبهايتها بالوعت ملينة بهول الحيوانات. وتلمو شجيرات قتي

الوحشي وبعض التبتات المعمرة وسط التبتات البشرية، مما يجعل حركة المرور صعبة. أما الحيوانات الميتة، فتتخفن تحت أشعة الشمس وتزيد الجو ثقلة. ورغم ذلك، فإن جو المدينة ليس مضرا بالصحة، لأن هواء البحر يهب بانتظام من العائشة صباحا إلى الساعة مساء، حاملا معه الروائح النقية والفضيحة.

وتوجد بمصطبة طائفة يهودية. وهذه أول مرة، منذ مغادرتنا لتاغزوت تلقي فيها بمنكر عن هذا القرق القبيح الذي تمكن من التغلغل في كل المناطق، بما في ذلك عند أحد أعدائه، أي المسلمين. والغريب في الأمر، أن يهود مصطبة ليسوا مجتمعين داخل "الملاح"، كما هو الحال في المدن المغربية الأخرى؛ إذ أن مساكنهم لا تختلف بتاتا عن مساكن الرعيين. فهي منتشرة في كل مكان، لكنها في ملكية المسلمين، لأنه لا يمكن لليهودي أن يملك شبرا من الأرض ولا مسكنا في الريف يرمته. فهو يقتصر على تخزين الأموال باستمرار وعلى جمع قطع الذهب التي يجمعها تحت الأرض، دون أن يستفيد منها كما يستفيد من أمواله في البلدان التي يسود فيها الربا. فهو لم يعمل قط على اختراق الساكنة المغربية الأكثر تعصبا في العالم، بل وجد السبيل لكي يكون ممعيا من طرفها أيضا. وقد استعمل لذلك وسيلة بالغة الذكاء، حيث جعل من نفسه يهودي المسلم. وعطى أن يكون يهودي المسلم، هو أن يكون رهن إشارة هذا الأخير جندا وثروة. وهي حلة وسطى بين العبودية والتهمة *vasselage*، تعطي للسيد الحق في صرب تابعه يهودي بل وقتله أحيانا دون تعرض للتعذيب في حلة السرقفة والتمرد والخيانة وشنم القبول وسحاولة اختصاب أو إهراء مسلمة. ويمكنه أن يشمله وأن يمتنه من الزواج ولأن يجره على الطلاق وأن يعرض عليه زوجة ما وأن يطمع في ابنته أو زوجته، وأخيرا أن يرسله في رحلة قضاء أغراضه الخاصة.

وكمريض من ذلك، فإن لليهودي الحق في أن يكون ممعيا من طرف سيده الذي يجب عليه الدفاع عن ثروته وأسرته وشخص تابعه، ولو أدى حيلته ثمنا لذلك. ونحن نندعش حينما نجد هؤلاء اليهود، في تلك المناطق الباقية من المغرب، وقد نجحوا في العيش وسط سكان مسلمين قساة بإطلاق، لا يحتلون مجيئ أي غريب إلى ديارهم، حتى ولو كان مسلما منهم؛ ومع ذلك، فهم يتعاملون هؤلاء الساميين *sémites* العبيدين والمكرين. ويجب كتابة مجلد لتفصيل القول في الاحتراق الذي يتلقاه اليهودي المغربي حيث توجه إليه لأذع الشتم والقطع الإهانات، بشكل دائم، دون أن يجر لذلك اهتماما. ويوجد الأطفال المسلمون لذة سادية في فرار الصلابة الإسرائيلية المتحصن الذين يتعرضون للرشق بالحجارة من طرفهم. ورغم أن أباهم يمنعونهم بشدة من القيام بهذا اللعب الممسم، إلا أنهم يحدون إلى فطنتهم حالما ينجب هؤلاء الأباء.

واليهودي مطالب دوماً بل يدعو المسلم " يا سيدي "، وهو مجبر على خلق نظيره والمشي ملحقها وبسرعة، عندما يمر أمام المسجد.

وتتضمن مدينة مصطبة خمسة مساجد، كما يتوافر مسجد واحد من بيئها على صومعة مرتفعة هي بمثابة مرصد للمراقبة، يطل على البحر الأبيض المتوسط وعلى خليج سيدي الحاج سعيد الذي يقع على بعد مئات الأمتار بالشمال الغربي. ويوجد فوق القبرج، منطع عتيق، صدين ونو حجم كبير، وجهت فوهته صوب البحر. طبعاً، فإن أكثر السكان سناً، لم يحق لهم أن سموا صوته، لكنهم يتفخرون به مع ذلك، بحيث أن طلائع قري مدرعات لا تساوي شيئاً بالنسبة إليهم، أمام وجود هذا الوحش الحديدي.

ويستخدم خليج سيدي الحاج سعيد كميناء بمصطبة، وهو يستقبل مياه واد بني كميل في فصل الشتاء، وهذا السيل الجارف يجف تماماً في الصيف. وعلى جانب البحر، بمحاذاة الموج، يلتصب قبر الولي الذي منح اسمه إلى الخليج. ويتعرض هذا القديس الذي تعلوه قبة جميلة إلى حد ما، لضربات الأمواج العنيفة أثناء فترات العواصف القوية.

إن ضاحية مصطبة هي عبارة عن سهل مسطح بأشجار الفواكه والبنّين الوحشي. ويمتلك أهالي ليت على ويطاوين جبلاً غابوية صغيرة، ولأسف فإن الصبار ينتشر كثيراً هناك. كما نجد بالقبيلة الكثير من أشجار البنّين والعصب. ويتم بالأساس زرع الشجر والفول والعدس. أما الفصح فهو غير مطلوب بدراسة أنه يصعب من يتناوله، في حين أن الشجر يمنح لقوة والجرأة لمستهلكه.. وعلى الحدود الجنوبية، يصنع هلام الحطب بكثرة. وفي كل مكان، توجد الساحر والأبقار والبهائم والحصير والذيل من الجياد. ولا تجد القبيلة سوى 3 آلاف رجل، لكنها غالباً ما تنحصر على مئونة التي توجد معها في حالة نراع مستمر. ولهجتها هي تامازيغت، غير أن العربية تهيمن بمصطبة وبعض القرى وسط القبيلة. والتفسير هذا لوضع المثير، يزعم الاماريون بأن أهالي بني كميل وبني بوفراج، هم حفدة الموريسكيين الأندلسيين، ولذلك سارقت العربية تستخدم في بعض بلدات هاتين القبيلتين؛ ويدعي سكان هذه البلدات بنوع من الصخرية " مكرمين قرأس "، أي أصحاب الرؤوس المدورة والمحدودة.

ولا يعترف أهالي بني كميل بسلطة السلطان، فهم يميلون ويقلدون القايّد بسهولة مذهبة. ويحدث أحياناً أن يخلوا بدون رئيس لمدة سنوات، آنذاك، تكون الجماعة هي المسؤولة عن تدبير شؤون القبيلة. وهم مسلمون غير ورعين، إذ لا يؤدون الصلاة أبداً ويكتفون بصوم رمضان فقط. وقد ولعت للترويض مغامرة عجيبة بمصطبة. ذلك أنه كان موجوداً بالمصدفة بجوار منزل يهودي اسمه مشيشو. وفي تلك اللحظة فتحت يهودية في سن الكهولة الباب، وعند رؤيتها

لحمده، صلحت باتجاه زوجها: " يوجد يهودي بالباب وأعتقد بأنه حاكم ". وبالفعل، فقد كس الدرويش بوجه المسوح المحاط بخصلات طويلة على صدره، يشبه حاكما حقيقيا. وسيلاتي مشيشو بنفسه إلى باب الدار قائلا بالحرلم: " لسلام عليكم يا أهل الإسلام " ²⁵ وسجيبه الدرويش قدي كان متوقفا بأن قصد كلامه أن يفهم، قائلا: " السلام عليك " (أي لنسقط عليك الحجارة. وبمعنى آخر تكن عرضة للرحم). وقد نطق بكلمة سلام (حور) سريعا وليس بكلمة سلام. وذلك كما اقتضت عادة بعض العرب في استعمال هذه الكلمة، حينما يحاطبون كفرة غير مسلمين. بالعربية.

وسلاحظ الحاكم المرحوم فور دخوله إلى المنزل، بأن هذا الأخير ليس لطيف ولا لوسح من مسلمين المسلمين. وهو مصبوغ من الداخل بطريقة غريبة. فالحيطان ملونة وأشكال متنوعة. من اللون الوردي إلى القرمزي المتوهج، مروراً باللون عديدة. وسجل الدرويش فوق حصيرة، مع كل أفراد الأسرة (الرجل والمرأة والأطفال) حيث سيتم تناول كمكة الصغروط بالمثل. وعندما سئل محمد، من أي بلد هو قائم، أجاب بأن يهود أصيلا يفخرون به كسواطن وكأخ لهم في القلة. وسيتم الإلحاح عليه بالاستقرار بمصطبة لتعليم أبناء الجالية الإسرائيلية. إلا أنه سيترن بأنه ملزم بالذهاب إلى أصيلا لولا، واستشارة الطقفة اليهودية بهلته المدينة. وسيطرح عليه سؤال أخير. يتعلق بمعرفة ما إذا كان ينتمي إلى قبيلة بنيامين أو يهودا، ولر يتردد الرحلة في الإجابة بأنه من قبيلة يهودا. لقد كان يعرف بل هذه الأخيرة غير معقدة بشكل كاف في المغرب، في حين أن أبناء بنيامين كثيرون في هذا البلد. ولم تتوقف المضيفة القورعة والمسرورة باستقبالها حاكما في منزلها، وهو شرف كبير يرغب فيه كل اليهود الصغرية، عز تقبل ثياب ولأدي الناعية الطوب. لقد أحاطته بحماية غائقة وأثبتته أكلا، مواظدة عليه عدم إلهاله على الطعام وستة ياه إن كان طبعها قد أعجبه. وقالت له في الأخير: " يسدي، إن أنت بقوت مصدا، فلن لفتي ستكون خادمك وزوجتك ". وسجيب الدرويش بالقتضاب: " سلقى ". ولأن مشيشو كان مضطرا للخروج، فقد اختار حاجة للمساء. ورغم صفته كحاكم، فلن محمدا لم يرد قتلها بيده، مطلا ذلك بلحد الأسباب. وفي الواقع، لقد كان يخشى أن يفتضح أمره بعمل أخرق تتلر شكوك هؤلاء الناس السريعي التصديق. وعند غروب الشمس، عاد مشيشو إلى المنزل وطلب من الدرويش إقامة الصلاة. غير أن محمدا قدي كان يجهل العبرية سيتخلص من هذه الورطة، بحديثه الجريء عن عادة مزعومة لدى أبناء يهودا، قائلا: " إن أبناء يهودا لا يجب عليهم أن يتزلوا شاعر الصلاة

²⁵ - إن اليهود المخلصين بالعربية، يحولون الحق شجا، وهو ما يبرر كرميتهم. وفي هذه الجملة يجب أن تتفق إسلام بدل " إسلام "

عند الغرباء الذين يستقبلونهم ". ولأن مشيئته كان يجهل عادات قبيلة لا ينتمي إليها، فإنه صدق كلام الرحلة وترأس بنفسه الصلاة. حيث وقف أمام الحائط ووجهه إلى الشرق صوب القدس. ووقف كل أفراد الأسرة ومعهم محمد، خلفه صبا ولحدا، وقطعت الصلاة. ولم ينس الدرويش بأية كلمة وحذر يلاحظ الوضع. وكان صوت اليهودي المنتفض يرتفع ثم يليه صمت طويل. وبينما وكله يد شيئا على ألسنه. وهناك كلمتان تتكرران، تمكن محمد من طيهما وهما: موسى وهارون. وبعد الانتهاء من الصلاة تعشى الجميع وناموا مختلطين فوق الترابية الوحيدة الموجودة بالممرل. وكان الدرويش موجودا ببر طفل ومصيفته القورعة التي لم تتوقف عن شكر الإله، على قيوم المبارك الذي عاشته. ولأن الرحلة غير مهذب بطبعه، فقد أدار لها ظهره هامسا: " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ". وهي عبارة يطلق بها المسلمون عندما يحتق بهم خطر كبير. ويتوسل شك، فقد حقق له الإله دعوته، إذ أن السيدة مشيئته ستعطي في سبات عميق بعد فترة قصيرة. وعت الصباح، وكان قيوم هو الجمعة، قال محمد لمصيفه، بعد تناول الشاي: " تركوني أذهب إلى سنانة لزيارة قبر عسي " ²⁶ وسأبحر بعد ذلك من بادوس إلى أصيلا. وهناك سأطلب من الطائفة اليهودية السماح لي بالمجيئ هنا لتعليم الصغار. غير أنني خجول بإخباركم بأني لا أملك فلما واحدا للإبحار بالمركب ". وسيمحه مشيئته خمسين فريكا، ثم سيغادران معا الدار، وكانت اليهودية تتبعهما وهي تكي. وكل جمعة، كان علم أحضر يزفر فوق صومعة المسجد الكبير. ولأن الرحلة أراد أن يعرف آراء يهود القريف حول المسلمين ودينتهم، فإنه سيشير بيده صوب العلم متسلا: " ما شأى هذه الرؤية؟ " وسيجيبه يهودي: " إنها تشير إلى أن يوم الجمعة هو يوم حدك بالنسبة للمسلمين " وقد كان يكره قتلظ بكلمة " جمعة ". كما أن منظر العلم والمسجد كان يثير أعصابه، لذلك فقد أدار ظهره وهو يندم: " إن المسلمين يخالفون أوامر الله.. فقد كان عليهم أن يرتاحوا يوم السبت كما أمر بذلك الرب الخالد، غير أنهم اختاروا الجمعة كي لا يشتغلوا .. " واستمر هذا النقاش طويلا حول نفس الموضوع. وهو ما أظهر للدرويش كيف أن اليهودي المغربي يمقت كل ما ليس بإسرائيلي. وسينقل رحالنا فيما بعد إلى دندبو وصفرو وسط الغيتوهات، لدرسا عن قرب هذه الكائنات العجيبة التي تقاوم سوء الذنية العالمي، منذ قرون.

هكذا وبعد توديع مقصده لمصيفه، سيصعد محمد والد بني كميل ثانية، وسيهود إلى وهران لقضاء ليلته، وهي قرية من خمسين منزلا، تقع جنوب مدينة مصطفىة على النخيل الذي يحمل نفس الاسم. ²⁷

²⁶ - انظر رواية بقيرة والتفاصيل حول المعبرة اليهودية الوحيدة في القريف.

²⁷ - « Les bni isguen (Mzab) », p.40, Article oran, in 8, Oran, 1895

القرى الرئيسية ببني كميل

- مصطبة (نظر أعلاه)،
- وهران (الإظهار)، التسمية أمازيغية (نظر أعلاه)،
- سيدي بوزيد، جنوب وهران على واد بني كميل، 100 منزل،
- إشلوين، جنوب سيدي بوزيد على واد بني كميل، 100 منزل،
- تامرطاست، جنوب إشلوين، 10 منزل.

لقوى العسكرية: 3 آلاف من المشاة؛ عدد السكان المحتمل 15 ألف نسمة. المسالك خاصة بالجمال، وهناك سهل بالشمال وتلال صغيرة غابوية بالجنوب. التعليم الابتدائي غير منتشر بما فيه الكفاية. وهناك بالقبيلة حوالي خمسين قرية صغيرة لم أتمكن من التعرف عليها.

قبيلة زركث (التسمية عربية أمازيغية)

وتارجيست (المتلجة) (التسمية أمازيغية)

لبث الدويش شهرا واحدا ببني كميل. وفي صبيحة أحد الأيام الخريفية الجميلة، غادر قرية إشلوين متوجها جنوبا نحو سوق السبت، وهو سوق كبير بأحد أقسام زركث، يدعى منطقة علال. وتطلعا من إشلوين ستمصبح المنطقة راتعة، إذ أن العديد من قرى التي لا تفصل بينهما سوى مسافة قصيرة، تحتفى وراء الخضرة. وفي كل مكان تجد الحدائق والبساتين التي تقي أشجارها من أشعة الشمس الحارقة. وتجري ديان من الماء الفبارد والصالبي في كل مكان. كما أن الأرض المسقية بشكل وفير، تسمح بهروز مروج صغيرة منطاة بالأزهار. وتستقر آلاف الطيور فوق أغصان الأشجار حيث تختلط أصواتها العادة بصخب إشارات للصغيرة المتواجدة بكثرة في هذه المنطقة الغنية وتشكل أشجار الجوز والسب وقلوط وقلور والسفرجل والشمش والقمح والإجاص والأرز والأس والقرمل والخطى والغروب والقوق والحصى، القاسم المشترك للنباتات المشجرة في كل المنطقة المتواجدة بالجبال الشاهقة الجنوبية للريف. وتقع قبيلة زركث داخل مرتفعات جبل الأرز الذي ترتفع أعلى قمته وسط لقييلة تقريبا في قسم زركث بالذات. إن مسطر أمام لهذه السلسلة الجبلية يتهدى كلما ابتعدنا من بني كميل، أي من البحر. وتمتد سلاسل

جبلية صغيرة على كل الجهات، مشكلة العديد من قوديان العميقة، المأهولة بالسكان والمرروعة بشكل جيد، كما هو الأمر في القبائل. وتجد بعض القرى المعلقة على القمم أو المنحدرات على جنبات هذه السلاسل الجبلية. وأعلى قمة بجبل الأرز هي من الطول، بحيث تحتفظ بالثلج على مدار السنة، بما في ذلك خلال الصيف، ويقرب علوها من علو جبال جرجورا.

وعند الغروب، دخل الدرويش إلى قرية علال، وهي قرية كبيرة من حوالي 100 منزل، معلقة على جنبات أحد المرتفعات المحيطة لجبل الأرز.

وتحتوي هذه المنطقة تقريباً، تحت الأشجار. وكان سكان علال منهمكين في تجميع الفين والفلفل والطماطم، على شبكة معدنية مغطاة بأوراق القسق واللاز. وبعد أن استقر بالمسجد، حيث استقبل بحفاوة لم يطل محمد كالعامة عن موطنه الأصلي، بل اكتفى بالإجابة على الأسئلة المطروحة عليه بهذا الصند قائلًا: " من هنا وأما " (من هنا، ذلك كل ما في الأمر) وهي صيغة سحرية، ميرتها أنها تشجع حصول كل المعالجة. ومرد هذا التعمق هو الحقد القائم بين القبائل، بل وبين القرى. وهو مقبول في كل المغرب، إذ لا واحد من الأهالي يعلن عن (اسمه الحقيقي أو اسم قبيلته. وحتى في الجزر التي لا يمكن للمغاربة أن يخشوا فيها أحد، فإنهم يحيطون أنفسهم بهالة من النموذج، بفعل عائلتهم القديمة. فبعد مرور أكثر من سنة على استقراره بوهرا، كان الدرويش بالنسبة لإخوته في الملة بقرية الأهلي، مجهولاً مثلما كان الحال في أول يوم من وصوله. فأمام السوسيين كان يقول بأنه من سوس، ولما التريبيين كان يقول بأنه ريفي، وسيفتخر أمام أهل فاس بكونه فاسي. كما سيحتره زوار القبائل الكبرى واحداً منهم، حيث سيدعونه " ولد البلاد ". فمعرفة العميقة بالشمال الغربي لإفريقيا سمحت له بالانتساب إلى مختلف الأصول. ومع ذلك، فقد التفتيح أمره في إحدى المرات، فحينما دخل إلى مقهى مغربي يجتمع فيه العديد من مواطنيه المرعومين، عامله الزولوا كأخ، غير أن أفراد من سوس احتجوا على ذلك، معتبرين أنه من بلادهم " تمازيغت ". وسيثور الريعيون معتبرين بأنه ولد بالغريف. وأمام هذه الورطة، سيعلن الدرويش بأنه من تونس، وبما أنه يسافر كثيراً، فإنه يعتبر نفسه إينا لكل المناطق التي زارها وسيكون هذا المبرر مقبلاً للجميع. أصف إلى ذلك، أن ميزته كدرويش صاحب بركة، لا تسمح بمواجهته على هذا الأمر البسيط.

وبعداً وصوله إلى قرية علال، فتحق محمد بهجاعة من الطلبة المتوجهين إلى سوق السبت المسمى أيضاً سوق تارجيست، رغم أنه يوجد في أراضي زرقث. وهذا السوق هام جداً، فهو مكان التقاء وتبادل بين أهالي قبائل عديدة. وقد جرت العادة، قبل دخول السوق، أن يقوم الجميع بزيارة لقبر ولي المنطقة سيدي بوشين. والخصرير المقام عند مدخل السوق هو عبارة عن

بدلة ضخمة مربعة ومتوجة بقبة كبيرة، تلمع بلامتها المصنوعة من الخرف البراق والمتعدد الألوان. تحت أشعة الشمس. وفي كل يوم سبت، يكون لقاء الصريح معلوماً عن آخره حيث يلتقي أهالي زركش وتارحيس وبني يعلت وبني ورياعل وبني مزدوي، مع قبيلة بني عياش ومروسة وبني بشر. ويشير الأهالي بلباسهم وخصوصاً بأسلحتهم. فالريفيون يملكون ببندق ورصاصات من صنع إنجليزي وإسباني، أما قبيلة فهم مملعون ببندق مغربية مصنوعة بتاغزوت، للقبيلة الريفية التي تحدثنا عنها من قبل. وتزاحم الحشود داخل الصريح متهاقطة على مراد قولي الذي يستقبل أعداداً هائلة من هؤلاء الأشخاص الخشني الطباع. وتوسع كل البنادق على الأرض، حيث توجه فوهتها صوب الحائط ويتم تجميعها حسب كل قبيلة. وتعتبر جريمة قتل المرتكبة داخل هذا المقام الذي لا تنتهك حرمة، بمثابة عمل تدلّسي. وسيقوم الزوار، وخصوصاً الحافظون للقرآن، بتلاوة السورة 67 التي تنادي بـ « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » (يقصد موليراس هنا، سورة الملك).

وحول الصريح يقوم المحسنون والورعون ببيع الخراف والماعز والدجاج ويهبطون سحواً ضخمة من الكسكس؛ ويقدم كل ذلك إلى حارس الصريح الذي يضطر بدوره إلى إبطام الزوار الذين يلتقي بعضهم للتبرك ويلتقي أغلبهم لملاً بطنه مجاناً. ويجمع المقدم (حارس الصريح)، إضافة إلى ذلك، المال الذي يضعه الزوار بصندوق مثبت بجانب القبر. ولقد تثير هذه العطايات حسد الحاسدين، لو ظل المقدم يقوم بهذه المهمة المربحة ولم يتم تبديله كل سنة.

إن الهضبة الشاسعة التي يقام عليها السوق، يمكنها بالكاد أن تتسع للخيام ولذا تكون الباعة وللحيوانات الحيدة والحوالي 15 إلى 20 ألف رجل، يجتمعون عادة كل سبت. وأحياناً ما تحدث نزاعات ومعارك بالبنادق، بين أفراد مختلف القبائل المتناحرة والذين يجنون أنفسهم وجهاً لوجه. وجميع هؤلاء الزوار الأتداء، يتكون ويعودون على الأقدام أو على ظهر البغال. وناثراً ما نجد بصمة جراد وسط هذه الحشود. ولأن المغرب هو بلد الأئمة الرخيصة، فإننا لن ندهش عندما نرى بسوق السبت مثلاً، أن قنطار الشعير يساوي فرنكين ولى معزة تساوي فرنكين وخمسين سنتيماً وأن ثوراً سمينا ثمنه 25 فرنكا وثمن دجاجة كبيرة 20 سنتيماً وأن 24 بيضة تباع بـ 24 سنتيماً إلخ...

ولا توجد أية امرأة بسوق السبت. ففي الريف، وباستثناء قلعة والقبائل الشرقية، يكون دخول الأسواق مخصوصاً للرجال وممنوعاً على النساء. وبالمقابل، فإن للنساء أسواقهن الخاصة بهن، وهي ممنوعة منعا كلياً على الرجال.

ولقاء حضور الدرويش وببعض كل سوق السبت في لوج حركته، تلتاح أفراد من بني وريغل وبني مزوي. وسرع لئلا بإجلاء المكان، حيث بدأت البنادق الإنجليزية والإسبانية تفعل فعلها، مما أدى إلى سقوط عشرة من المتنازعين. وعلى مسافة محترمة من ساحة المعركة، كان لئلا يتصمون دونما أي تأثير بالطلقات القنارية وبالصرخات. وعند انتهاء المعركة، أخذت كل قبيلة مكانها الخاص بها. وسبقني محمد ليلته تحت قمة الضريح، رفقة الحديد من الأمازيغيين؛ حيث سبقهم لهم الحارس الذي يوجد مسكنه على مقربة من الضريح، طعنا وأثرا يتصمن الكسكس واللحم والقواكه. وقد اتفق الجميع على أن يوم السوق كان هائلا أكثر مما هو معروف، إذ في العادة، كانت تنشب أربع إلى خمس معارك، يسقط على إثرها ما بين 50 و 60 من القتلى.

وتشمل ررقت على أربعة أقسام وهي: أعماس (التسمية عربية أمازيغية وتعني المكان المحاصر وسط الجبال)، زرقت، علال وبنحكم. وهذا الاسم الأخيران عربيان؛ ويعني الأول من يسقي مرة ثانية؛ أما الثاني فهو اختصار لكلمة ابن الحكم. ولوست تارجيست بكبير من الأقسام المذكورة. ورغم أنها قبيلة قائمة بذاتها، إلا أنها تستير قسما من أقسام زرقت التي تربطها بها رولبط متينة. فهاتان القبيلتان المحاطتان بالقبائل الريفية الأخرى، تجدان 4 آلاف من المشاة.

ويتمتع الأهالي في كل مرتفعات جبل الأرض بمناخ معتدل حتى في الصيف وتبدأ الأمطار في الهطول عند نهاية أكتوبر وتتوقف في شهر ماي وتكون مصحوبة بالثلوج والبرد grêle في أعلى القمم. والأوبئة نادرة في هذه المنطقة الجميلة؛ وكان من الممكن أن يحمل السكان الأعداء إلى آخر مراحل الشيخوخة، لو لم تكن الضماجر والرصاصات توقف مسار حياتهم في وقت مبكر. ومع ذلك، يمكن أن نلتقي بعض المسنين الذين بلغوا الثمانين والذين نجوا من كمائن أعدائهم بمهجرة وفي كل مكان، يتم استقبال الغرباء المسلمين بحفاوة. ولا ينتشر التعليم القرآني، أي الأولي، إلا بشكل ضئيل. وتشير الخرائط إلى وجود أماكن تعج بمناجم الذهب والفضة والرصاص والفضة والكبريت والتي لا يستغلها أحد. ويوجد منبع من المنابع الهامة لنهر ورغة إلى الجنوب تقريبا من رابوة سيدي عبد الكريم. كما تشير بعض الأساطير إلى أن أهالي ررقت وتارجيست من أصل فرنسي. فهل يرجع ذلك إلى كون هذه المنطقة للتطيرة، شبيهة بمناطقنا الأيبية الجميلة؟

القرى الرئيسية بزرق وتارجيست

- علال، 100 منزل.

- سيدي بوشمين، 100 منزل.

- زاوية سيدي عبد الكريم، 50 منزلا.

وتوجد بالقبيلتين حوالي 100 من القرى الصغيرة. وكان قائد المنطقة في السنين الأخيرة هو شريف يسمى عبد الكريم الوزاني. غير أن سلطته الضعيفة والروحية لم تكن ذات أهمية. القرى المسكونة: 4 آلاف من المشاة: عدد السكان المحتمل 20 ألف نسمة. وتعتبر زرق بلدة الجبال الشائعة لكن القبيلة الانحدار. أما تارجيست فهي بلدة الجبال المتوسطة الطول، والمتوفرة على مسالك عديدة.

قبيلة بني يوفراج

بعد عشرين يوما قصاها في اكتشاف زرق وتارجيست، تابع الدرويش طريقه نحو الشمال. وسيرجع إلى بني كميل حيث سبق للأهالي أن تعرفوا عليه. وبمصطبة انتهى به رملاؤه بالمسجد وسهوه عن الذهاب إلى بني يوفراج، فالتفت إليه من المحتمل أن يسلب من أمتعته ول يقتل بجبل بوخشخاش الذي يفصل بين القبيلتين. وسيحكون له أشياء عظيمة حول ما يقوم به فاضمو الطريق المتحوصون داخل منارات هذا الجبل الذي ينتصب كحائط بين بني يوفراج وبني كميل، سندا على خط مستقيم من الجنوب إلى الشمال حتى البحر، بحيث تنغمس بقايا مرتفعاته في البحر الأبيض المتوسط، غير بعيد عن مرفأ سيدي الحاج سعيد ومع تلك، فإن الدرويش سيفقد مصطبة وسيوجه صوب الشرق، عبر مسلك للبالغ مواز لشاطئ البحر وغير بعيد عنه. وكل يسمع صوت الأمواج التي ترتطم بالرمل، بالرغم من أنه كان يسير في العربة ولا يستطيع رؤية البحر إلا من خلال المعجلات التي يمر منها. ويمكن القول بأن صنادع بوخشخاش، وهم مجموعة من الأوغاد المنتهين إلى عدة قبائل ريفية، كانوا منشغلين في مكان آخر، لأن محمدا لم يلتق أي واحد منهم في طريقه. ومن أعلى قمة هذا الجبل الرحيب، سيتمكن من رؤية سيل ملو بالقرى ويتعلق الأمر ببلدة قوبيمة. وسيسرع الفعلي تركا وراءه جبل بوخشخاش المرعب الذي يسميه أمازيغيو المنطقة " الجبل الذي يتم اقتسام المؤونة في طريقه - adrar adeg bet'tour azouin " مع قطاع الطرق طبعا.

وسمى بعد ذلك إلى بلدة قوبية (القبة الصغيرة) والمتواجدة على بعد مئات الأمتار من البحر ومن خليج ألوش الصغير (اسم للبلد الأديون المنتمى إلى صنف النباتات المركبة). وعلى مسافة قريبة من الساحل، تقع جزيرة اللش، وهي عبارة عن صخرة مكسوة بالصبار. وأمامها على الشاطئ، بني مسجد كبير، يستخدم كمكان للمراقبة من طرف مئات من الربيعين المدججين بالسلاح.

وتعد قرية أوكتي (السهل) الكبيرة، داخل الأراضي، الموجودة جنوب قوبية، وهي مكسوة بغطاء أخضر، حيث أن صومعة المسجد تتجاوز بقليل الأشجار العالية وتتضمن قبيلة بني بوفراح ثلاثة أقسام وهي: قوبية بالشمال الغربي، أوكتي بالشمال الشرقي والربع القوقاني (بمعنى أن اسمه مجهول) بالجنوب. وكل المنطقة مكسوة بمروج رائعة وشاسعة تتخللها بساتين مزروعة بشكل جيد، توجد بها أشجار الفواكه المتنوعة. وهناك مزارع مائية وفرة تسمى البلدة التي هي عبارة عن سهل ممتد الأطراف. وفي كل مكان يزرع الشعير والبطاطس والخرطال والفول والكمب. كما توجد الأبقار والماعز والبهائم بكثرة.

وبالقري، هناك تهافت على حفظ القرآن، وقد أصبحت اللغة العربية التي كانت مقصورة على بعض المتحلقين، منتشرة بشكل كبير، وهي تسير نحو الطول محل الأمازيغية. وعلى عكس العادة المعممة لدى الربيعين والمنتمين في خلق الوجه، فإن بني بوفراح يمتثلون لحاحم في القلوب ويتجهلون برؤوس عارية ومحلولة، إلا من القطاية التي سبق أن تحدثنا عنها. وليس الرجال جلابة سوداء، وهم لئام شجعان وكرماء وميالون إلى التحصيل الدراسي بشكل كبير. وتعد قبيلتهم على مدى عشرين كيلومترا تقريبا (نصف يوم مشيا) من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب.

القرى الرئيسية ببني بوفراح

- قوبية، 200 منزل؛
 - أوكتي، 200 منزل؛
 - سيدي علي أوشعيب، 300 منزل.
- وهناك أيضا حوالي أربعين قرية متفرقة هنا وهناك بدائرتي أوكتي والربع القوقاني والربع إلى خمس قرى فقط بقوبية
- القوى العسكرية، 3 آلاف من المشاة، المنطقة سهلية تماما. عدد السكان المحتمل 15 ألف نسمة.

قبيلة بني يعلفت

(المعسكون بالخنفاق) ، (التسمية عربية وأمازيغية)

تنتد هذه القبيلة على مدى عشرين كيلومترا من الشمال إلى الجنوب، وعشرة كيلومترات من الشرق إلى الغرب. وهي محافظة شمالا بالبحر الأبيض المتوسط وغربا ببني بوفراج وشرقا ببقوة وجوبا بررقت وتارجيست. وتتألف من ثلاثة أقسام وهي: سادة (المسند أو الطجا) (التسمية عربية وأمازيغية)²⁸ وبني محمد وأوفاس، وهذان القسمان الأخيران يشكلان سلسلة من التلال الصغيرة الممتدة من الشمال إلى الجنوب؛ أما السادة فهي عبارة عن سهل، وهي مدينة حقيقية تشمل ما بين 700 إلى 800 منزل وتسود فيها اللغة العربية، في حين تهيمن الأمازيغية في القسمين الآخرين. ويلوث ولد باديس المليء بالنظى والمحاط بالبرك ذات المياه الأسنة، المنطقة، ويكون سببا في انتشار الحمى. ومع ذلك، فإن الأرض تكون خصبة في الأماكن التي لا يتولد فيها شجيرات التين الوحشي، إذ نجد حقول القول والشعير وبسبب المواشي كالخراف والأبقار وأيضا الغنال.

وتقدم قبيلتنا ببقوة وبني يعلفت، يوما وبالتناوب، عشرة حراس مكلفين بمراقبة حركات وتمركات الإسبانيين الجائمين على صخرتهم المسماة Peñon de Velez. ويمنع على هؤلاء الأوروبيين وطأ التابسة بأقدامهم. وبالمقابل، فإن الزبغيين بإمكانهم الذهاب إلى Peñon المسمى عندهم جزيرة باديس، حيث يشترون كل ما يعرض هناك. وهم ملزمون بالإبحار صوبها دور سلاح، إذ يتكون بدافعهم بمقر الحراسة الزبغى الموجود على أرضهم. ويبلغ عدد الأمازيغيين للإسبان درجة يرفضون معها بيع الأطعمة والمياه لأعدائهم ولو كان ورثها ذهبيا. وفي أحد الأيام قرر محمد زيلة باديس وألحمر رفقة أربعة أو خمسة طلاب من بني يعلفت، بقارب يقوده أربعة جذاقيين. وقد أعطي كصيف، من إداة العشر سنتيمات اللازمة للعبور إلى الجزيرة. وغير بعيد عن الشاطئ، كانت تتراءى صخرة باديس الجرداء التي تلطمها الأمواج باستمرار.

وبعد نزولهم من المركب، سيتقدم المسلمون الخمسة إلى باب القلعة وسيفحصون لتفتيش دقيق. وبما أنهم لم يكونوا مسلمين، سيسمح لهم بدخول القلعة المحصنة التي توجد بها ألفة ضيقة

²⁸ - هذه الكلمة عربية في الأصل ولكنها تدرجت. وربما كانت سادة أيضا كلمة أمازيغية تعني مخاض barrater

نظر كتابي.

Légendes et contes merveilleux de la grande Kabylie, p.230, et le vers Sond ir'is etc in II, paris, 2^e fascicule, 1894.

ملحمة بالجنود الإسبان وبعض المنازل الخاصة وكباريات ومتاجر وبعض الأشخاص ذوي السمعات المخفية؛ وهذه هي الأمور التي أثارت رحلاتنا أثناء زيارته لهذه الجزيرة؛ هذه الصورة الثانية التي لا توجد فيها حفة من تراب ولا قطرة ماء. فالحمامة تنقلني من إسبانيا المياه والأطعمة، وكان من اللازم جلب الرمال والأحجار لبناء الحصن والمنازل الخاصة. أما داخل القلعة، فليست العلاقة بين الإسبان والريفيين على ما يرام، ذلك أن الأمازيغيين يشكون من غفلة المتحكمين في الجزيرة والذين يتجنبون تعلم ولو كلمة بالعربية أو الأمازيغية. ولحسن الحظ، فإن العديد من الريفيين يتكلمون الإسبانية بطلاقة، بل غلبا ما يذهبون إلى إسبانيا لشراء الأسلحة والأقمشة القطنية والصابون والسكر والشموع إلخ... وإذا ما صنفنا محمد بن الطيب، فإن كل المنتج المعروضة هناك تباع بثمن بخس جدا. والإسبان مصيبون في ذلك، لأنهم بهذه الطريقة سيتحكمون في جزء كبير من التجارة بالمنطقة. ولو كانوا أكثر لطفا وتأنبا في علاقتهم بالأمازيغيين، لكانوا قد حققوا منذ زمن طويل سيطرتهم السياسية والتجارية على الساحل الريفي.

وقد أقام الأمازيغيون مركزا للجمارك وآخر للحراسة على اليابسة، في المكان الذي كنت توجد فيه المدينة الهامة المعروفة في التاريخ تحت اسم بلديس. وتقول رواية محلية أن الإسبان عندما احتلوا الجزيرة شرعوا في تدمير هذه المدينة المشهورة بواسطة المدافع. آنذاك سيؤسس السكار في عمق اليابسة، القرية الكبيرة الحالية، المسماة سنادة وسيمعون النصارى من السيطرة على المدينة المنصورة. وتحكي الأسطورة لوصفا، بأن حصن جزيرة بلديس شيد من طرف الإسبان في ليلة واحدة.

إن أهالي بني بعلت وبقيوة يعتقدون هؤلاء المحتلين الأوروبيين. وكلما وجهوا أنظارهم إلى الجزيرة الملمومة، تنفطوا بالندع الشتائم طائفين من الله أن يعيهم على رمي هؤلاء الكفار الدخلاء. فليس يودون قتلهم أحشائهم، في البحر. وهم لا يطيقون، كما يقولون، أن تظل السفن الأوروبية راسية، في ما يدعو به بتفهم، مرسى بلديس. وإذا ما طال المقام بالسم في هذا المرسى، فإنها قد تتعرض لاطقات بارية من موقع حراسة الأمازيغيين.

وكانت بلديس القديمة عبارة عن مدينة كبيرة. ويمكن أن نعين آثارها المحتفية وسط شجيرات الصبار التي تملأ السهل. وعلى انخفاض لرسى، أقام المسلمون ضريحا مخصصا لسيدى بويقوب، وهو ولي من أولياء القرون الوسطى؛ يحظى بالتقديس في الريف. وتبرز صومعة عقبة داخل هذه الآثار، وسط شجيرات التين القويشي. وقد مكنت خسوف الأرض من إخماء هذا البناء عن أنظار الإسبان الذين حاولوا ملأها دمه بمدافعهم. ولأنهم كانوا مصطربين لإطلاق نيران مدافعهم عشوائيا فإنهم لم يتمكنوا أبدا من إيصال ولو قذيفة واحدة، داخل الضريح

البحري من طرف ظل سبدي بويغروب. والأمازيغيون مقتنعون بأن ولهم أن يسمح لأية قوة خارجية من الاستيلاء على هذه الأرض المقدسة.

ولمست بانيس هي المكان الوحيد بني بطف، الذي لم يبق منه سوى الآثار، فطلى امتداد هذه المنطقة توجد آثار أخرى تشمل على نقوش بحروف غير معروفة لدى سكان البلاد. وحسب ما هو معروف هنا، فإن آثار الماضي عتيقه، تسمى بنيان دقيوس Decius أو القمروود. وقد أكد لي بعضهم أن هذه الآثار عازلت قائمة وهي مزخرفة بنقوش وكتابات ضخمة. ورغم حقنهم غير المبرر على المرحلة الوثنية القديمة، إلا أن الرومانيين لم يفكروا أو لم يريدوا لحسن الحظ، الانشغال بتحصين هذه القبائل الثمينة لعضارة الافرست.

وتوجد باسنادة المقبرة اليهودية الوحيدة في الريف برسمته. وهي بعيدة عن المدينة، على مساحة شاسعة منبسطة، إلى صبح القنبر، بالشواهد الحجرية Pierres Tumulaires التي تم جلبها بنس باعصر من تيطالون (تلول). وهي مليئة بالكتابات العبرية وجاهرة كي توسع على القبور. ويحمل إسرايليو قلعة موانم إلى سنادة ، مسافة ثلاثة أيام مشيا . ويتم ربط قنابوت على ظهر بيل ، ثم ينحرك الموكب الجنائزي مرهوقا بالمغازنية (الجنود النظاميين). ويسير أهل الميت من الذكور في الجنازة على الأقدام بملابس مبررة عن حالة عزلهم الشديد. لكن يصنع عليهم أن يلقوا راحة المسلمين ببوليه وأهلهم.

وبالقسمال، على مرمى يندقية من سنادة، يوجد حصص متين، شيد من طرف السلطان مولاي سليمان (1795 - 1822). وما زال يتوفر على مدافع كان هذا الأمير قد أرسلها إلى الأماكن المعرضة للخطر داخل إسرايلويته. وهذه القلاع المنطقية التي تعود إلى القرن الثامن عشر، لم تعد صالحة منذ مدة. ومع ذلك، فلا زالت هيكلها تهدد مرمى بانيس.

ووسط آثار هذه المدينة القديمة، وعلى رمال القنابون، وحتى تحت ركام أوراق الصبار المنطقة، يمكن لأقدام الإنسان أن تصطدم بكل قسلب المجهورة التي كانت في وقت ما، لقواها لاربة مربعة. ويرقد بعضها الذي يمكن رؤيته تحت الماء، فوق صفور بحرية، كشاهد صامت على كوارث الماضي. وللتعويض عن لامبالاتهم، سيهتم الرومانيون إسباني Peñon de velez بكونهم استأجروا أمازيغيين لساحل، هؤلاء الإخوة المزعمين، كي يثبتوا هذه التقلبات الحديدية القديمة، التي لم تعد صالحة لشيء ، اللهم لمرضها في أحد المتاحف.

ولأن وجود الإسبان يشكل خطرا دائما، فإن تحلقا دفاعيا سيتم عقده بين بقوة وبني بطف وبني بوفراج. وبمقتضاء، فإن جماعة واحدة تكبر القبائل الثلاث، وهي مكونة من عشرين فردا: عشرة من بقوة وخمسة من بني بطف وخمسة من بني بوفراج. وتوزع حقوق الجمارك

المحصلة ببايس على قبيلتين الأولى والثانية، أما أفراد بني بواراج، فيكتفون بما يستخلصونه من مركزهم بقويمة.

إن بني بطعت مستقورا ومنذ سنوات عديدة أعظام السلطان من إرسال الهدايا التقليدية وذلك حتى يظل خدمهم اتجاه الإسباتي متألجا. ويقطع القاضي قبيلة بسادة.

القرى الرئيسية ببني بطعت

- مدينة سفاة، 800 منزل؛
 - بايس، 10 منازل؛
 - قرايس، 10 منازل؛
 - سيدي الحاج محمد، 10 منازل؛
 - تزاوت (شجرة ذات أزهار صفراء)، لتسمية أمازيغية، 10 منازل؛
 - الحاج صرمان، 10 منزل؛
 - تقيون (المذبح) ، لتسمية أمازيغية، 10 منزل؛
 - الحاج بوبكر قنّاع لوفاس، 20 منزلا.
- وتوجد بالقبيلة حوالي عشرين قرية أخرى.
- القوى العسكرية 6 آلاف من المشاة؛ عدد السكان المحتمل 30 ألف نسمة. ولا توجد أية طريق، لكن هناك مسالك في كل مكان. التعليم القراني منتشر في كل مكان؛ خصوصا بسادة.

قبيلة بقيوة

(الجرينة) ، (لتسمية أمازيغية)

تشمل قبيلة بقيوة كل المساحة الممتدة على شاطئ المتوسط من بايس إلى خليج iguer ayyache ouadda غرب شبه الجزيرة التي تنتهي عند رأس الموريسكي ومن الساحل الشمالي إلى بني عميرث جنوبا. لهذه القبيلة تمتد على مسافة عشرين كيلومترا من الشرق إلى الغرب وأربعين كيلومترا من الشمال إلى الجنوب. وعلى امتداد هذه المسافة لا يوجد ماء جار، لأن العيون نادرة جدا.

ومع ذلك، فإن المنطقة تتضمن حقولا شاسعة من الشعير والقمح، وأيضاً العديد من القرى. وباستثناء بعض التجمعات الأرضية من الشمال إلى الجنوب، فإن بقوة تعتبر أرضاً بسيطة حيث يمو الصبار والطفة. ويتعلق الأمر بسهل ممتد الأطراف بشكل كبير، تفصله في بعض الأماكن مجاري شلالات قديمة، أصبحت جافة، وتعبه قطعان عديدة من الأبقار والماعز. وقد شيد السكان لأنفسهم صهاريج عتيقة تدخل منازلهم وخزانات كبيرة محفورة في الصخر أو في الأرض التي لا تنفذ إليها الماء، من أجل توفير المياه لحيواناتهم.

وعلى الشاطئ، يمارس الأهالي صيد السمك بواسطة شبك وصنابير وخرطيش من مادة متجربة، يصنعونها بأنفسهم؛ علماً بأنهم حذرة قراصنة الماصي ومنهم من يقوم حالياً بالقرصنة عندما تكون القرصة موفية. وهم يتوفرون على زوارق كبيرة، لا يعرف مصدرها، تستخدم لصيد ولعبور البحر. ويطارد هؤلاء القراصنة القوارب والمراكب الشراعية الصغيرة التي تقترب كثيراً من الشاطئ، مستغلين الأشرطة أو الجذب.

وقد روى لي صاحب يخت بخاري صغير منذ بضع سنوات، كيف سولت له نفسه ملوثة زورقين رقيقين بين بانيس ورأس الموريسكي. وفي لحظة محنة، ضاعفت سرعة يخته؛ فالترب منه الأملزيغيون الذين كانوا يجفون بقوة، وكاد هذا السلوك المشهور أن يؤدي بحياة صاحبه، لأنه ما أن شعر القراصنة بأن المركب تطلق بسرعة أكبر، حتى أطلقوا عليه ولها من الرصاص مر بمحاذاة هذا المسافر الجريء.

والرجل في بقوة مشهود له بالبطولة التي لا تضاهي. فهو مهيب الجانب من طرف كل جرفته. ويرتدي جلابة سوداء قصيرة جداً وسروالاً من القطن الأبيض يصل إلى ركبته وتطلىن مصوعين من الحافة. ويشد وسطه بحزام من الجلد عليه بالرصاصات والمسدسات والحاجر وهو يشبه أعتى المحاربين القبائليين ببنيقته التي لا يفارقها ورأسه العالي وضفيرة شعره المسترسلة وراء ظهره. ورغم أنه مسلم فطر، يصلي قليلاً ولا يقتل إلا نادراً، فإنه بالمقابل، يطبق قواعد الضيقة بطريقة صريحة وودية. وهو لا يتوفر على مكر ودهاء العربي؛ إنه يمثل الألفيقي الصلوم الذي لا يعرف المزاح ويكره التعلق والكتب. وهو قاس أحياناً (إلا أنه يظل دوماً صريحاً وواضحاً وعنيفاً).

وسأ لا جدال فيه، فإن قور المنطقة فوق تل يمتد البصر من خلاله إلى السهل المجاور والبحر، هي بمثابة مدينة. فملاصمة بقوة هاته، بأزقتها الواسعة والقدرة وحزامها الكثيف المكون من أشجار الصبار المحيط بها من كل جانب، هي ملتقى تجار وطلبة كل القبيلة. فهناك تتم أهم لمبادلات التجارية في كل الساحل، بعد مليلية طبعاً. ودخل المنازل الموجودة بالمدينة وعددها

700 تقريبا، تعيش ساكنة تتجاوز 3 آلاف نسمة. ففي هذه المقروبول البقوية التي يفخر بها الأمازي، يوجد كل شيء: مقاجر وكاكيز مقلنة بالمصقع ومقاهي تستهلك فيها كبسات كبيرة من الشاي الأناجليزي الذي يساوي سنتيما للفضجان ومطاعم تأخذ رائحة سمكها المقلتي بخفاق الملوقة. ويبدو وكل هذه المدينة لمشيقة من طرف الموريسكيين الأندلسيين، قد بنيت خصوصا بذلك المكان العالي لمراقبة ساحل الإمبراطورية، عبر مدخل الميناء المتوسطي الضيق.

ويوجد العديد من الطلبة بالمدينة. كما أن اللغة المتداولة هي تمازيغت الخالصة المنتشرة من بقوة إلى بني سعيد بالمساحل، مختلقة الجنوب حتى كزناية. إنه قلب الريف البعيد عن الخارج والذي لم يسبق له أن تأثر باللهاجات المغربية الأخرى. وتمازيغت بالنسبة للعرب هي الريفية ويدعونها لهما الشلحة. وهذه الكلمة الأخيرة تنطبق دون تمييز على كل اللهجات الأمازيغية. ويشير إلى الأمازيغ بالاسم العربي المشترك شلوح ومفرده شلحي. وقد تولدت عن هذه الكلمات أخطاء شائعة تضمنتها مؤلفات الأوروبيين للعاصمة بالمغرب. وسنعاني الانثوغرافيا والجغرافيا والكتابة الإملاتية، مرة أخرى من جهل المؤلفين الذين كتبوا صفحات طويلة حول شعب مجهلون كلا من لغته وعاداته.

وقد سجلت بعض الاختلافات اللهجية dialectales بين القبائل التي تستعمل فيها تمازيغت الخالصة. ولا تتعلق هذه التباينات إلا ببعض الكلمات المتداولة بشكل كبير. وإليك بعض الأمثلة:

الكلمات العربية	بقوة	بني ورياحل	بني سعيد	بني ولشك	بني توزين
هذا	Thiouchcha	Aitcha	Taitcha	/	/
أطفال	Ih'ramen	Ih'ramouchen	inouyba	Ih'louloumen	/
يوس	ihimedjdjarin	Thimeddarin	Thianerrarin	Thimeilalin	Thichemrarin
مسحوق	Aberkan	Aberchan	Aberoud	Aberichan	Aberkan
الآل	Roukha	Rekthou	Rouk'a	Louk'a	Iek'kou

فرغم مظهره كبلد جاف، فإن تراب بقوة أهل بالسكان، بحيث نجد القبيلة تسعة آلاف من المشاة. كما يسمح وجود العديد من الطلبة بأدوز وبالقرى الكبيرة، بازدهار الطب الشعبي. فالمطالبي يكتب على قصاصات من الورق، عبارات لا يعرفها غير. وهذا "الحجاب" الذي يباع في الحالات العصبية بشرى بامط، يطوى داخل جيب جلدي ويتم رسمه على العضو المصاب.

ولا يكون تدخل هؤلاء المحالجين المثبرين للضعف، غريبا ولا بسيطا على الدول، لقد رأينا الجريئين من بينهم، يقومون بمهمات جراحية مؤلمة. وليس حظهم، في المرضى يقعون الحجاب طوعية ويرفضون العمليات الجراحية، وبصرامة في غالب الأحيان. وفي الحقيقة، فإن الطبيب غير موجود في الريف، ذلك أن المناخ صحي بشكل عام، ويعتبر الحول (الحجاب) دواء الريفي للمريض، وأحيانا ما يحقق الإيمان العميق بمفعوله، بعض المعجزات.

وقد سمحت مجاورة بني ورياحل الذين يحطون للموسيقى قيمة كبيرة، بهمل أمالي بقوة شيوخين بالأعلام، أو بالأحرى بأصوات الذين منتشرين بكثرة وهما : الفاي القصبي والطبل.

وتعطي بقوة باستقلال مطلق، فهي تعين وتقبل لهاها الذين يعبرون شؤون القبيلة، نعت المرأة الثامنة لأعضاء الجماعة، هؤلاء الأعضاء يتميزون عن الأشخاص العاديين بجلابتهم السوداء وبشرط من شعر (وير) الجميل، موضوع حول رؤوسهم. وقد قبل لي بأن بمصر المؤلفات المكتوبة بالأمازيغية، والموجودة في بعض المكتبات، تشير إلى الأصل الروماني لأمالي بقوة. وهذا لا يمنع القبيلة من التفرغ على عدد كبير من الأولياء والصالحاء، ويمكن إحصاء 110 مزارا فيما يتعلق بالولياء القبيلة وحدهم. أما العيطان الصغيرة المبينة بالحجر والتي تشير إلى مرقد أحد الصالحاء، فلا حصر لها.

القرى الرئيسية بقبيلة بقوة

- يقران أو إقران (الكبار) (التسمية أمازيغية)، 20 منزلا،
- قوز (الضخم) (التسمية أمازيغية)، 700 منزل،
- تيفنيت (العمود) (التسمية أمازيغية)، 50 منزلا،
- بوسكور (من له الحجل) (التسمية عربية و أمازيغية)، 10 منزل،
- إقر عيش وادا (الحقل لسطي لعيش)، 100 منزل،
- إقر عيش وفلا (الحقل القوي لعيش)، 100 منزل،
- تافنما (القوس) وهذه لكلمة مأخوذة عن الكلمة اليوناني νεφός، التي تعني الصباح وهي مدينة من 500 منزل، تتألف أنوز في التجارة والدراسات لقرانية.
- بوجصوم (من له الشحارير) (التسمية عربية)، 50 منزلا،
- تافنوت (القلعة الصغيرة) (التسمية عربية أمازيغية)، 50 منزلا،
- تيفنيت (الطبقات) (التسمية أمازيغية)، 50 منزلا،
- سيدي محمد أقران (الكبير)، 50 منزلا،

- سيدي صحر، سوق الإثنين الكبير، 50 منزلا،
 - إرمورن (شجر الزيتون) (التسمية أمازيغية)، 500 منزل. وهذه المدينة الصغيرة
 محاطة بخلة من أشجار الزيتون. أما التجارة المحدودة بها،
 - سيدي مالك، 50 منزلا. وفي كل يوم السبت، يقام بهذه القرية سوق مخصص للنساء
 فقط.

وهناك حوالي 20 قرية أخرى متفرقة بالقبيلة.
 القوى العسكرية تسعة آلاف من المشاة؛ عدد السكان المحتمل 45 ألف نسمة. السهل ممتد
 في كل مكان. وتتألف بقية كما هو مثبت في الخرائط من ثلاثة أقسام وهي: لوز شمالا
 وشبهجديت وإزمورن جنوبا. ويوش في هذه القبيلة العديد من المتمردين الإسبان الذين نجوا من
 المحاكم الإسبانية. وستحدث عنهم بتفصيل عندما نكون في صلالة بني ورياغل.

29 قبيلة بني ورياغل

بدخولنا إلى أراضي بني ورياغل، لننتقل من سهل عل وهو سهل بقبوة، إلى بلد لقل
 تبساطا، مغطى بنبات واقر. وقد كانت المفاجأة غير سارة بالنسبة للدرويش على حدود القبيلتين،
 حيث تم سلبه أمتعته من طرف ثلاثة أوغاد، اعتقدوا أنه من قبوة وخاطبوه قائلاين: " Agger
 ibek'kouym khaf sen ar netcheuch " (إنا نبحث فعلا عن أشخاص من قبوة، اطلع
 ملايسك).

وبما أن الرحلة كن متريدا في نزع ملايسه، أضاف قطاع الطرق قائلاين.
 Hak'k sid. bou khiyar, ama our theksedh erkesoueth rekthou h'acha ma
 'nenr'itch

(وحق سيدي بوخييار، إني لم تنزع ملايسك فورا، فإنا سذبحك بكل تأكيد)

29 - إن الأمازيغيين الذين استشرتهم حول أصل هذه القبيلة، لم يقدروني في شيء. فالبعض يرمي بأنه تافوس لكلمة
 ourier'li (ثم يسقط)، وآخرون يقدون بأنه جمع لكلمة er-r'oul (القول)، (كلمة عربية ولمازيغية). أما
 لروقيون الذين يسمون اللام هيا (ra) فإنيهم ينطقونه ourim'er. والجذر رغل موجود في العربية، لكنني لم ألق
 على هذا الأصل، متعلما أن ألف على الأصول المسبقة.

وسمى محمد لوالهم، بحيث لن يتركوا له سوى قصبه (التسمير)، وعندهما رآه بعض الأمازيغي بعد ذلك، في تلك الحقبة، سألوه عن الذين قتلوا به تلك القبيلة وبعد سماعهم بتقصيراته، غلبوا حذرهم للبحث عن المجرمين، غير أنهم لم يجدوا بعد تلك، فذهبوا بأنفسهم لم يحدوا أهداء، وسجنهم محمد طريفه، إلى أن وصل إلى قرية كبيرة من ألف منزل وهي أجدير.

في أجدير الواقعة على جانب منحدر، تتوفر على خمسة مساجد وكان أكبرها هو المسجد الذي لجأ إليه الدرويش طلبا للصلاة والملابس. وتلقى في هذا المسجد حطبة الجمعة (وهي صلاة الجماعة التي تقام على شرف الملل)، وتقبل الواجهة الأساسية لهذا قبلاء، حجرة الفكور، وهي حجرة جنباء، محلة من طرف الإسبر مثل Peñon de velez، وذلك من أكثر من ثلاثة قرون. وقد لعبت حجرة الفكور من طرف الإسبر بالحصمة Albuernas (الفراسي)، وهي كلمة مستمدة من العربية مع تحويل بسيط إذ أصبحت الفراسي هي الحصمة.

وفي ساحة المسجد الكبير، تراكم كرات المدافع والقذائف التي وجهت صوب أجدير من طرف المستعمرين الحليين للحصمة ولم يعثر الأمازيغي في الرد بتدعيم الحصنة الموجودة هنا وهناك. بالأزقة أو خلج القرية، وتوجد بهاب المسجد ثلاثة مدافع ذات فوهات متقنونة الحديد، أما المساكن المصنوعة وسط شجيرات التين الوحشي، فهي متباعدة بعضها عن بعض. ويرجع هذا الوضع إلى الشعور الدائم القلبي الذي يكنه الفرد من بني ورياحل لجيرانه الذين يحتربهم من لخطر أعدائهم. لكن يمكن تفسير هذا الوضع أيضا بحسب القضاء الشيع وكراه كل ما يضيق قواعد المقتونة بالإستقلالية.

إن الأراسي التي تقوم فيها القبيلة شاسعة جدا، فهي تمتد على مسافة ستين كيلومترا تقريبا من الشمال إلى الجنوب وعشرين كيلو مترا من الشرق إلى الغرب، وتوجد تسمى على يمينها وبقيوة على يسارها، وبالشمال يوجد البحر الأبيض المتوسط الذي يتوسل في حق الأراسي لشكل الهلال الواقع لمرسى المجاهدين Marsat Imjahden، المسمى من طرف الإسبانين: خلج الحصمة. وبالجنوب، نجد القبائل الريفية التي يمكن قراة أسمائها على الخرائط. ذلك هو الإطار الذي يحدد بني ورياحل، الذين اشتهروا بتسل سوقهم الجغرافي. بكونهم يمثلون قدم الريفي الخالص واللغة الريفية الخالصة.

وتتوفر هذه القبيلة العظيمة على 11 قسما وهي: أجدير من جذرة، أي ما تبقى من جذور (نطل)، القسمية عربية، أيت موسى وعمر (القسمية عربية وأمازيغية)، إرباض (المرابطون) (القسمية عربية وأمازيغية)، أيت حذيفة (القسمية عربية وأمازيغية)، أيت ريان

(التسمية عربية وأمازيغية)، أيت عبد الله (التسمية عربية وأمازيغية)، كمون (التسمية عربية)، أيت ونزار (أبناء الجبل) (التسمية أمازيغية)، مشكور (التسمية عربية)، نيرمورير (أشجار الزيتون) (التسمية أمازيغية)، وينطلق هذا التعداد من الشمال إلى الجنوب، وكل اسم من هذه الأسماء يجند ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف بندقية، بمعنى أن مقاتلي بني ورياغل يشكلون في المجموع 40 ألف مقاتل تقريبا، مسلحين جميعهم ببنادق إنجليزية وإسبانية ذات طلق متكررة

لبن بني ورياغل قبيلة كثيرة الحركة وهي جموحة وغير قابلة للترويض indomptée et indomptable وتعيش في بؤسى تامة. ونادرا ما تهاجم القبائل المجاورة لها، غير أنها تعيش حالة حرب داخلية وقتل أخوي Fratricide بين قسم وآخر وقرية وأخرى ومزل وآخر ونادرا ما يخاطر الرجال منازلهم بسبب الاعتداءات المتكررة، لذلك فهم يضطرون إلى التخلي عن المعاملات التجارية والفلاحية والرعي. ولحسن الحظ فإن النساء هن اللواتي يعوضن الرجال، حيث يرقررن بنقاة عالية، المرتزقة الأجانب الذين يلتمسون إلى القبيلة طلبا للشغل. والورياعلي إسماعيل صلب لا يقبل المهانة ويتحمل بصموبة حصار المسلمين، عربا كانوا لم أمازيغ، إلى قبيلته من أجل التجارة أو لدراسة. وهو يكن كرها دفينا لليهودي الذي لن يخطر بباله أبدا المجيء يوما إلى هذه القبيلة المرعبة.

وقيل من الأفراد يصلون إلى سن الشيخوخة. فهؤلاء الإخوة الأعداء، يحصد بعضهم بعضا قبل أن يخزو الشيب خصللات شعرهم الطويلة. وقليل ما نجد شبيبا لم يتخن جسده بالجراح. ويشعر المقاتل بالعار، إذا لم يكن قد أودى خمسة أو ستة أشخاص ! فالورياعلي يواجه الموت برباطة جأش؛ ولا يعني الموت بالمسبة إليه شيئا. لذلك، فهو يعتبر حياة العير لا أهمية لها، فهي مثل حياة ذبابة. وعندما يموت رب العائلة، مودة عفيفة أو طليعية، فإن موته يكون مناسبة للاحتفال تقريبا، إذ يقيم أفراد عائلته مأدبة فاخرة، يدعى إليها كل الحاضرين للجزاة. ويحتفى على الخصوص، بالطليعة الذين يسيرون في الموكب الجبلاني وهم يرتدون ألبات البردة، تلك القصيدة العربية في مدح الرسول.³⁰

³⁰ - وسطلع القصيدة هو :

لمن تفكر جيزان بني سلم ﴿﴾ مزجت سمعا جرى من ملقة بهم.

وقد أنجز باسي MR. Basset ترجمة جيدة لها (باريس، نورو، 1894)، وهي الترجمة التي قدما بتحليلها بشكل عام. أنظر بهذا الخصوص :

Bulletin de géographie et d'archéologie de la province d'Oran, fascicules LXII et LXIII, Juillet à Décembre, 1894.

وكمتر متزين غير منساجين، فإن هؤلاء الرجال المرعيين لا يسمحون بوجود شخص ما بالصفحة أو بأي شكل آخر، قرب زوجاتهم، فحينما يصادف المرء بعداهن، وجب عليه أن يبتعد عما دون النظر إليها، ولا تلقى طلقات بندق أعلاها. ولهذه العيرة ما يبررها، لأن المرأة فورياعية جميلة جداً وحتى الرجال أنفسهم وسيمون، فهم يحلقون وجهم عن آخره، ورأسهم لمصا، باستثناء الصغيرة الوطنية التي تسترسل نارة وراء ظهورهم ونارة على صدرهم. وتقام في كل أسبوع سبعة أسواق بالقبيلة: سوقان يوم الإثنين وواحد يوم الثلاثاء وثلاث يوم الأربعاء وواحد يوم الخميس وآخر يوم السبت؛ وهذا السوق الأخير مخصص للنساء فقط.

ومع أشخاص غير متساهلين مثل بني ورياعل، فإن كل تبادل وكل تجارة، لا يمكن أن يتم إلا إذا ما منحت للتجار القرياء ثلاثة أيام من الهدنة في الأسبوع يكون وجودهم فيها غير معرض للخطر نسبياً. وحينما تنشب معركة بالسوق، وهو ما يحدث في الغالب، فإن الليرايين يسارعون بلقائه؛ ' على القرياء مفادرة السوق'. وسيفهم الجميع دلالة هذه الكلمات إذ يهرب القرياء تاركين أهلي قبلد يقتلون فيما بينهم بضراوة لا مثيل لها.

وهذه الهدنة المفيدة للأجانب، توجد أيضاً ببقوة وبثبات ربيعة أخرى. ويتوخى كل قسم على قائد خاص به، منتخب من طرف الجماعة، ويتم الحصول على مصادقة السلطان شكلها على هذا الانتخاب، بحيث يتلقى بالمصادقة زيارة وهدايا الرئيس الجديد. بعدها، سيرجع هذا الأخير إلى قبيلته مرفوقاً ببعض الجنود النظاميين (المخازنية) المكنين بتحصيل الضرائب التي لم تؤد جزئياً أو كلياً، وسيستغل القائد حصور هؤلاء الجنود ليمارس فنقلهم ويقوم بشتى أنواع الابتزاز. وما أن يعود المخازنية من حيث أقوا، حتى يصبح القائد مجرد شخص عادي، يسهر فقط على سلامة شخصه. والملابس ببني ورياعل شبيهة بتلك الموجودة ببقيوة إذ يرتدي الرجال والنساء ملابس صوفية، مصنوعة ومصبوغة داخل القبيلة.

ويستدعي تواجد الإسبانين بصخرة الدكور، تجنيد بني ورياعل في كل شهر، لمدة جارس مكنين بمراقبة هذه الصخرة المملونة. وتقدم الأقسام الإحدى عشر رجالها بالقتلوب؛ حيث يقضى المقاتلون ثلاثين يوماً على شاطئ البحر بغياهم وأسلحتهم وكل أفراد عائلاتهم. وهم يراقبون حركات وتحركات أفراد الحامية الإسبانية، ويكونون على أهبة لصد كل محاولة لإزاح قد يقوم بها الإسبان بخليج المجاهدين. وقد سمي فرينغيون خليج الحصينة بهذا الاسم، لأن آلاف الأبطال المسلمين المجاهدين سقطوا تحت ضربات الكفار. ويعتبر هذا القرعاً المروي بنماء كل هؤلاء المجاهدين، كإرض مقدسة وكصحح للروايات الانتقاه. ولقاء كل تغيير للحراس، يتم

- ملحوظة لمترجم: يتطرق الأمر طلباً بقصيدة القردة الشهيرة للإمام البصري

الوفاة الجدد أضعفت مهيبة، على قبور المجاهدين المدفونين بالساحل. ومن بين هذه القبور المباركة نجد: سيدي الحاج سميد، سيدي محمد أبركان وسيدي داوود، الذين متوا منذ زمن، وهم يقتلون من أجل الدفاع عن معتقداتهم. إنهم مجاهدون imjahden كما يقول الريفيون الذين اختزلوا هذا الاسم المستعار من العرب، وهناك قبب صغيرة تشير إلى المكان الذي نزل فيه هؤلاء المجاهدون إلى مواسم الأخير.

ويتألف المركز الأمازيغي الواقع على شاطئ البحر قبالة الصخرة الإسبانية، غير بعيد عن أجنير، من بناية كبيرة هي عبارة عن تكتة بيوت عديدة ومن مسجد. وكل من التكتة والمسجد محميان بكتبان من الرمل، تحجبهما عن أعين الأعداء المتواجدين بصخرة النكور. ويتوفر الريفيون على حوالي مائة من المدافع القديمة غير المستعملة. وهم يتهمون الإسبان طبعا بتثبيت هذه الآليات غير الصالحة بواسطة إخوة مزعومين، تم استجراهم لهذا الغرض. ويستخدمون بنادقهم ذات الطلقات المتعددة بهارة، حيث يطلقون الرصاص وراء كتائبهم لرمية، ذلك الحاجز الطبيعي الذي وضعه الإله الطيب عن قصد، كما يقولون، لإبطال تأثير القذائف المبلعة من مدافع الأعداء.

إن خليج المجاهدين المحمي من الرياح الشرقية والغربية ينتهي عند رأسين وهما: Cap des quillates و Cap des maures. والسؤال المطروح هو: هل من الممكن مستقبلا استعمار هذه البوثة الفاسدة التي تفتح بشكل كبير على روج الشمال، عندما تحل الحضارة المتسامحة محل التمسك؟

وتوجد صخرة النكور، هذا السجن البحري الرهيب، على مرمى بندقية من المركز الأمازيغي لقائم باللبسة. ريمع منعا كليا على الريفيين بيع أي شيء للإسبان الذين يطلون على الدوام محاصرين بصخرتهم. غير أن بإمكان الأمازيغيين غير المسلحين أن يذهبوا إلى الجزيرة الصخرة للتبضع ولا يستقبل الريفيون سوى الفارين من الجندية أو السجناء الإسبان المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة والذين يوصلون الحياة بالريف على البقاء بالصخرة المربعة. ووفر أغلبهم، عبرين المسافة مباحة أو بواسطة قوارب يملكها الأهالي. وما ل نطأ أقدامهم اللبسة حتى يرفعوا أكتفهم إلى السماء، مطمئن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، بطريقة ركيكة، وسيكون هذا الأمر كافيا لإقلاهم، إذ لى الريفيين أن يعملوا فقط على حمايتهم من كل اعتداء، بل سيمنعونهم بكل سرور، للملابس والمال. وسيخصص لهم منازل مريحة وحقل يفلحونه بكل حرية. وإذا ما أراد أحدهم الزواج، فإن الخبر ينتشر بالقبيلة، وعلى الفور يسرع الأشخاص الأكثر

ثراء باقتراح بناتهم كزوجات. وتفتخر الفتاة التي تم اختيارها للزواج من هذا الشخص الحديث المهد بالإسلام، والذي ستهتم بتكملة تعليمه الديني.

لقد قلت في مقدمة الكتاب بأن المسلم داعية * وعلي أن أضيف: وكذلك المسلمة. فكلما تحدثت مع ربات أسر مسلمات ومحترمات، إلا وبلارن بطرح مسألة الذين يهدف البرهة على امتياز الإسلام مقارنة بالديانات الأخرى.

في حين يرفض اليهودي تلمذا دعوة الآخرين إلى اعتناق دينه، ويتخذ المسيحي موقفا سلبيا أكثر فأكثر من هذا النوع من الدعاية، فإن المسلم ظل بمثابة الداعية المنحصر الذي يدكرنا بالقرون الهجرية الأولى. فهو مازال يعتقد وبقوة على أن الرومي الذي اعتنق الإسلام سيخلد لجة قبل أولئك الذين دخلوا عن الإسلام، بل وسيعامل أفضل منهم.

ونفهم الآن، لماذا يجد هؤلاء البؤساء الهاريون من القنور الإسبانية بالمساحل الرومي الاستقبال والحفاوة من طرف الأمازيغيين المهلي الجانب في كل أرجاء الإمبراطورية الشريفة. فالمرشد الإسباني الذي يتمتع في المغرب باحترام لا يحظى به البابا نفسه، يمثل بمهارة هذه القوسية الاستثنائية، كي يمتلك مجافيا مولود لم يحلم بها حينما كان يجر ليوذه كسجين أو حينما كان يقوم بتورية الحراسة وهو يحجب أرجاء القبيلة بزي الأهالي، بكامل الارتياح، حيث يستقبل بحفاوة أينما حل؛ ولا يعرف إلا من خلال لكتته الأجنبية. ونجد الكثير من المرتدين ببقيرة وأغلبهم فروا من Peñon de velez . كما نجد البعض منهم ببني طلعت وبني بوفراج، وهم لحرار في لذهاب أينما شلوا، لكنهم لا يبتعدون عادة عن شاطئ البحر، حيث يمكنهم رؤية سجنهم القديم. ويذكر أن بعضهم اغتلى بفلس وبمراكش، وأن البعض الآخر اندمج في قبائل الداخلية. وقد كانت لهم ذرية بالبلد، ويجهل خلفتهم بأنهم ينحدرون من رومي كان محكوما عليه بالأشغال الشاقة في سجن بالساحل الإفريقي. وتبدو جزيرة لنكور صغيرة المساحة مثل جزيرة بانيس، وهما متشابهتان، إذ يوجد بهما الجمود والحاكين والسجناء. ومع ذلك، توجد أماكن مضطربة تسود فيها الخلاعة ويقبل عليها الأمازيغيون أنفسهم.

ويجلب الإسبان كل شيء من بلادهم، بما في ذلك الماء الضروري لسكان هذه الصخرة البنيمة. ويقطع مركز ريفي للجمارك لهم بالقرب من مركز الحراسة على اليابسة، إتلة من البضائع الآتية من إسبانيا عن طريق لنكور.

* سطرطة المترجم: يتصل قنول قنلة كان Prêtre، وهي أقرب إلى تصور المسيحي منها إلى تصور الإسلامي. لذلك اقترحا قنلة داعية تعريب فطحي أكثر. أنظر ملاحظتنا السابقة بهذا الخصوص.

إن بني ورياعل يملكون أرضاً خصبة ممتدة بمناخ غريرة المياه. وفي الأقسام الشمالية تسمح السهول الشاسعة والتموجة قليلاً، للأعالي بزراعة الشعير والفول والقمح. وتتوفر كل قرية على حزام كثيف من الحدائق والبساتين التي تنتج كل ما يمكن تصوره من فواكه والخضروات. وتوجد بهذه القبيلة التي يبلغ عدد سكانها 200 ألف نسمة تقريباً، أكثر من 200 قرية يتراوح عدد منازلها ما بين 10 و 100، ويخترقها من الجنوب إلى الشمال واد غيس (واد الطمي) الذي يسبب بخاليج المجاهدين تحت اسم واد المذكور، بعد أن يفقد ثلاثة أرباع مياهه التي يستغلها الأعالي المتواجدون على ضفافه، لتسقى حقولهم. وبفضل هذه المياه الغيرة تمتلئ صافات النهر من منبع إلى البحر، بأشجار التين والجوز واللوز والرمان والتفاح والشمش الخ... إلى هذه القبيلة الأكثر غنى على مستوى المياه والأشجار، تتوفر بجانب النهر على بساتين شاسعة وغابات ومروج تحيطها المنايع المتواجدة بكثرة بالمنطقة. وبالجو، وتحديداً بآيت وتراقز، توجد قرية جبلية صغيرة مكسوة بأشجار الزيتون، ويتعلق الأمر بجبل سيدي بوخياري، الذي يشكل نفوذه العلوي محبة واسعة شيدت عليها قرية من 100 منزل، وهي زاوية سيدي بوخياري التي تفتخر بحفاظتها على رفات الولي القروسطي سيدي بوخياري، سيد قبيلة بني ورياعل برمتها.

وما يصفي على جبل بوخياري أهميته، هو على ما يبدو الكنز العظيم الذي يملكه مذبح الذهب الواقع بصفحه الجنوبي. وقد كاد هذا المذبح أن يؤدي إلى أزمة دبلوماسية بين فرنسا والمغرب. فبعد بيعه بمئات، سجل قلبي تارجيست، السيد الطنزي وشريكه فايد أوت وثرار اللذان زعما لهما وكهلاً لقبيلة بني ورياعل، عقداً للبيع، يتم بمقتضاه تسليم المذبح إلى شركة فرنسية، سبق لها أن توصلت من هذين الشخصين بمينة من أجل القطع الذهبية، ونفقت الشركة أموالاً كثيرة معتقدة بأن العمية قانونية ومربحة. وبعد أيام ظهرت بمياه خليج المجاهدين، مينة تحمل الطم الفرنسي وعلى متنها مهندسون وعمل وكل الأليات الضرورية لاستخراج المعدن. وتم إجral قوارب مليئة بالعمال، باتجاه الشاطئ. غير أن بني ورياعل الذين لم يفهموا سبب هذا الغزو، من نوع جديد، لأنهم لم يكونوا على علم بالعملية، سيتصدون بصرامة لفرزول الفرنسيين، وسيصل الخبر إلى قبيلتي تسمار وبغوية اللتين سترسلان على الفور مقاتليهما. وفي أقل من 24 ساعة، كان هناك 60 ألف من الأمازيغيين المسلحين الذين شطوا يكتلنهم الداكنة، ساحل الخليج. وقد اتخذ مظهرهم شكلاً عديداً إلى الحد الذي اضطرت معه المينة الفرنسية إلى الرجوع بسرعة من حيث أتت.

ولما شعرت الشركة الفرنسية بأنها خدعت، رفعت شكايتهما إلى السلطان الذي سيتخلص من هذه الورطة ببراعة وبالمخاطلة المعروفة لدى العرب، مشيراً إلى أن الأمر يتعلق بمسألة

نصب هرقها عنصران من الأمازي لم يفوضا أبدا من طرف الحكومة المغربية التي تعتبر هي المالكة الوحيدة للثروات المعدنية بالمغرب كله. وسعد في الأخير بمحاكمة النصارى بصرامة، وبذلك حادت الشركة بخلفي حنين.

من جهةهم، فإن بني ورياغل سيقتاتون من جراء عملية النصب التي قام بها قيد أيت ودرار المسمى علي بن يحيى، وسيوجهون جماعة إلى منزله، حيث سيقومون بإحراقه ونهب ما به من ثمنه. وسيطارتون هذا المحتال الذي لجأ عند بني توزين. غير أن أهالي هذه القبيلة ملتزمة بقواعد الضيافة، سيحرصون تسليم الجاني إلى أفراد قبيلته الذين كانوا عائلين لحرمة علي تطعيمه ربا إربا وسفك دمه، لأنه كاد أن يسبب في دخول النصارى إلى بلادهم. أما المحتال الآخر، وهو قاضي تارجيست، فإنه لم يتعرض لأي سوء، نظرا لبعد قبيلته، وسيحتفي بسرعة فائقة، ولأنه لم يعرف كيف يستعمل النقود الذهبية الفرنسية التي اختلسها بجراة، فإنه سيوظف سكرتيرا وسيجس في رخاء، مستمعا نصه بكل الخبرات الموجودة بالمغرب.

والنتيجة المثيرة في هذه القصة، هي اكتشاف السلطان لوجود منجم للذهب بقبيلة بني ورياغل، وهو ما كان يحله من قبل. وبخرومة منع النصارى من الاستيلاء على هذا الفكر، سيؤيد حاميه صغرة من الجنود النظميين، في النقطة التي يسهل فيها استخراج المعدن، مع منع أي واحد من الاقتراب منها.

هكذا، فإن أهالي المنطقة الذين كان بإمكانهم من قبل، المتاجرة على الشاطئ بهذا المعدن قسرين، لم يعد مسموحا لهم القيام بذلك. وانحرا ما تمكنوا أثناء الليل، من سرقة بعض الأحجار العديمة القيمة والتي يبيعونها بثمن بخس. وبالجنوب، غير بعيد عن جبل بوخيضر، نرى جبل الرصاص وهو يتوفر على منجم كبير للرصاص لا يستغله أحد.

ومن المغرب أن نجد في قبيلة عنيفة مثل بني ورياغل، أسما لا يهتم إلا بالموسيقى. وينطق الأمر ببني عروس الذين يمتقون الحرب. فلقد المتمثل في الموسيقى الآلية والفناء، يأخذ كل وقتهم. وكل مسار يطا أرضهم، يصاب بالصمم من جراء الضجيج الفظيع الناتج عن الداي القصبي والطبول التي تصاحب زعيق هؤلاء الفنانين المتقنين لسلام والذين يقومون بتدريب مصنية قبل أن يحرقوا الحملات في القبائل المجاورة. وإذا ما كانت الموسيقى تلتج الطباع فإن الرقص يسددها، وهذا ما يلاحظ على الأكل عد أيت عروس الذين تعتبر نسلوهم رقصات بارعات ومتهككات في نفس الوقت.

ويتكون طعام الورياعلي من الحنص والحمص والفول والفواكه والسمك. أما المأكلات الموسرة فتستهلك في المناسبات الاحتفالية، اللحم المشوي أو المسطوق. وتوجد الطرائد بكثرة في القبيلة، كما تجم الخبثات بالخنازير وبنات أوى التي يطاردها الرعاة أحياناً بكلابهم.

القرى الرئيسية ببنى ورياعل

- لجهير، 1000 منزل.
- تفرانت (فالس الصغيرة / المحطبة الصغيرة) (التسمية أمازيغية)، على الضفة الفجر الأبيض المتوسط، 500 منزل.
- تزروركت (السور)، (التسمية عربية وأمازيغية)، 300 منزل. ويقام كل يوم سبت بالتمل الغربي من القرية، سوق خاص بالنساء فقط.
- أيت موسى وعمر، 300 منزل. ويقام كل يوم الأربعاء، سوق بشرق القرية.
- توفرت، (الحقل الصغير)، (التسمية أمازيغية)، 300 منزل.
- تراقخين، (الباسون)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل.
- مولاي يثوب، 50 منزل.
- إثنين، (ملكو الأرقب)، (التسمية عربية وأمازيغية)، 500 منزل.
- زاوية سيدي يوسف، (التسمية عربية)، 500 منزل.
- تيزمورين، (أشجار الزيتون)، (التسمية أمازيغية) 300 منزل. وسيحكل الدرويش في هذه القرية بعد الأضحي سنة 1890. ويقسم ود غوس القرية إلى قسمين وأحياناً ما يغمر مياهها ببلاتها لسهولة.
- الخموس، 500 منزل، يقام بها سوق الخميس.
- كسون، (التسمية عربية)، توجد القرية فوق تل ويقام بها سوق كل يوم الأربعاء.
- زاوية سيدي بوطيفار، 100 منزل.
- مشكور، 300 منزل.
- إهلرون، (أبناء هارون)، 150 منزل.
- لقرى العسكرية، 40 ألف من المشاة؛ عدد السكان المحتمل 200 ألف نسمة.
- لسهل متموج من كل جانب. وتوجد بالقبيلة مسالك عديدة، التحليم القراني منتشر بكثرة. وهناك أكثر من 200 قرية صغيرة لم تمكن من معرفة إسمها. وتوجد الحديد من المنازل بطابق واحد.

قبيلة تمسمان

(النار والماء) ، (تسمية لاريفية)³¹

مبنيطلق القرويش من أيت موسى وعمر، وهو القسم الشمالي لبني ورياغل، ويستتبع طريقاً موازياً للبحر، قاصداً قبيلة تمسمان. هكذا، سيترك وراءه السهل الشاسع للكور الذي يمتد إلى ما وراء الحدود الشرقية، حيث سيأخذ تسمية أخرى.

ولسوء حظ الرحالة، فإنه سيقع من جديد في ورطة أخرى. فبعد أن عبر واد الحدود، وهو بحر صغير يحد كلا من بني بو داوود وأيت موسى وعمر، تنأى إلى سمعه صوت طلقات نارية قوية. وكان رجل من بني ورياغل يجري بسرعة ويفتر فوق التربة البستان الثقيلة التي لم يمر على سقيها وقت طويل. وعند رؤيته للقرويش، توقف مستقداً بأنه أمام فرد من قبيلته وعصر له كيف أن ما يهاجز القلعة من رجال ونساء أيت موسى وعمر، أرادوا الاستمتاع ببطيخ أخضر (دلاج) مسروق من أحد البساتين، خلال رجوعهم من زيارة قبر الولي سيدي شعيب ومفتاح، ببني داوود (تمسمان). ولأن حارس البستان، وهو داودي، أراد منهم، فقد تم جرحه بطلقة بندقية. وها هم الآن مطاردون من طرف أكثر من خمسين ملكاً لبساتين بني داوود الذين قتلوا ثلاثة أفراد من بينهم. ولم يضاف الرجل شيئاً، إذ من المحتمل أنه كل ذاهباً للبحث عن مساعدة وتابع جرحه باتجاه حدود بني ورياغل، تاركاً القرويش مندهلاً من جراء الطلقات النارية التي كانت تقرب منه تدريجياً. وبرز شخص آخر، من بني ورياغل مطارد ومرعوب، بحيث مر أمام محمد دون أن ينتبه إليه. عندئذ اختبأ الرحالة داخل دغل الأشواك التي كانت تسمى جسده. غير أن النظر القاب للورياغلي سيكتشف مغباه؛ وكاد أن يقتصره كلرب، لولا أن القرويش صاح: "تمهل، إني من بني عروس". ولم يمس الرجل بكلمة، بل تابع جريه. وتكسر القرويش لصعده إثر ذلك، إلا أنه سيقع بين يدي ورياغلي آخر، سيستلبه أمتعته فوق أراضي تمسمان نفسها. وهذا الشخص الثالث من أيت موسى وعمر، وقد أوقف القرويش راعماً بأنه إسمبلي متكرر في ري لاريفي، وأمره بإعلان شهادة أن لا إله إلا الله. وتجراً محمد في البداية، حيث خرج من مخبئه وقال للرجل: "أعلن الشهادة بنفسك". وبالفعل، أعلنها هذا الأخير بأناة ثم صوب بندقيته

31 - ياب الأمازيغون شبه الماعرفين بالكلمات، حينما يتعلق الأمر بهذه القبيلة. فهم يقولون: وأين ما قصس لسان (أيما لست - الأرض - تجد الماء). وللحصول على التلاعب الجانبي بالكلمات، يجب الربط بين الكلمة العربية نس وكلمة الأمازيغية لسان (الماء).

تجاه الدرويش الذي أسرع يقول لا إله إلا الله، محمد رسول الله. عندها صاح الورياعلي: " لقد أردت اتهمك علي يا ابن النصراني، من أين أتيت؟ " وأجابته محمد " من بني عروس " ورد الورياعلي: " وهل أتيت عروس رجال؟ ففتحن منخاصمون معهم " . فقال الدرويش: " يا عزيزي، إني ولدت ببني توزين، لكن والدي أرسلني لأتعلم عند أبيث عروس " . وأجابته لرجل: " حسنا لن نقهك، لكن افعل شئك وهاتها " . وحاول الدرويش مناقشة الأمر مع الأمازيغي، غير أن هذا الأخير صوب بندقيته باتجاهه والشور يتطاير من عينيه، مما اضطر الدرويش إلى خلع ثيابه في رمشة عين. ولم يبق (إلا القمص الذي يستر عورته، إلا أن تهديد عدوه سيجبره على خلعهِ. وبكل عدوه، سينزع الورياعلي ثيابه الملهلة وسيلبس الثياب الجديدة والظلمة نسبيا. بعد ذلك، وضع البندقية على كتفه، بعد توقف طلقات البنادق، وألقى نظرة على الحقول والبيساتين المجاورة بارتياح واتجه صوب قبيلة بني ورياغل، دونما اهتمام بمحمد الذي ظل واقفا، عاريا مترددا في ارتداء أسلحة لرجل القمرفة. وما كان يولمه أكثر، هو منظر الجالبتين من الصوب الجدد على ظهر ذلك الحصان.

وكان لنقله إلى قرية سيدي داوود، وقع مؤثر، حيث تجمع السكّان حول الدرويش الهيس الذي كانت أسنانه تغطي عورته بلكاد. وكان منظرة المرتعب، عاملا في تعامله الحشد معه. لذلك، تهافت الجميع من أجل استضافته وملا بطنه بالخبر ولتين للوحشي.

ومن مخد لقرية إلى المسجد، كانت المسيرة حماسية فعلا، وكان الأطفال يجرون أمام محمد، وكان لرجال والنساء يحيطون به ويرفقونه. ومن جهة بلغ الدرويش في إظهار جنونه المزعوم رافعا يده إلى السماء ومباركا المكان المسدج الذين اعتقدوا بأنه مغبول (أحمق) وسيستقبل بحفاوة من طرف الطلبة الذين أثارهم الصخب الحاصل بباب المسجد. وعلى الفور، منحوه ثيابا جديدة وثبالوا معه أطراف الحديث في انتظار وجبة العشاء. وقد أثار السلوك اللطيف للطلبة والمعلمين انتباه الدرويش الذي انبسط بتواجده مع هؤلاء الناس الطيبين. بعد ذلك، قدم عشاء فاخر سيريد من فترايح الزائر الذي احتفظ بأجمل الذكريات، ليس فقط مع سكّان سيدي داوود، لكن أيضا مع كل أمالي تسمن الدين ويختلف طبيعهم لللطيف والمرح، مع الطبع المقت لجيرانهم بالغرب.

ومن بعد، تبدو سيدي داوود كمدينة صغيرة لكن ما ألى يقترب المرء منها، حتى تظهر له قرية كبيرة من أربع إلى خمس مائة منزل، على بعد ربع ساعة من البحر. وتستخدم قرية الحيد الصغيرة نسبيا كمرفأ.

وتعد قبيلة تسمان شمالا بالبحر الأبيض المتوسط وغربا ببني ورياحل وشرقا ببني سعيد وجوبا بالقبائل الريفية المشتهة بالخرائط. وتبلغ مساحتها 40 كيلومتر، من كل الجهات. ومثل بني ورياحل، فهي توجد كلية داخل سهل كبير، تسميه ثلاثة أنهار صغيرة والعديد من الينابيع المائية. وفي كل مكان، تجد بساتين كبيرة، تتوفر فيها جميع فواكه الشمال الإفريقي مثل: أشجار التين والنور والزمان والفوت الفوحشي والمشمش والإجاص والفتاح والخوخ والحنبل الخ... كما توجد في كل مكان، بساتين الخضروات حيث تزرع جميع الخضار التي لديها في الجزائر. ولأن التين الفوحشي والخضر متوفرة بكثرة فإنها لا تعرض أبدا للبيع في الأسواق، بل تهدي للمحتاجين.

وتستحق تسمان هذا الاسم. فليما حفرت الأرض ينبع الماء. وفي جنوب القبيلة يكون الماء عذبا، صالحا صالحا للشرب، أما في الشمال فهو عكر وملح بعض الشيء saumâtre. لذلك يتم جمع مياه الأمطار في خرنانات كبيرة. وتستخدم ثلاثة أنهار وهي: واد بني عثمان، واد سيدي بريس، واد مرغعي، لسقي البساتين والحقول. كما تسمح القنوات والجدول الموصوعة بصاية بوصول مياه الأنهار والينابيع إلى أماكن بعيدة.

لذلك، فإن المنطقة هي عبارة عن حقول خصبة مترامية الأطراف، تنتج الفسحة والحسن وقول والحمص والفصوليا والذرة الصفراء والبطاطس التي تصنود بذورها من الجزائر أو من إسبانيا. وبفضل السهل الشاسع، تهررب بين الفينة والأخرى، أشجار وافر الظلال، تكسر رتيبة المنظر. وتذكرنا هذه الأرض الخصبة والمزروعة بصاية من طرف ساكنة مجدة وسالمة، بتلك المناطق الفرنسية التي يزرع فيها كل شيء، ولا يترك أي شبر من الأرض دور راحة. فلماذا نهجت بهذا وتحت مناخ قتل، عن أشياء لا تسوي ما يوجد تحت أقدامنا وبجوارنا، في منطقة راحة، يستشق فيها إنسان الشمال، الهواء المنعش للمحيط واليبحر الأبيض المتوسط.

وتتوفر تسمان على خمسة قسام وهي: بني دلوود، تراكوت (الصباب) بني ثعالب، ليت مرغعي (أبناء كرمة الحنبل)، أوشان (بنات أوى). ويجند كل قسم 4 آلاف رجل من المشاة، أي ما مجموعه 20 ألف رجل بالنسبة للقبيلة برمتها. وتجلب وداعة أهالي تسمان والأمل السائد عندهم، لعديد من الفرياء والطلبة الذين يتوون في أسواق ومدارس القبيلة. وهناك روايا عديدة بالمنطقة، يدرس بها القرآن والأحاديث النبوية ويتلى "الورد" الذي يتم تلقيه بالعديد من الروايات الموجودة بالمغرب. وأكثرها انتشارا في الريف، هي زلوية سيدي أحمد بن عيسى وزلوية سيدي أحمد بن ناصر والزلوية الدرقاوية. وتتلى ابتهاالات أتباع سيدي أحمد بنعيسى ويتم ترديدتها صباح مساء وحتى في أواخر الليل، كما يلي: "يا سيدنا يا رحيم، أقم علينا بمغفرتك. ما الذي يبتغيه من عرض حلفتنا أمامك وانت أعلم بها؟ إليك وحدك نوجه دعواتنا يا من يرانا. فكن مجبرا لنا

من كل طرف. " وضمن انتهاكات الزوايا الأخرى التي تتوفر على نصها العربي، هناك انتهاكات رائعة أسكني بها بعض الإخوة " الذين لم يجدوا أي حرج في كشف الأسرار المزعومة لزواياهم الإسلامي.

إن الزوايا الإسلامية التي تأسست بغرض نشر الإسلام، تسمى إلى اكتساب سلطة دينية عالمية، يهيمن بواسطتها على كل شيء. ويكون فيها العلمانيون عبارة عن لا شيء. لكن عليها ألا تعتقد بأن هذا هو الهدف السياسي. فأغلب المنتسبين المنتسبين ضمن هذه الزوايا، هم ورعون بشكل كبير ولا يلبهون بما يحدث على أرض الواقع، لأن هدفهم هو تحقيق الانتماء للنظم الذي يرغب فيه كل الأتباع في الديانات الأخرى، وذلك عن طريق الصلاة والصوم والزم.

وتظهر الزاوية المسلمة من أخص الأشياء إلى الإدارة الفرنسية في مستعمراتنا الإفرنجية الشمالية. طبعاً، طبع لا زلنا متأثرين بتكريات الحديد من الجمعيات السياسية السرية التي عزت أوروبا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد ساهمت مقاومة رجال الدين الكاثوليكين إلى حد ما، في تشبيه الإخوان الجزائريين بالإخوان المسيحيين. وهذا التشبيه لم يكن مزمعاً بالنسبة إليهم. فالجماعات الإسلامية التي كانت متفجرة هنا وهناك قبل سنة 1830، متقبل نور الفراعة الذي أسند إليها بغير علمها، من طرف الناس ليسوا على بنية بنية وعادات الأهالي. والعديد من هذه الجمعيات، جعلت فرنسا تتلعق لنا بأمتنا مقابل هذه التضحية المزعومة بالذات وهذا التأثير المزعوم أيضاً. والحقيقة أن هذه الزوايا الإسلامية التي لا حصر لها والتي تظهر في صراع دائم فيما بينها، لا يمكنها تحقيق التقام مع بعضها البعض ولا أن تشكل كتلة متمسكة مهابة الجانب. وبغضاً عن ذلك، فإن المسلم ليس في حاجة للانتساب إلى أية زاوية كي يفتي النصراني.

ولم يخطر ببال مؤسسي الزوايا الإسلامية خلق إطار سياسي. فقد كان هدفهم هو كبح الأهواء المفرطة وإرجاع الشعب الضال إلى الإيمان البدقي الخالص. وإلى يومنا هذا، حينما يريد شخص طموح إشعال فتيل الثورة ضد النظام، فإنه يقوم بذلك، بمحض إرادته، دون مساعدة فعلية من زاويته التي تكفي في غالب الأحيان بمباركة خطوته بالدعوات والصلوات.

وما قلته الآن بخصوص الزوايا الدينية بالجزائر، يمكن أن ينطبق على طريف وعلى المغرب برمتيه. وغالباً ما يتم الخلط عندما يتعلق الأمر بالمعالم الإسلامي، بين الزاوية الدينية المحضة والجمعية السياسية السرية. وهذه الأخيرة توجد عند جيراننا بالمغرب. فتحت ياقة الذين، تسمى إلى تحقيق هدف سياسي؛ وستكلم عن ذلك في حينه.

في وجود الإخوان، هؤلاء الأصوليون المسلمون، بشكل كبير يتمسك، له ما يدور. في هذه القبلة هناك عدد كبير من " النماذج" قصيدة التي لا يستطيع كل الرعاة المتواجدين حلها. في رقت منع الحواس والأطعمة الجيدة والموسيقى والألعاب والقهلي طويلة التي يتم حلها في تناول لكواب الشاي وسط الدخان الكثيف للكيف، تشكل قسليات المفصلة للتسليتين، ورغم أن هناك بعض النساء والطلعات يظل سهران إلا أنه لا يتجاوز الحدود المرسومة مع ذلك. ويرتدي الأهالي القباس الصوفي في الشتاء والحلوك الخفيف في الصيف. أما جلالة الرجال فلبوا أسود، ويشبهون في ربههم وسلاحهم بني ورياعل. غير أن القهنية ذات الطوائف المتكررة، لم تعرض بشكل نهائي القهنية القاعزونية (المكحلة) . وكل الرافضين المتواجدين بالسلط، فإن التسليتين يسبحون جوداء إلى نجد الذكور من 10 إلى 15 سنة يستمعون في البحر صيفا وشتاء. وقد يصبح بعضهم صيدا عند بلوغه من الرشد، لأن السمك يباع كثيرا على الشاطئ وبالدخل.

وستنير فرصة مرورنا بكثر قبائل القريف مرصاء، للكشف عن حفل هو من أكثر الحفلات استتاعا من طرف الرافضين ويدعى الكرنفال³² ولا نجد شيئا له في الأجزاء الأخرى من المغرب، سواء لدى العرب أو لدى الأمازيغيين. وحدهم الرافضيون يعرفون ويمارسون المسفرة mascarade ، إلا أنهم لا يتجهون بذلك خارج منطقهم، لأنهم يدركون مسبقا بأن المسلمين الآخرين يستقبلون بنوع من القرف هذا للعب التهرجي القريب. فهل يمكن اعتبار هذه عادة استمررا للألعاب التهرجية الرومانية saturnales ؟

كوصا كان الحال، قبل الكرنفال الرافضي الحالي، يحافظ على تقليد قديم تمتد أصوله إلى غابر الأزمان. ويقام هذا الحفل القريب ثلاث مرات في السنة: عند حلول السنة الهجرية الجديدة وفي العيد الكبير (عيد الأضحى) والعيد الصغير (عيد الفطر) .

فما أن تشرق الشمس حتى تهرع الحشود إلى الشوارع منتظرة ظهور الأشخاص الخمسة الذين سوف يوزعون بلحة المسفرة الفوحنة بالبلدة (وهذا العدد لا يتغير) .

ولمجانة، سيمتلئ صراخ الأطفال عن مجيء شخص مقنع على هيئة قاصص. وسيجلس هذا الأخير فوق ركلم من زبل السمك هيء خصوصا له، منتظرا بهوء. على مقدمه المنزلة، حضور القاصصين، أي الأشخاص المقنعين، الآخرين الذين لن يتأخروا في المجيء. ويرتدي هذا القاصي

³² - سأعالج هنا موضوعا مارجا من القلمية الأخلاقية. ولولا أنني التزمت نفسي بمبدأ قول كل شيء وبالكشف عن العادات الصلة والهيئة للعب ما زلت سجيولا، لكنت قد تغليت عن وصف هذه العادات القديمة والقصة التي ظلت غير معروفة إلى يومنا هذا. هكذا، قبل الإنكسار غرقها نضضت لحوافا لصورات قديمة.

فحبيب بذلك من الميوش وتتكون عائلته من شبكة صيد صغيرة الحجم، كما يغطي رأسه بقبة كبيرة خضراء أو حمراء مستطيلة وعظوفة بورق لآلث فسكر ثم تقطعته من الزبلة. وهو لا يضع لهاذا غير أن الفناء الذي يطلع وجهه غير معروض. ويمكن أنفيه توجد صمائمات من بلح البحر ويصنع على وجهه لحية وشاربا من الفصوص، كما يمسك بيد عصا من الدلى وباليد الأخرى بحزمة من جلود الأراقب مستخدم كمحلات تحفظ بها أحكامه بدقة. فلك هو الرجل الذي سيؤم بإحدى أصص الوظائف الإنسانية وهي: إصدار الأحكام على بني جنسه. وسينقل الحشد نظره من الفاصي نحو الأفعمة الأربعة الواقعة على القرية من الخارج والمكونة من: " باشيخ (رب الأسرة) وزوجته والحمار واليهودي المرافق له.

وإليك زي باشيخ: فهو يرتدي أسعلا ويصنع حزاعا من الحلقة حول خصوه ويقتل غني متقربين وبلف ساقية بجلود الماعز، ويصنع فوق رأسه قرية يابسة وعلى أذنيه ورفقتين صغيرتين من شجيرة التين الوحشي. أما الوجه فيختلي داخل بقعونة مطفورة من الداليل ومتقوبة في أماكن العينين والقم، وعلى جانبي القم هناك نابا لمغزير حقيقي ويتركان قنار ويزمزل إلى أسنان القوحش المظنح، وفوق القبطينة وضع جلد القنار بأشواكه. حيث يمرر إلى اللحية المنفردة. وبالجزام هناك خنجر وسدس من الكليخ *ferula communis* وبندقية من نفس الخشب مثبتة بالكتفين بواسطة حبل صغير من القوم. ومن الرأس يكتلي حرف حصان أو ذيل بقرة كرمز لضخيرة قشعر الوطنية. وحول العنق، هناك قبة من القوم ملينة بالعمصى ومسبحة تتألف حبقتها من القيرتال أو القيمون. وفي الأخير، ولتتمة هذا الزي الريب، فإن قصيبا خشبيا سمر بالإنضفة إلى حبتين من القبانجان، إلى القمضو التناسلي لهذا الشخص المضحك.

أما زوجة باشيخ، فيستلها شخص متين البنية، يلف جسمه بأقماس قديمة كملائس داخلية، ويكس قديم وطويل مصدوع من جلد الماعز هو بمثابة فستان (ملفلة). ويضع على صدره كرتين من القلن، وأحيانا بعض الخرق القبلية المتهللة، كرمز لشين يابسون. أما خرس الأنثى فهما من حنوتي القرس. وحول العنق طقت ثلاثة من قوالع الحلزون المشدودة بحبل قديم. ويتشكل القنار من بقعونة مسوفة من الداليل ومتقوبة جهة العينين والقم للسماح للشخص بالنظر والقنن. ومكان الأسنان وضعت حبات من القول القباب. وقد حجب الرأس برداء وسخ من الجلد، ووضعت أساور حديدية بالمصمم وقطع ملقوبة من الحديد حول الميقان المارية حتى الركبة، أما بالرجلين فتضع زوجة باشيخ غصن مستعملين ومزقنين (بلقة) ولديها صندوق مليء بالقطران، ملقوف بقماش، مستخدم لطلاء ألوف الشركاء في اللعبة.

وحالة ما يمثل رمزي ضمن البيئة ونحو قوة هركاية، دور الحمار، لكنه سيحل عند الإقصاء، فبعد وزوجته، فوق ظهوره، وسيلت جالسا على أربع مثلها بركل حارسه اليهودي القنيس الذي يسقط متمرعا فوق القناب، بل قد يتلقى صرعة مباشرة إلى الصدر. وعلى ظهره يوجد برودة ملونة بالفتوب يبرز منها قنبن، وهي مثبنة بحرام. وقد ضلّى رأسه بجلد القنيس الكبير الذي يثبت منه حودن من القند وشكلان أنثى الحمار. ويمسك بين أسنانه بلجام من القنقة. ويؤخرته وصع ذيل بقرة. أما بين القنابين فجلد قة تغير سوداء تتسع فوهنها كترجيا وجنير من البرانجان قتلرجان وتسطعمان في عضلية اعتزاز دامة.

أما جسد اليهودي فهو مطبخ يرق الحصار، وعليه بعض الأسماك البشمة لمنظر قتي لا تنتر حرته بالكمال. وتتشكل جلابته من بقايا حسيوة من الحلفة، وتعرض قلة من قنوم حياته، كما تعرض لخصلات الشعر الطويلة المتهدلة فوق صدغ الإسرائيليين يزهب الخنزير الطويل أو يعرف مأخوذة من ذيل حيوان مذبذب. ويوضع على وجهه جلد قنيس ثم حكة بالرماد المسحوق بخصلات الإنسا والسقي بطوب رقب ويوضع قطرات من الصل لجلب القناب، مع ترك فتحات بالنسبة للعينين والفم. وهو يرافق مجده ويحمل بين يديه خنيس مغززين، وبمحتيها صسا من القنلى يستخدمها لإبعاد الكلاب قتي يتم إطلاقها في أعنقه. وقد خلق بطنه صندوقا كبيرا شينا برنار يحرض فيه أمام الحشد الساخرن لمتعته قتي لا قيمة لها وخردته ومراياه المسكرة وصناديق أعود الكبريت الفارغة وخصلات القنير بدلا عن لمسك ولورقه الفوسفة وكل شياء قديمة قتي تحفل بها بضاعة اليهودي الرخيصة.

وما أن يظهر باتشوخ وزوجته بباب القرية، حتى يهرع الحشد باتجاههما ويسقطهما أرضا. حينها يستظاهر اليهودي بالنعيب أمام منظر سوبيه المتمرعين في القناب، غير أن باتشوخ سينفض ويسجري باتجاه الحمار رافعا عصاه. وطبعا قبل الضربة التي كان من المفروض أن توجه إلى الحيوان، تستقط على رأس الحيري الذي سيلوي عنقه من الأكم وسيضبط أرضا. وستطلق الضحكات من الحشد الذي سبغت الإسرائيليين بالذخا القشتقم وسيشجع الحماروسيد. وستتابع المجموعة السير تحت وأبل من الكلمات القليلة، أي تحت كل ما يتضحته القاموس الرمي من كلمات دنينة ومنمطة، بحيث يطلق القناب لهذه الكلمات بشكل تصاعدي، في جو من الصلير الشعبي المستيري. وهنا يحدث المشهد الأكثر بشاعة، أو لنقل حدة المسرحية التي ينتظرها المتفرجون بفعل سبر. ذلك أن باتشوخ سيظهر فجأة برغبة جنسية جامحة وسيقتض على رفيقته، إثر ذلك، ستحدث معركة بينهما، وستسقط المسكينة تحت روجها الذي سيدبطح فوقها. لذلك، ستصرخ وستقلوم وستندفع بظف. أما باتشوخ فإنه سيهرع عنها فكوس الذي كان بمثابة قستان.

وسيلتح منه خيمة صغيرة محفلة لا يستدراج الزوجة إلى داخلها، ولأن جموحه لا يقام، فيه
 سيلتح نحو كل الجهات ملصكا قصا بيده، ويصبح العنيد المتمسك : " ليس هناك... بل فوق .
 لا تحت..."

أنداك سيلتح المهرجل بهوء، ثرة بالمؤخرتين وثرة بالوجهين وسيمطري الوجه المنسج
 جزى المساهير، بالصلوات النبوية، وفي الأخير، سترغص المرأة القنول حد رغبة فروج،
 مشرطة المصول على مبرها كاملا وعلى الهدايا وجهار الحروس، ويسصرخ باشيح متعيا:
 " لاحتكم إلى القاضي ". أثناء ذلك، سيزدل يهودي كل ما في وسعه، رغم الصربات التي يتلقاها،
 ليبح سلعته الرخيصة، إلا أن سيده سيدعوه للمجد، وهو ما سيعوم به، حيث سيجري باتجاهه،
 سزق قنواب، نصف حار، تحت وابل من القوث، غير أن الحمار الذي كان يسلي الأطفال
 بفراقه سيعرغس الانقياد إلى اليهودي، وأخيرا، ستتابع المجموعة برمتها السير.

هكذا، سيتم التول أمام القاضي الجالس فوق ركاب ربل قصاد وستصل إلى الصماح
 تحيات بدينة ومحادثات غريبة، وهذه المباررة الكلامية ستقاطع بهنقات الجمهور الذي لم يحد
 لمرجه حدود، وسيفسر القاضي بكلام نصحه عربي ويصفه لاريخي، بأن كل رجل عدالة يحترم
 نفسه، لا يمكنه أن يصدر حكما إلا إذا ما تلقى قطعا نقديا من فئة 100 فلس، وسيعتبر باشيح بأن
 الاقتراح طبعيا جدا، لذلك سيلتح كيمه وسيلخذ كمشة من العصي وسيلقي بها على رأس
 القاضي صلتحا: " ليها القاضي، اجمع فلوسك ". ومن جهته، فإن القاضي سيقبض بمهارة كل
 حساة، حيث يسمح لسلطانها براحتبه القنولتين والضعفتين المتعدتين على استخدام الصبرات
 والفلس، إثر ذلك، سيعرض الزوجان في نص الوقت، سبب خلافهما، عبر إشارات وتعابير بنينة
 تجعل الحاضرين في غاية التبهجة، وبعد أن يهدأ الغضب نسبيا، سيصدر القاضي الحكم قنالي:
 " قبل أن ترجع إلى عش الزوجة، على المرأة القلانبة أولا أن تلصق قبلة تحت سكب سمادة
 القاضي وذلك طبقا لمذهب ابن حصصان المشهور. " 33

وسيلتح غضب باشيح إلى الدرة نتيجة هذا الحكم، هكذا، سيلأخذ زوجته وسيركبها مما
 على ظهر الحمار، طالبا من اليهودي وخز مؤخرة الحمول، غير أن هذا الأخير سيوجه إلى
 صدر اليهودي ركلة قوية سيقلب على إثرها ويلقي برلكبيه أرضا فوق الريلة. أنداك سيحدث
 لخلطاء غريب وتشابك السيوف والأذرع التي ترتفع إلى أعلى وتسقط بمرعة فوق الصدور
 والردوس والظهور، وهذا هو المشهد الذي يضاها، بالنسبة للريعيين، لأجل عروضنا المسرحية.

33 - وهو فلس من نوع القليل، يذكر أنه لتأكيد الأحكام القروية التي يصدرها طلبة الحقوق بالمغرب فيما بينهم،
 وحصصان مستمدة من قبل حصصان أي ظهر في واضحة النهار، وتقال بخصوص الحقيقة أو الحق.

وهي لحظة مهمة، سيخلص الجميع وقد انطلقوا بالفتور، لأن المرأة لم تحت السبل الفزج أثناء هذا الاحتياط المطوع، خصوصاً على زوجها وعلى القاضي. أما اليهودي الذي كان يتخير لمسة التحدث، فإنه سيطر مشدوداً إلى الحمار الذي بكل له الركبتين المولمة، وبين ظهيرة والأخرى، كل يتم من حذوه بصريات عصا يمكن أن تصرع ثورا. وسيستمر الاحتفال القمعي بهذا الشكل، طواق اليوم والأيام التالية التي توافق حفل القيني.

لكن ما هو الغطر ضمن هذه الحفلات، هو انتهاك المناسبات الذي يقوم به هؤلاء الرهبنة الخمسة، حيث يسفرون من شعائر الصلاة الإسلامية، فبعد حلول الظلام، ينفذ باشيخ فوق ركائهم من الأرباب، مؤدياً دور المولى حيث يتجه صوب الغرب منادياً: "يا صلوات الله عليكم" إلى قوم دون صلاة. وكل من يصلي لأفلاح له.

بمناسبة إلى مئات من الحفلات التي يستمتع بها العامة، ويستخرج القاضي باعتباره إماماً، في إقامة صلاة الجماعة. لكن باشيخ يسمى إلى نفس الأمر ويستلزم على حول بردعة الحمار التي يريد كل واحد منهما إقامة الصلاة عليها، مما سيؤدي إلى تمزيقها إرباً. عندئذ سيولي باشيخ وجهه جهة الغرب وسيقيم الصلاة صارخاً: "لن الله الصلوات"، فلم لا تمنح البركة ولا قسمة لمن يذهب إلى المسجد. في تلك الأثناء، سيتوجه القاضي صوب المرأة التي تتظاهر بالنوم وسينمى لوقها، إلا أنها ستثور على ذلك وسيشطب عراك بينهما. إثر ذلك، سيدخل باشيخ والحمار ويهودي ولتبدأ معركة مصحكة من جنود. وفي الأخير ستقام الصلاة جماعة، ظهراً لظهور وبالقذف، مع تحوير لكلام القران بكثير الطرق سقاة.

إن ما أثار دهشتي أكثر، عندما سمعت بهذه الوقائع الغريبة، هي لامبالاة الناس الجديدين (ويوجد العديد منهم وسط هؤلاء المتوحشين) الذين لم ينصبوا عند معاملتهم للسخرية من ممارسة بوجلة، ونقص ذلك الصلاة المقدسة من طرف كل المسلمين. لفنسية الصلاة ترجع إلى كونها أحد الأركان الخمسة الأساسية للإسلام، وهي ممارسة مهمة لأن كل مسلم سيحضر في بطارها باسمه فوق هذا العالم الفاني، فهو لم يصبح ذلك الإنسان المعرض للنفاء طبعاً، بل مجرد روح تغادر الأرض لفترة ولا تقتل بما يحيط بها.

القرى القروية بتمسطن

قسم بني بودفود

- سيدي بودفود، 500 منزل
- حديد، 50 منزل
- سيدي شبيب ومفتاح، 300 منزل، ويوجد عند مصب واد بني ثعلب، ويحظى بزيارات كبيرة، لأن بهذا المكان يوجد قبر الولي القروطي سيدي شبيب ومفتاح، سيد القبيلة برمنيا. وكل الأطفال والرجال تقريبا يسمون شعبا Jethro .
- تزاغين، (القبايل)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل وتوجد شرق سيدي شبيب على شاطئ البحر.
- أمراش أحمد، 100 منزل
- تزيوت، (الصغرة الصغيرة)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل. وكل يوم ثلاثة، يقام سوق كبير بالجانب الغربي.

قسم ليت مرغني

- سيدي إدريس، 300 منزل، عند مصب واد مرغني وتحت القبة يوجد صريح الولي الشهيد.
- بوجزون، (العريز)، 300 منزل على واد مرغني الذي يسمى عند المصب، واد بوجزون.
- ليت ثامر، (الأبناء العديدين)، (التسمية أمازيغية)، على واد سيدي إدريس، 300 منزل.
- سيدي مسعود، 100 منزل، على واد مرغني.
- ثقبصت وادا، (القصة المظلمة)، (التسمية عربية وأمازيغية)، 500 منزل على واد مرغني. ويطلقها التمسانيون أيضا: ثقبصت لونو وادا (القصة الفتحية).
- نشر تَقَطْ (قرية الأحد) (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل وهو سوق يقام الأحد ويقبل عليه الناس كثيرا.
- ثقبصت نائج، (القصة العليا)، (التسمية عربية أمازيغية)، 500 منزل غير بعيد عن واد مرغني. ويطلقها التمسانيون: ثقبصت إنائج (القصة القوية).

- حين كثير، 100 منزل.

قسم ترفوت

- هروضة، 50 منزلا.

- ثادرت (المنزل) (التسمية أمازيغية)، 100 منزل.

- يار والفشيس (حقل المطرقة)، (التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل. ويجلوب هذا

قسم يقام سوق كل يوم اثنين.

قسم بني شعبان

- أث علي، 100 منزل، علي واد شعبان.

- لغشاب لطار، (لأهل الشيخ)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.

- يلماسيين، (أهل فاس)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.

- تالوين، (المذبح)، (التسمية أمازيغية)، 50 منزلا. ويجلوب يقام سوق كل يوم

خميس، قرب واد شعبان.

- إمزادو، (الأول، القديم)، (التسمية أمازيغية)، 300 منزلا.

- أث ملكشن، (أبناء الفارسين)، (التسمية أمازيغية)، 500 منزل.

- يويحروب، 500 منزل.

قسم أوشقن

- حين كثير، 50 منزلا.

- إمزادو، (الأول ، القديم)، 100 منزل. ويجلوب هذه القرية يقام سوق عام كل يوم

أربعاء.

والصلا عن ذلك، تتوفر القبيلة على حوالي 40 قرية من 50 إلى 200 منزل، لم تمكن

من معرفة أسمائها.

لقرى العسكرية: 20 ألفا من المشاة، العدد المحتمل للسكان: 100 ألف نسمة. وتوجد

سهول والمسالك في كل مكان. ولست هناك أية قرية محصنة. التنظيم القراني منتشر إلى حد

ما. القبيلة مستقلة، وتعين قوادها بنفسها، كما ترسل من حين لآخر، بعض قادها إلى السلطان.

قبيلة بني توزين (الوند) وقبيلة تافرسيت (استصلاح الأرض)

إن ظروف الترحال، مستفح بالندوبش إلى تحويل وجهته من البحر باتجاه الجنوب، معتقدا أنه سيلقي رجلا جذا وعلات غريبة. ورغم أنه ليس جيولوجيا، إلا أنه سيلاحظ على الفور، بأن تربة بني توزين تشبه تربة تسمان، وسيلاحظ أيضا، دون أن يكون غارسا للأشجار، بأن هذه الأخيرة أجمل وأصلب من تلك الموجودة على الساحل. تربة بني توزين سوداء وحباتها صلبة، وهي أرض جبهة قليلة الفتحت تقاوم التحربة الفتحة عن الأمطار الشتوية التي تجري على منحدرات أرض متعوجة بشكل عام.

وقد وصل محمد إلى بئر لمولس (الحقل الحالي)، وهي تربة محاطة بغابة كثيفة من أشجار البرنقار والماتندري والموز وقتين والصبور والكرم المشلق (الدالية) والجوز... ومجدد فرحانة حوالي خمسين طالبا أجنيا مقيمين بالمسجد، أتوا مثله طلبا لإحسان الأهالي والليل منهم من أجل الدراسة. وكان الاستقبال دينا. وعندما طم المكان بمجره أجني آخر إلى المسجد أتوا بكية لوفر من الطعام المكون من الحنيس والبالزلاء (الجلبانة) والبلوط المشوي والقولاكه. ولم يكن ينقص الضيوف أي شيء.

وتشتهر بئر لمولس بكونها عبارة عن جامعة صغيرة يتم فيها تعلم مبادئ الصاب، وهو من العلوم المنتجة لدى المغاربة. ومساحة المسجد شاسعة كما أن صومعته العالية تتجاور قمة أعلى الأشجار. وتشغل قبيلة بني توزين مساحة قدرها أربعين كيلومترا طولا وعرضا. وتتوفر على خمسة قسام وهي: بئر لمولس³⁴، بني حصار، تصاروت، سيدي يحيى وتافرسيت. وبالرغم من كون هذه الأخيرة قبيلة فقمة بذاتها، إلا أنها تابعة لبني توزين التي تقوم بحملتها، لأن إمكانيةها المحدودة وصغر حجمها، تهتم عليها البعث عن دعم، وسط الجيران الأقرباء المحيطين بها.

ويمكن لكل قسم من هذه الأقسام، بما في ذلك تافرسيت، تجنيد 3 آلاف من العشاق أي

15 ألفا بالقسمة للمجموع.

³⁴ - نذكر أسماء دالة الكلمة. ولأن لمولس اسم رجل، فإن بإمكاننا ترجمة الكلمة أيضا بـ "حقل لمولس".

إننا نوجد هنا داخل بلد جبلي، مغطى بالنباتات القساسة، حيث تكثر أشجار البطم والظفر
والصنوبر والورد والقرنفل. وتنتج هذه الأشجار الحسنة قصب الجبل، وعلى جنبات هذه
الجبل والقرنفل، توجد أشجار قواركه المسطحة والمتدوعة، ويغطي شجر الزيتون على
المسوح بطنية غليظة، فمن طريق الثغرات المنجورة بهيائه، يحصل الأهالي على حيات طيبة
من الزيتون، وبالنسبة لحيوانات الملية، فإننا نجد الغنم والظفر والبن لوى والقطب والذئب
والقند، ويرافق هذه الحيوانات، أثناء الدمار، السباع الفروخ المعتادة بكثرة في المنطقة، وهو ما
يجعل من الأمان في هذه القبلة كل مما هو عليه في القتل الأحمري لتي جيرانها، وهناك حصص
حول الخيل تحكى في الأسبابت وترعب الأطفال والنساء، بل وحتى الرجال أنفسهم، ورغم
الاشاعة القائلة بولاء الرجال، فلهذه الأعداء بهذه المزعجلات بحيث يخشون الجن كف مرة لكثرة
من لصوص قليل.

ومن بين الأسواق الأربعة ببني توريد، فإن سوق ميسر الذي يقام كل يوم خميس
يعرف إقبالاً كبيراً حيث تنافس فيه الألبان والماشية والحصير والبقال بالمنتجات، كما تقيم المتاجرة
بالقمح وزيت الزيتون والحبوب والقمح والشاي والسكر الإسباني والحبوب والحبوب، لكل
منتجات المنطقة تتواجد بالسوق، ويطلب الشاي والسكر والقمح والأتات المنزلي من قبل
أن قبائل العرب الجنوبي تبصع من هذه العاصمة، في حين أن أهالي الساحل يشترون كل شيء
تقريباً من الإسبان.

والد أعدت البنادق الأوربية تلج الجنوب تدريجياً، على مرأى وسمع من الجزائر وإسبانيا،
نقد أن سوري هذين البلدين يتاجرون سحاً صغيرة، هي في الغالب مركب شراعية، وعندما
يمتن لمركب من أخرى بالبنادق، يطلق نيراناً مشاكلاً من أحد الموانئ المتوسطية لشبه الجزيرة
الإيبيرية، أو من مصب القامير Tamise متجهاً نحو المغرب، ويكون أهالي الشاطئ، سواء كانوا
متوطنين مع الأوروبيين أو شركاء لهم، في انتظار مجيء المركب عند نقطة معزولة بالساحل،
حيث يتم إخراج حمولته الثقيلة ليلاً، وتوضع البنادق والخرطوشات الملقوفة بطنية داخل صناديق
مهيئة وتعمل إلى قارب يقوده القبطي بنفسه، وسيمضي صغير من نوع خاص عن القارب هذا
قارب، عندئذ سيصبح صوت بالإسبانية من الشاطئ: "هل أنت القبطان القلاني؟" وسيصدر
جواب من قائد المركب والمسلمين الذين ستظهر خيالاتهم المخيفة بالقتل، وسيقف واحد منهم،
عند ما يكون هو القائد، داخل القارب الذي سيبتعد على الفور ببضعة أمتار عن الشاطئ، آنذاك
تفتح الصناديق ويتم فحص واحد البنادق والخرطوشات، وإثر ذلك ينادي المسلم لمن البضاعة
بالفرد لردالة deniers trébuchants، ثم يرجع القارب إلى الشاطئ لإزالة حمولته، وتعمل

الصناديق مباشرة من طرف الأهالي الذين سيختارون في ظلمة الليل، متجهين إلى منزل المهرب الرئيسي. ويخرج القارب إلى السفينة لينقل ما تبقى من البضاعة، حتى تنتهي العملية. عندئذ تمخر السفينة الشراعية " قزوية " عباب البحر، راجعة إلى الميناء الذي انطلقت منه، حيث ستجد فيه بضاعة أخرى، يتعين حملها وتسويقها. وفي تلك الأثناء، يكون الشركاء منشغلين داخل منزل المهربي، بحثاً عن نقد ولحسبها بحالة فاتقة. ذلك أنهم مطالبون بإرسال المئات منها في نقد، إلى هذه القبيلة أو تلك، وإلى السوق الذي يعرف إقبالاً كبيراً للأهالي. وقد تباع النقود في عين المكان، عندما يكون البلد في حالة غرضى، وبمنازل الممول الرئيسي للعملية، توزع على كل شريك بعد البيع، حصته من النقود.

وقد أكد لي المهرب قريبي المعجوز الذي قدم لي هذه التفاصيل، بأن الأرباح المجنية من هذه العملية تكون هائلة. فالبنديبة التي تشتري في أوروبا بمئتين إلى ثلاثين فرنكا، تباع لمطربة قشطنية بمئتين إلى مائة فرنكا، وإلى قبائل الداخل ما بين 120 و 150 فرنكا.

ويمكن للبلد الذي يريد التعامل مباشرة مع السكان المطربة المستقلين، دونما احتلم بالاحتجاجات الصورية للشريف (السلطات) أن تروج بالمغرب، ما بين 500 و 600 ألف بنديبة على الأكل وملايين الخرطوشات. وبكل قبائل الريف، بالشمال كما بالجنوب، فإن النقود القصية تعتبر هي النقود المفضلة، وتأتي النقود الفرنسية في المرتبة الثانية، وبعدها النقود المسكركة من طرف صاحب قبيلة الشريف. أما النقود الإنجليزية والإيطالية والألمانية إلخ... فهي صير معروفة.

وبنكم إنسان بني توزير تلمزيغت خالصة ولا يعرف كلمة واحدة بالعربية. وهو دائم الحركة بجسده المكل Trapu. وقد تقنى شاعر محلي بجمال نساء القبيلة، حيث أصبح البيت التالي شائما وهو:

بنات ملاح في تلك قبيلات ﴿ بني توزير تمسمان وكعيرات

ونخرج النساء سلفرات الوجوه، وهن يشتمن بجرأة نادرة حيث يرافقن الرجال أثناء المعارك ويقفن بأشق الأعمال، إذ يحصدن ويشغلن بالبساتين ويحطبن ويجلبن المياه من الينابيع. وهن يرتدين الحايك المصنوع من الصوف الأسود ويغطين أكتافهن بغطاء جلدي خاص بالسوقن يقوم مقام الجوارب وينتعلن أهدية من الخلفة. وهن عفيفات جدا وولودات جدا، كما أن حباتهن تنسم بالجدية، حيث يكرسن وقتهن لتربية أبنائهن ويرضعنهم إلى حدود السنة الخامسة أو السادسة.

وفي أغلب الأحيان، تقام حفلات الزواج في الغريف، عندما تكون السرايز والمطامير ملينة بالمحبيب وقفاقه. ونظا المروسة بكرا مدة سبعة أيام في بيت زوجها، وفي اليوم الثامن تتم النحلة. ويتم عمل الرجال في صنع البارود والرصاص الذي يباع بالأسواق.

وتحتل الدراسات القرآنية بأهمية كبرى في الروايات الثلاث الموجودة بالقبيلة. وتتميز زاوية سيدي بوجدون³⁵ عن الزاويتين الأخريتين ببنائها الضخم وقبتها الكبيرة. وتحت هذه الأخيرة يرقد جثمان سيدي بوجدون محاطا بقبور سبعة من أحفاده.

ويأتي الزوار من كل مناطق المغرب للتبرك بقبر هذا الولي المقدس. ومن بعيد، يبرز هذا الضريح فوق قمة الجبل مثل كتلة تلج، وتظهر حيطانه المربعة التي تطل بالمحيط كل سنة.

وما يجلب زوار هذه الزاوية الشهيرة على الخصوص، هي الحمة التي سامعت مياهها الساخنة جدا، في شفاء آلاف المرضى. وهي تتبع وسط القرية وتجري مياهها بين المنازل، مشكلة هنا وهناك، بركا عميقة بعض الشيء، تمتلئ بمقد كبير من المعطوبين الذين يتم إبلطهم وإرواءهم مجانا من طرف الزاوية إلى أن يشفوا.

للقريف غني بالمياه المعدنية، خصوصا في الجبال الشاهقة بالمحيط. وتشكل هذه المياه، العامل الاستشفائي الوحيد الذي يفلح الأعالي إلى المجه. ويحمل الأشخاص حرارة المياه الحارة التي يمكنها أن تعلق في ربع ساعة، الأجساد الناعمة لنساء الأوروبيات. وترتبط الأساطير الرقيقة وجود هذه الحامات، بكريمة حصلت منذ زمن بعيد. ذلك أن ولما عظميا في الحصور الوسطى، وهو مولاي يعقوب، الذي كل يحب التجول بمناطق الريف على الخصوص، طلب الضيافة في إحدى القبائل. ولكي يكافئ الأعالي لكرماء على حسن ضيافتهم، فجر بلرضهم نبعنا صلفنا وعظوما يمكنهم استخدامه للاستشفاء وللطفلة عند الحاجة. وكانت تلك هي طريقته في رد الجميل. وبذلك، فإن الحامات التي لم تكن معروفة قبل تلك الفترة، ستأخذ إسم حمام مولاي يعقوب³⁶، وهي القبلة التي ستحتوي كل حامات العالم.

لما الراوية الثانية المسماة زاوية سيدي يحيى ببني حسن، تحتضن جثمان الولي السعيد سيدي أحمد بناسر. وتوجد الراوية الثالثة بميصار، حيث يرقد جثمان سيدي محمد بوزيان. وهي تعرف بإقبال العديد من الزوار، لكن بدرجة أقل مما هو عليه الحال بزاوية سيدي بوجدون.

³⁵ - لقد لي بعضهم بأن جد هذا الولي من أبيه لو أنه، مدفون في موضعين مختلفين، في تارة وفي بي توزين. وهذه فكرة الشبهة في الحصور بلكن متبعة في نفس الوقت، مقترحة بكثرة لدى صلحاء الإسلام.

³⁶ - هذه التسمية مستخدمة من طرف العرب والأمازيغ بالمغرب وبالقلم وهران.

وأساس التهيئة بالقبيلة هو الخبز الذي يصنع بتأثير الفايوط الحلو والمر. ويبدو أن الفايوط المر يقد مرارته على النحو التالي: يتم وضعه بمغزل ويصقى باستمرار على مدى شهر كامل. وبعد هذه العملية، يجفف ويصبح طواء، ثم يطحن ويصنع منه الخبز بعد ذلك.

وقد كان بإمكان الأقسام الخمسة البني توزيع أن تمارس تجارة الفلين، لأن غابيتها مهيئة بهذا الخشب الثمين. لكنها لا تجد أي منافع لها على السهل كي تبيعه للأوروبيين. أما مغربة الداخل، فلا يمكنهم شراءه، لأنهم لا يعرفون كمية استغلاله، لذلك فهم لن يشتروا قطعا واحدا كالمقابل لكل فلين المقام. فكم من الثروات تصبغ في هذا البلد الرائع. ومع ذلك، فإننا نرى في بعض قبائل الجبلية بالريف منازل غطي سقفها بالفلين المقطوع على شكل قراميد مهيحة المنظر. ويبدو أن هذه السقفة مهيئة إلى حد ما، مما كانت تتحمل أحيانا الوزن الثقيل للثلوج، في هذه الجبال القارية الشائعة ذات الشتاء القارس.

وإذا ما كانت الثروات الغابوية قد ظلت غير مستغلة، فإن الطرائد بالمقابل، خصصت لإستغلال ممتع. ففي الشتاء، عندما يكون الرجال بدون عمل وهم رداء شجى سيوك فوق المنطقة الساكنة، يذهب هؤلاء الرجال إلى لعبة مرغوفين ببعض الأطفال ومتبوعين بالكلاب التي تحرس القرية. ويتم تطويق لواء شامع ثم يقوم الأطفال والكلاب بضجيج ساخب. آنذاك تطير أسراب العجل وتهرب الأرانب والأرانب الوحشية Lièvres في كل الاتجاهات، حيث تسقط فريسة القاصدين. وتبدأ حينها مجزرة فظيمة. فالريفي الذي يجهد للتصيد يسقط طريدة هذه كل لحظة. ويتم القضاء على كل الحيوانات، بما في ذلك الخنازير والقنافذ والقنطريون والقطط الوحشية والقطط. والجرذان وبنات عرس التي تواجدت لسوء حظها، داخل الدائرة القاتلة. وبالقرية يتم توزيع الطرائد بين أسر القاصدين، دون أن ينسى الأهالي إرسال الجزء الأكبر إلى الطلبة المرحلين المقيمين بالمسجد.

أما الخنازير وبنات لوى والنسور التي يعتبر لحمها محرما، فتترك هناك للكلاب التي منزعج تلك اليوم إلى القرية، ببطون منتفخة إلى حد الانفجار ويسوقان منفجرة، وهي تخطو ببطء شديد.

القرى للرايسية ببني توزين وتفرسيات

- يفر لفاوس ، 500 منزل، وتوجد عند مصب واد سويدي يحيى الذي يزداد حجمه

بالمياه المعذبة لواد بني توزين.

- الزوينة، 50 منزلاً، على واد بني توزير. وبالقرب من القرية، إلى الجنوب، توجد حصة كبيرة يقام فيها سوق الثلاثاء.
- زوينة سيدي بوجدين، 300 منزل.
- تشاروت، (الأهلة بالسكان)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.
- سيدي يحيى، 100 منزل، على ضفاف واد يحمل نفس الاسم، قرب هابة رقعة من شجر القند.
- موزر، (وادل من المطر)، (التسمية عربية أمازيغية، وهي تحريف للكلمة العربية مطر)، وتعتبر عاصمة تافرسيت، 100 منزل، ويقام بها سوق كبير، يوم الخميس.
- قنوي العسكرية 15 كلم من المشاة؛ عدد السكان المحتمل 75 ألف نسمة. المنطقة الجبلية ومتنوعة. ويوجد سهل، شمال تافرسيت والحديد من القرى الصغيرة.

قبيلة كزنائية

أحياناً تسمى الزنانيا بإخفاء الحرف الأول عن قصد خبيث. وتحد من الشمال ومن الشرق بقبائل ريفية هي: بني توزير، تافرسيت، لمطالصة؛ ومن الغرب والجنوب تسمى منطقة جبلة التي تتصل عنها في أقصى الجنوب وعلى مساحة صغيرة، عبر مغراوة. وهي تمتد على مسافة 80 كلم تقريباً من كل الجهات. وأقسامها الأربعة هي: النير (صدر السرج)، سيدي بنور، ليت علي، ليت دلوود. ويحدها كل قسم 3 آلاف من المشاة، أي ما مجموعه 12 ألف رجل بالنسبة لكل قبيلة. وقد فكر الدرويش في ولوج أعماق لريف، لكنه لم يكن مطمئناً وسط المرتفعات المشجرة التي كان يحدها قلماً من بني توزير إلى سيدي بنور.

قد كان يبدو كثراً وسط الأشجار الصخمة مثل: أشجار البلوط والفلين والفتوب والكتناء والأرز والعرعار والصفصاف والذنب والحوار والستق والحراج وأشجار أخرى شبيهة في ضلعائها بتلك المذكورة والتي تسمح جنوعها الضخمة بإبراز تخرج للمسلح العلوي الذي يتبعه الدرويش.

وبذه المرة أيضاً غادر بني توزير بمرح من الوصول إلى قبيلة مغراوة. وكان يمشي إلى الأمام عازماً على رؤية جباله أقصى لريف الجنوبي والذين لا يكف أعالي الشمال من الحديث عن وحشيتهم.

ولول القاطنين الذين سلكتي بهم في الغابة، هم الطائفة الذين كانوا يجرون بسرعة،
هاريين على ما يبدو من الوحوش لكثرة القرية منهم كالفهود والأسود؛ إذ تشرع الأسود في
الظهور عند هذه النقطة وتغشى النزول إلى السهول الشمالية الأهلة بالسكان.

وعند المساء وصل الدرويش إلى سيدي بنور. بعد أن عبر العديد من القرى التي لم يبق
فيها أترحاب المملوك. وسذهب إلى المسجد الذي كان فارغا، بحيث لم يجد بدخله أي طالب ولا
أي أجنبي، بل فقط أربعة جنود عارية وبعض الحصائر القديمة فوق أرض مسفورة. وسيروي
يركن في المسجد، مضطرا رأسه بقلنسوته، مقلظا بصير العشاء أو النوم. وسبقتي هذا الأخير قبل
الأكل، وهو نوم ثقيل ومريح بعد تلك المسيرة الطويلة خلال النهار. وعند الصباح سيستيقظ من
نومه وسيرفع القلنسوة عن رأسه، ليجد صحننا مليئا بكسكس للشحير، وهو ما سيشره بالقبطة.
ولربما جاء أحدهم بهذا الصحن أثناء الليل، وتركه بجانبه دون أن يوقظه. وبينما هو ياكل منهم
هذا الطعام الغش الذي جعله الجوع لذيذا، إذ يرجال يدخلون المسجد حاملين البنادق على أكتفهم
ويارتدون جلابات طويلة من قصوف الأسود. وسأله رجل لسمر وقصير، يبدو أنه زعيم
الجماعة: "ما هي الطريق التي سلكتها؟" وكانت إجابة الدرويش: "إنها الطريق المعروفة".
وسبقتي لرجل ثانية: "كيف؟ وهل سمع لك الأسود بالمرور؟" إلا أن الدرويش المصير على
المنامرة سيجيب بحكمة قائلا: "ما هو مكتوب لا بد أن يقع". وعلى الفور سيحظى بثقة
الحضور وسيطلب منه لبقاء بسيدي بنور، حيث أن ينقسه شيء. وسيقدم الدرويش للأهالي وعدا
غير محسوب العواقب، يتمثل في تعليم القراءة للأطفال القرية. وهذا الالتزام غير المنروس، كان
سجور عليه الولايات نولا هرويه من القرية بعد أيام قلائل، ليتابع التجوال عبر القليلة. وبإله من
بلد جميل، فالجبال ذات القمم العالية، ترسم في سفوحها وديانا شاسعة مزروعة، كما هو الحال
في فرنسا العزيرة؛ حيث تتوالى بساتين الحصر والفواكه المسقة بكثرة بواسطة المنابع العديدة
التي تنبثق بقوة من المنحدرات العميقة للأطلس.

وباتجاه الشرق، ستبرز الحلفة مطنة عن قرب الغاريت، هذا النهر الرملي الصحراوي
الذي حدد ملك الصحاري مساره، عبر الأراضي الحصينة للمغرب، حتى البحر الأبيض المتوسط.
وتعتبر الحلفة، كما يسميها العرب، والتي ندعوها Stipa - tenacissima، كنبات ثمين يستخدم
لكثير فأكثر وباستمرار. وهي تنبت تلقائيا في كل أفريقيا الشمالية ولا تستدعي أية عناية ولا أية
زراعة. وتوفر منطقة وهران وحدها سنويا، أكثر من 200 ألف طن، لا تذهب إلى فرنسا
للأسف، بل إلى إنجلترا، حيث تعود إلينا وقد تحولت إلى ورق جيد. ولأن المناربة يجهلون
الاستعمالات العديدة لهذه النبتة المعمرة، فإنهم يكتفون بالمصاعبات التقليدية للنعال والقفص والجبال

ومصنعات الأقمشة والحصائر والفرافيل. ويختص أهالي كزنانية في صناعة الأخذية. ففي أيام السوق، يلتقي المرء بصنوف طويلة تضم أكثر من 500 رجل أو امرأة يحملون فوق ظهورهم شبكات كبيرة ملينة بجمال الحلفة الجديدة، التي تباع بأثمنة بخسة لقبائل الشمال والغرب. ويتبصع ريفيو الجنوب من فارس، وليس لديهم أي تعامل تجاري مع سكان الساحل، باستثناء شراء البنادق. فالكزناني الذي يلزم بيته دائما Casanier ينتظر مجيء القباة المتجولين الذين يجلبون معهم منتجات الصناعة التي يحتاجها. وهو لا يلتقي في الغرب ويمقت اليهودي دون أن يعرفه. ويأبى في قرينه، حيث يكره الأسفار ويحس حياء بطريوقية وإن كان يمنح حرية كبيرة لزوجته، إذ بإمكان النساء الخروج سافرات فوجوه والمشاركة في مداولات الجماعة، حيث يتدخل في كثير من الأحيان ولا يتغلبن عن الهندقة التي تستعمل من طرفهن بشكل جيد. ويضفي عليهن لباسهن الطويل، المصنوع من الصوف والمشدود بحزم عند الوسط ولحيتهن العربية الكبيرة، مظهرًا حرييا بشكل كبير.

وابتداء من سن الثامنة، فإن الطفل الذي كان يحس داخل المنزل دون القيام بأي شئ، سيصبح راعيا للبحر أو للماعز، تحت رعاية شخص يكبره سناء مكلف بتنظيمه أسرار القمينة. ولا يجب على قلمان الماعز والأبقار التي ترحى بأطراف القبايات، أن تغامر داخلها، إلا إذا كانت مرفوعة بحراس عديدين متبوعين بكلابهم الحريئة ذات الشعر الأصهب وقتي لا تهاب الخنازير ولا الضباع. وبفضل هذه الاحتياطات، فإن اليهود والأسود نادرا ما تستمتع بلحوم الأبقار أو الماعز. لكن من المؤكد أن الخنازير الكثيرة بالسطقة، توفر لها طعاما يفوق حاجتها. وتمكني الأساطير الريفية أن سيدي عبد الرحمن المجنوب، ذلك الرجل الصالح وصاحب الكلام اللاذع، جاء من شواطئ المحيط الأطلسي بهدف زيارة الشرق، لكنه توقف بكزنانية ورفض الذهاب أبعد من ذلك، بعد أن اشتمل من الطعام المتفر لسكان الجبل الريفيين ومن لباسهم الوسخ المكسي دائما بشعيرات الطلة. وسهولي ظهره للشرق، لينظم هذا القول المأثور واللاذع المتعلق بالقبائل الجنوبية للريف وتحديدًا كزنانية، والذي جاء فيه:

يا لطيف من بلاد الرّي والرا (١) وبلاد الطفا والحلفة

وتلمح الرّي لراعي الماعز الكزناني الذي يلمح قطيعه إلى الاسم صلتها باستمرار الرّي. أما الرا فيقصد به الأهالي الذين يدفعون حميرهم صقطين باستمرار: الرا، وأخيرا، فإن الجزء المتبقي من القول المأثور والمساخر، ينطبق على الكزنانيين. وبالمثل، فإن هؤلاء الذين يصنعون

أخذية للأخرين، ومشون حذاء في بلد تكثر فيه الحلة. ويعني سيدي عبد الرحمن بذلك، أن صلاحي الأخذية هؤلاء، لا ينتقلون أي شيء بأرجلهم. وبدوره، فإن الدرويش الذي اشتهر من طعام كزنية ومن عطاياهم، أن يظل سوى عشرين يوما تقريبا بالقبيلة وسيوجه بعدها شركاء نحو أراضي لمطالصة.

القرى الرئيسية بكزنية

- سيدي بنور، 100 منزل؛
- الخميس، 100 منزل. وقد بنيت على قمة جبل كزنية التي ينبع منها نهران وهما: واد قدير وواد كزنية. وبالقربة نفسها يقام كل خميس سوق كبير وهو ما يفسر تسميته بسوق الخميس. وهناك بالقبيلة 60 قرية منتشرة بأرجائها
- القوي العسكرية 12 ألفا من المشاة؛ عدد السكان المحتمل: 60 ألف نسمة. التعليم منعدم. البلد جبلي وغابوي بشكل كبير والمناخ معتدل سييفا وبارد شتاء. وتكسو التلوج قمم الجبال عند شهري جنتير ويناير والقبيلة متوحشة بشكل تام ومستقلة. وهي لا تأبه بالسلطان بفعل موقعها الجبلي. فالجماعات هي التي تحكم فيها، إذا ما سمح لنا باستعمال لفظة حكم، في بلد تعتبر فيه الحرية العربية لا محدودة

37 قبيلة المطالصة

لم نر إلى حد الآن سوى ساكنة مستقرة بأراضيها، لا تترك منازلها وقرراها إلا مجبرة وتعمل على الرجوع إليها بسرعة كلما أمكن ذلك. وها نحن لأول مرة، نحط بالرحال عند أمازيغيين رحل. وسنقادر الجبل إلى السهل، حيث توجد صحراء حقيقية وهي صحراء الغاريت. لن تبدل المناظر يحدث فجأة، دون تمهيد؛ وهو تبدل جذري يقع أمام عينيك، يفصل اليد للامرنية للصالح القادر الذي يحرك العوالم. وما أن تطأ قدمك آخر تموجات تلال الغرب، حتى يمتد السهل أمامك في شسعته وفي الانبساط اللامتناهي لثمائه العمل تجد نفسك فوق أرض

37 - وهي كلمة عربية تدرجت فيما بعد ووجب كتابتها: المطلسة. لكنها حافظت على التعلق المحلي فيما لقاهذه الثلاثة التي اضمحلها وفي العربية الجزائرية تعني المطلسة: "المغطاة بـ" و "المغطاة تحت" وقد عرفت هذه القبيلة بهذا الاسم، لأنها على ما يبدو، كانت ممتلئة بالأجانب الذين استقروا بها ككثفين مستمرين.

حجرية، تكسوها الرمال، وتختفي أحيانا على مدى مساحات شاسعة، تحت أشغال خضراء من شجيرات الرزوف Jujubier وتحت أعشاب الحلقة الكثيفة. وعند الأفق تظهر قطمان الغزال والنعلم وكائلا أمام مشهد متحرك وأسم كلكتات أسطورية، نصعها إنسان والنصف الآخر حيوان، منقلدة ركبتها وترغرف أطراف مغطها الصوفي (البرلوس) مع الريح، وقد صوبت بذقنها منحنية بعض الشيء إلى الأمام، لإصيلة الهدف. نعم، ها نحن قد وصلنا إلى ذراع من أزرع قوحن الصحراني. إلى امتداد صحراء أنجاد، عند منخل هاريت، على سطح هذا الممر النهرى الغريب، المليء بالرمل. والذي ينطلق من أعماق الصحراء ليختصر عبر الحقول المزروعة، في البحر الأبيض المتوسط، ما بين بحيرة بوعرفة المالحة والحدود التونسية. لننقل وداعا للريف الحقيقي والريفيين أصحاب لهجة تلمازيغت الخاصة. وداعا لهواء الجبل النقي وللشج ولاعتلال المناخ وللإيملى القوي والصلب لسكن الجبل.

ويله من بلد غريب وقاحل ! فكل شيء فيه يتسم بالجدة، الطبيعة والسكان. فالمطالعي يتحدثون التناقية وهي لهجة أمازيغية بعيدة إلى حد ما عن تلمازيغت . وهو نفسه رنقي، أي ينتمي إلى فرع آخر مغاير لإخوانه الريفيين، أصحاب لغة تلمازيغت والذين يسمون أنفسهم أمازيغ (جمع إمازيغن)، والمقصود بذلك الإنسان الذي يتكلم لغة تلمازيغت؛ وذلك حتى يتم تمييزهم عن الرنقيين، أي الأمازيغيين الآخرين.

كما أن الحيوانات الأليفة هنا تختلف عن حيوانات المناطق المشمجة والباردة بالريف. فالحمار والبغل اللذان ينقلان في الجبل يندران في الرمال الصحراوية ويومصهما الحصار والجمل. في المضاعفات المنبسطة والقلرية يجب تتوفر على المرعة، إضافة إلى البساطة والبؤس.

وكفار من شجاع، فإن المطالعي لا يفارق حصفه أبدا، متعلما لا يفارق بذقناته الإنجليزية أو الإسبانية التي اقتناها من المهرين بالشولطي القرية. ولأنه يلف جسده بالحنوك و " بيرنوسه " الخفيف، فإنه يبدو على هيئة عربي لولا نعاله المصنوعة من الحلقة ورأسه العاري وسنحته الأمازيغية. وتعتبر صناعته الرئيسية والوحيدة هي الحلقة. فهو يتقدم في السهل، ممسكا حاصدته بيده ومتبوعا بزوجته. وعند كل نصف دائرة ترسمها هذه الآلة المنقطة على الأرض، تسقط الأعشاب الكثيفة التي تجمعها روجته الشجاعة على شكل حزم صغيرة مربوطة بعنابة. وعند الرجوع إلى الخيمة، يشرع الجميع في قتل الجبل وصنع النعال والقف والحصائر والفرنييل. وتتمتع النساء بحرية كبيرة، وهن سافرات وبذمين إلى السوق رفقة الرجال ويضعن بأرجلهن نعالا من الحلقة، وهن معجبات بأنفسهن لكنهن لسن شرسات، بل هن مستعدات للتكاف.

في الأسواق الثلاثة بالقبيلة مزودة بشتى أنواع البضائع. وتتم لها تجارة الأغنام والصوف والحلقة والخيال المصنوعة من شعر الماعز أو من الصوف الأسود، والزرابي والنباي والسكر الإنجليزيين والبارود والرماس والبنادق والحب والحبوب والحبوب. وسيكون من الخطير التطفل وسط هؤلاء الأشخاص المسلمين الذين يتراوح عددهم ما بين 15 و20 ألف فرد دون أن يكون المرء ممحيا من طرف رجل من الأمالي. ويمكن في هذه الحالة، التجول في هذا الفضاء الشاسع للسوق وهو مطمئن نسبيا.

وبالغرب، نجد بعض القرى الصغيرة المحيطة على المنحدرات الأخيرة للأطلس والتي يعتبر سكانها مستقرين sédentaires. أما باقي أمالي القبيلة فيعيشون تحت الخيام ويخربون صيدهم في كل مرة، بالتحيز عن كلاً قطعهم. وفي فصل الربيع، يهبطون إلى صحراء كجاد، أما في الخريف فيذهبون إلى الغاريت.

وتمتد القبيلة على مساحة شاسعة (80 كيلومترا من كل الجهات). وتتوالى على خمسة أقسام وهي: إكدانس، (أصحاب الأفند)، (التسمية عربية أمازيغية)، الخميس، ريج وفا (قسم السفلي)، (التسمية عربية أمازيغية)، سولاح، الكوت، (التكريط) (التسمية عربية). ويوجد كل قسم 4 ألف فارس، أي ما مجموعه 20 ألفا بالتسمية للقبيلة برمتها، يهبطون جهادا راحلة ويصلون ببنادق لأوروبية.

وبالغرب، في الأجزاء الجبلية، يزرع القمح والشعير بشكل جيد، في حين تظل المنطقة بالشرق قاحلة وجافة، علما بأنها تخترق من طرف نهرين مياههما مالحة، وهما واد مسون (الموحل)، (التسمية أمازيغية)، والذي تكون لفيضاته خطيرة في بعض الأحيان؛ وواد ملوية الكبير الذي شوه اسمه بذكاء، من طرف الكتب الأوروبية. ويحمل هذا النهران مياههما الطينية بمحاذاة الأرض المنبسطة دون ضفاف، فتحتج بصعوبة مسلكتا بالغاريت، ذراع الصحراء هذا، الذي يتقدم بنقطة قوية، ساعيا كلهر أخضر إلى ليصال لمواجه لملية حتى البحر. وبالنسبة يتم استغلال جبل الملح بشكل مزدوج. فهو يوفر الملح الضروري للإستهلاك وكذلك أحجار الرحي الجيدة.

وكنال الرحل، يعتبر أمالي لمطالصة لموصا بلارعين ولطاعي طرق مترسين. وغالبا ما تحدث منازعات بينهم وبين عرب الدهرة فإذا كانوا منتصرين، فإنهم يذهبون كل شيء ويبعدون الجميع.

وإذا ما كانوا مهزومين، فإنهم يتحصنون بجبالهم الشامخة، وأحيانا ما يتحالفون مع بعض قبائل الرحل بصحراء أنجاد، وهم ينتمون إلى زاوية درقاوية (سيدي عبد القادر).

وفي إحدى الأسببات، أفضى محمد بن الطوب الذي كان متوجها بغيمة مضيقه، وسط دوار كبير، إلى مرور قافلة من 400 إلى 500 جمل، تبدو عند الأفق بمحاذاة القنطرة، وعلى الفور، ركب 300 فارس مطلقين جوامعهم وأغلزوا على القافلة؛ وبعد ساعتين رجعوا ومعهم القافلة برمتها. وكانت مكونة من 500 جمل محملة بالقصوف والتمر، بقودها حوالي خمسين فردا من بني جيل beni Guil، الذين تم نزع سلاحهم ونفهم كلرى منها على الأقدام لئلا أحدتهم. * وقد قتل في المعركة عنصران من لمطالصة وآخران من بني جيل.

وتم تقسيم الجمل وحمولتها إلى خمسة أقسام، وزع كل واحد منها على قسم من القبيلة. وفي البد، جاء الأمازيغيون المجاورون للمطالصة وأصقلاهم، طابئين عند الصلح. وقد قبل أملي لمطالصة بإطلاق سراح الأسرى، لكنهم رفضوا إرجاع الخيول، إذ كان الأمر يتعلق بانتقام من بني جيل الذين سبق لهم سطوات من قبل، لأن نهبوا قافلة لمطالصة كانت تعبر أراضيهم بسلامة. وقد حدثت هذه الغزوة تحت أعين المهابة الذين يمكن أن يشهدوا على ذلك، عند الاقتضاء. ورجع الأسرى من حيث لقوا، فرحين ببقائهم على قيد الحياة.

القرى الرئيسية بالمطالصة

- زاوية كركر، (وهو اسم علم ويعني التكل)، (التسمية عربية)، 200 منزل، ويوجد وسط القرية نبع صاف وعذب، ينبثق منه ولد كركر الذي يصب في واد مسون.
- (هرقوب، (قتل الصغير)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل توجد بالشمال الغربي للقبيلة، فوق تل، في آخر منحدرات جبل كزناية.
- القرى العسكرية 20 ألف فارس، عدد السكان المحتمل 100 ألف نسمة، التنظيم منظم. ويمكن السهل من كل جانب، باستثناء الغرب. الاستقلالية تامة.

قبيلة بني عمروث

(أبناء المنطقة الآهلة) ، (التسمية عربية أمازيغية)

سورجب القرويش في رؤية الشمال، خاضعا مرة أخرى للغزوات كرحالة وسهائير لمطالصة وهو سعيد بالمشي على الأقدام، بعد جولاته الجنوبية على ظهر الحصان وقتي كان يجبر على التقليل بها وراء الرحل، المتكئين باستمرار.

ومن بني توزين سيمر إلى بني عسرت، متوقفاً في الجبلية عند قرية كبيرة تسمى
 إيزلورو. وسيمر في وقت كان فيه الأهالي يحشون حلة اضطراب، حيث كانوا يتجهزون
 بحملين للثروع في معركة ضد أكرلوا، وهي قرية معادية خير بجند. وسيتوجه الرحلة بهند
 نحو المسجد، همه الوحيد هو معرفة هل سيتعشى تلك الليلة، لأن عشر ساعات من المشي بمنطقة
 متعوجة، فتح شهيته للأكل. وهناك مسجد حوالي عشرين طابقاً، وهم يتسولون، مرحون على
 قدوم، يتقافزون في بيت الله ويصرخون ويضحكون ويتكلمون. ولأن من الدرويش لا تسمح له
 بمشاركة طعامهم، فإنه سيزوي بركن في المسجد. وكان يعرف بأن هؤلاء الشباب لن يأخروا
 في التحرك داخل القرية، لطلب قوتهم اليومي. وبالفعل، بعد مرور ساعة، وصل طعام فاخر
 سيتقاسمه الجميع بروح أخوية، وهو ما سيؤكد للدرويش بأن الطلبة يعرفون الحلات المسورة
 بالقرية والأماكن المهمة التي تقدم فيها المسكيات بسطاء ودون تماطل.

وبعد لهم معصودة، يستعيد الرحلة المغامر قوته وسيداً من جديد عبور البراري، ملأ
 من قرية إلى أخرى، غير عابئ بما ينتظره في القاد، مثل عدم اهتمامه بلباسه.

إن مساحة بني عسرت صغيرة (20 كيلومتراً من كل الجهات) ويقسمها جبل شاهق،
 وهو جبل بني عسرت إلى جزئين متساويين تقريباً، من الشمال إلى الجنوب. وعلى جانبته تتدرج
 القرى على شكل مدرجات الصروح، وصولاً إلى السهل الذي تحيط به خضرة دقمة من أشجار
 الأرز والبلوط والزيتون والمصنصاف والذلب. وبالسهل، تقاوم أشجار الفواكه، الغزو المستمر
 للفئين الوحشي. ولا تصلح الأرض الصلبة جداً إلا لزراعة القذرة والشعير. ذلك أن تغيير
 المزروعات على نفس الأرض كي تحافظ على خصوبتها، غير معروف في هذه المنطقة التي
 يظل فيها تقليد الأجداد، بمثابة القاعدة المتبعة من طرف الجميع. ويصنع أهالي السهل البارود
 والرصاص، أما أهالي الجبل الذين يحشون فقط من الغابة، فهم نجارون وفحامون وصنّاع
 القطران. ونهين كل عائلة ما تحتاجه من هلام الحطب والحل. وينمو الكرم في كل مكان، حيث
 تتسلق عروشه الأشجار المجاورة، كشجر الكين والجوز والوز والزفروف. وما بين نوفمبر وماي
 تصطبأ لسطح غزيرة، تساهم في سقي الأرض وملاً المخابج. ويظهر الثلج أواخر دجنبر، على قمة
 الجبل الرئيسي للقبيلة، لينوب بعد ذلك عند الأيام الأولى لفصل الربيع. وهناك حقول محصودة
 لرعاية الكفوف والنبشوق.

وتعتبر الجبلية الجبلية بمثابة القباس المعتاد، إضافة إلى السروال القصير الذي يصل إلى
 الركبة. ويتم فوق رأس كل واحد، ضفيرة طويلة من الشعر، تنزل حتى الحزام، من الجهة
 اليمنى للرأس العاري والمطلوق. وما أن يبلغ الطفل سنة أو سنتين، حتى يتم تقب شعمة أخته

وتربيتها بعلاقات صغيرة من النجاس، تضعف التلميع بعناية كي تظل براقية. وترتدي النساء لباسا من الصوف، ومن عفيفات ويتجولن سلفرات لوجوه. أما البندقية المستعملة، فهي بندقية تاغروت فقط. ورغم أنها محدودة التأثير مقارنة بالبندقى الأخرى، حيث أن جزأها المخصص للطلقات عتيق جدا، إلا أنها تظل مرغوبة مع ذلك. فقد ساهمت كما هو معلوم، في حملات الثورة الفرنسية والإمبراطورية الأولى وحصلت بدون رحمة، أرواح كتائب بكاملها ولدت إلى مذابح فظيعة وسط الجيوش.

وتوجد ببني عمريث أربعة أقسام وهي: ليت عبد الله، ليت سعيد، ليت يغزر (أبناء الخدير)، (التسمية أمازيغية)، ليت وذرار (أبناء الجبل) ، (التسمية أمازيغية). ويجند كل قسم ثلاثة آلاف من المشاة، أي ما مجموعه 12 ألف رجل بالنسبة لكل القبيلة. ويمين القياد من طرف الجماعات التي لا تعترف بأية سلطة أخرى.

ويسقى واد بني عمريث سهل ليت يغزر وليت عبد الله. كما أن عددا كبيرا من القرى والبساتين يوجد على ضفتيه اللتين يجري الماء العذب والصالحي بينهما باستمرار.

وقد حصل الدرويش بأعرقوب على وظيفة، حيث عوض المعلم الذي أصابه مرض. وسجنني من وراء ذلك، ودون تعب، عشرين سنتيما تؤدي عن كل تلميذ، دون أن نحسب سلات فزيب والذين التي يتلقاها والتي يمكنه بيعها بالسوق. غير أن حادثا، كاد أن ينتهي بمأساة، سببته عن البيداغوجيا وعن قبيلة بني عمريث. فبينما كان ذاهبا في إحدى الليالي، إلى حفلة زفاف بقرية أعرقوب ذاتها، فتحت نافذة وسمع صوتا يسأله: من أنت؟ أعطته طليقة نارية رهيبة، وقد اختزلت الرصاصة جلابة لرحالة دون أن تصيبه بأذى، مما جعله يصرخ على الفور: أنا طالب. وزمجر الرجل وهو يفلق النافذة صارخا: لماذا لم تقتلها من قبل؟

ووصل الدرويش المرعوب إلى منزل الحفل، معتق اللون، مرتعد القرائس، وكانت القبطة والنأي والطبلية تصدر ضجيجا قويا مرفوقا بزغاريد النساء والبهجة تملأ المكان. وانخرط الولد الجديد في الحفل، ملنا بطنه بأنواع الأطعمة. وعند الفجر، وبعد قضاء الليلة وسط المحتالين، ابتعد بصفة نهائية عن هذه القبيلة التي لا تساوي فيها حياة الإنسان حبة خرنفل.

القرى الرئيسية ببني عمريث

- أعرقوب، (التل)، (التسمية عربية أمازيغية)، 500 منزل على واد بني عمريث.
- أقرقوا، (السكين)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.

- أمزور، (الأول)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل
القوى العسكرية: 12 ألف من المشاة؛ عدد السكان المحض حوالي 60 ألف نسمة، التعليم
القرائي منتشر إلى حد ما. وهناك حوالي 60 قرية صغيرة من 10 إلى 100 منزل، موزعة على
السهل والجبل. وتوجد المسالك في كل مكان. وبالمقابل لا توجد طرق واسعة.

قبيلة بني مزدوي (أبناء تفاح الصنوبر)³⁸

وهي قبيلة صغيرة تمتد مساحتها على 20 كيلومترا من كل الجهات وتوفر على ثلاثة
أقسام وهي: تيزمورين (أشجار الزيتون)، تازروت (الصخرة الصغيرة)، أولاد علي. ويوجد كل
قسم 2500 من المشاة، مسلحين على الطريقة المغربية، أي ببندقية تاغروت، ورغم عددهم
القليل، فإن الأهالي يحظون باحترام جيرانهم الأتقياء بفصل شجاعتهم وعري التضامن التي توجد
بينهم.

وبالشمال الغربي، في السهل الكبير لتيزمورين و تازروت، يزرع القمح والشعير،
وخصوصا الشعير الذي يعتبر الطعام الرئيسي للإنسان والحيوان. ويكسى جبل مزدوي بالجنوب،
بأشجار الصنوبر الصخمة التي يباع خشبها لأهالي تاغروت، من أجل صنع مقابس البنادق.
ويستأذ سكان القبيلة فلكهة الصنوبر التي يحملون إسمها، كما تزدهر عندهم تربية النحل، بشكل
كبير. ويصعب أن تجد أسرة مهما بلغ فقرها، بدون طرية نحل. ويبيع السهل الأصفر اللذيد بقاس
حيث اكتسب شهرة كبيرة، ويتم نقله في جرات صخمة على ظهر الحمير أو البغال. ولا يختلف
هؤلاء الجبلويون الفريحيون في شيء، عن جيرانهم بني عمرث. فلديهم نفس الزي ونفس الأسلحة
والعادات واللغة.

وهم أكثر عرلة من بني عمرث ولا يحبون السفر، كما لا يريدون استقبال الأجانب .
ولأن محمد بن الطيب وجد في هذه القبيلة مجموعة من الطلبة الجوالين مثله والراغبين في
معرفة البلاد أكثر، فإنه سيفتح بني مزدوي وسيود مرة أخرى إلى مساجد كزنلية وبني توزين
وتاقرميت. وستتفرق المجموعة المرحلة بأراضي تمسمان، حيث سيأخذ كل واحد وجهته.

38 - يتنازعات يسمى الصنوبر ثلاثة وتفاح الصنوبر مزدوي.

القرى التسمية بني مزوي

- تيزمورين، (أشجار الزيتون)، 100 منزل، وتوجد سهل راقع مغطى بأشجار الزيتون، وتتضمن القبيلة 50 قرية صغيرة، يوجد أغلبها على سفلي واد تيزمورين الذي يسمى باسم القبيلة.

لغوى العسكرية 7500 من المشاة، عدد السكان المحتمل 37500 نسمة، التنظيم القراني محدود، الأرض مفتوحة، الإستراتيجية تامة.

قبيلة بني ويشك

(لولاد الاستنشاق) ، (التسمية عربية أمازيغية).

سفارق الدرويش أصدقاء التمساليين ليقصص باتجاه الجنوب الشرقي. ولول محطة بلراضي بني ويشك ستكون هي قرية تاليوين الكبيرة التي تحيط بها شجيرات كثيفة من القيق الوحشي. وبالمسجد سجد الرحالة حوالي عشرين طالبا يقرؤون جهرا آيات من القرآن.

ومع غروب الشمس، توقفوا عن القراءة وعلقوا ألواحهم بالحائط دون أن يكلفوا أنفسهم عناء مسح الكتابة العربية البارزة بحروف مائلة. وسيأخذون القف متوجهين إلى أزقة القرية، حيث سيتوقفون عند كل منزل صانعين: " المعروف له". وسيرجعون إلى المسجد بعد أن امتلأت القف بشتى الأطعمة، من كسكس ولحم وفولكه وعسل وبطيخ أحمر (دلاح) وبيض مسلوق وسمك ورؤوس الأغنام المشوية والحلويات والزبدة وطبيخ اللحم بلبطاطس. وباختصار كل ما طبخته سيدات تاليوين من أجل العشاء. وينتعت هذا الخليط من المأكولات المتنوعة، من طرف الطلبة المغاربة بـ " المخلوط"، (وهي تسمية عربية). وبشكل العشاء الطعام الوافر الوحيد بالنسبة للطلاب الذي يكتمل عند لطور الصباح بكسرة خبز يقسمها بمرح وهو يفكر في مأدبة المساء. وبعد أن مال محمد نصيبه من المخلوط، نخل في مبات عميق، في نفس الوقت الذي ظل فيه أصدقاؤه الجدد يلعبون بالأيدي أو يروي بعضهم لبعض الآخر حكايات غريبة. وعند الفجر نهض من نومه وغادر المسجد بهدوء، حيث وجد نفسه بالقبلة بعد ملة خطوة.

وتحتل قبيلة بني ويشك مساحة صغيرة (20 كيلومتر من كل الجهات) وتتضمن أربعة أقسام وهي: تاليوين (المنابع) (للتسمية أمازيغية)، ربع تاج (الربع الأعلى)، (التسمية عربية أمازيغية)، لوت سلم (التسمية عربية أمازيغية)، ربع المبت (التسمية عربية). ويجند كل قسم

2000 من المشاة مسلحين بهنداق ذات طلقات متكررة تم شراؤها من المهربين الإسبان. وتمطي الغابات العالية، العمق الجنوبية، وفي الشمال يغتني الصل تحت خصرة بستين الخصر والقواكة المسقية بواد بني ولشك. ويتغير اسم هذا الواد ذي المياه الصافية والمليئة بالأسماك، قبل أن يصل إلى حدود بني سعيد وتمصل، حيث يصبح اسمه واد سيدي صلح وسيحمل إلى البحر، شرق سيدي لدريس، ما تبقى فيه من مياه.

وتمطي أشجار الزيتون الكثيرة التي تقاوم الريح المستمر لأشجار الصبار، زيتونا واقعا يتم تحويله إلى زيت بعصره تحت رحي ضخمة، بدنية إلى حد ما. ويشكل الريبب الناتج عن الكروم الحديدية التي تتساقط لهم أعلى الأشجار، أحد الموارد الرئيسية للأهلي، إلى جانب الصل. كما تسمح تربية الماعز والأبقار لمالكي القطعان الكبيرة، بوفرة العيش.

لذلك، فإن الفلاحين الكبار هم في غالبيتهم متعندو الزوجات، على عكس حرف الصند لدى الريبيين الذين يكتفون عادة بامرأة واحدة. والشئ المثير للاستغراب، هو أن الاسترقاق غير موجود أيضا في الريف ولا يمكن أن نرجع ذلك إلى حساسية أمازيغينا الشماليين، بل يجب أن نرجعه حسب اعتقادي، إلى سببين محددين وهما: بعد الصحراء الذي يجعل ثمن العبد باهظا جدا؛ وكثافة السكان الريبيين، التي تعتبر كافية للقيام بالأشغال الفلاحية والمنزلية.

ويلبس سكان بني ولشك الجلابة في الشتاء والحاك في الصيف. ورغم جمال المرأة فإنها تهمل في المحلات المنية، لعائدة العلام الصال. ولا تهتم المرأة كثيرا بالحقول؛ بل تجمع فقط الحطب وتأتي بالماء من المنايع ونهيء طعام الفلاحين والحصانين وأطفالها الكثيرين الذين لا تتوقف رغبتهم في الأكل.

القرى الرئيسية ببني ولشك

- تاليليث، (القنطة الصغيرة)، (التسمية أمازيغية)، 300 منزل على واد سيدي صلح.
- تاليوين، (المنايع)، (التسمية أمازيغية)، 300 منزل؛ يقام بها سوق كبير يوم السبت ويقتل أهالي هذه القرية بوجود موظف مخزي، يسمى قنيد الريف.
- القوى العسكرية 8 آلاف من المشاة. عدد السكان المحتمل 40 ألف نسمة. القبيلة مستقلة، وتبحث أحيانا بعض الهدايا إلى السلطان . التعليم القرآني محدود.

قبيلة بني سعيد

لم يكن القرويش الذي يتجول بدون هدف محدد ويعبر القريش بعصر الطمانينة قتي نهر بها الجزائر، مجبرا كبقلي المسلمين على انتظار موكب أو قافلة للمرور من بلد إلى آخر. فأسلمه كانت تسايو جيشا ومظهره الحاتم كان يحويه لفصل من حماية القافلة له، ومرفقه بالأمازيغية والعربية كانت لفصل ألف مرة من كل القريشات (العزيمات) وجوازات السفر العالمية.

وعلى عكس الرأي السائد في أوروبا، فإن الانتساب إلى زاوية إسلامية يتضمن من السليبات أكثر من الإيجابيات، خصوصا عندما يتعلق الأمر بعبور منطقة خطيرة كالغرب. وهذا هو رأي القرويش وبعض الرحالة المسلمين الذين ردوا على مسمى العبارة القتالي: « في الغرب (المغرب)، العربيان عليه لسان الله » وهم يتصدون بذلك أن الأسفل نفسها تعتبر ترفا يحرس الرحالة الذي يرتديها إلى الحظر.

وإنه، فإن نموذج الأمل سيكون هو التجول في الإمبراطورية الشريفة بدون لباس، بمعنى أن يكون المرء عاريا كما ولدته أمه. والملاحظ، أن بساطة الرداء هاته، لا تغطي من التعرف بجد على اللغتين العربية والأمازيغية اللتين لا يمكن لأي أوروبي إلى حد الآن أن يدعي معرفتهما. قد غادر محمد ثايليث (القنصل الصغير) في الوقت الذي لم تعد فيه أسلمه تغطي جسمه. وبذل أن يمنحه أهالي بني ولشك القساء ثيابا فإنهم كانوا ينظرون خلسة إلى أطماره ولم يخفوا رغبته في اقتراحها منه.

لذلك، لم يهتم أحد بدعائه في ليلة من الليالي متبوعا بفتح الكلاب التي كانت تودع على طريقها هذا الجوال الذي كانت ستمزقه إربا لو تمكنت من الخروج من المنزل. فالكلب في هذا البلد المتوحش، هو من الخطورة بمكان، لأنه يظل دائما باستمرار. وهذا هو الوضع المعادي بالنسبة لكل كلاب المعاربة. فهذه الحيوانات الهيمية تضطر لأن تقاتل من الفصائل، فهي تنتظر اللحظة التي يغادر فيها السيد المنزل لمعتزل في الحقل المجاور أو وراء الحائط وبعد انتهائها من هذا الطعام القليل، ترجع إلى مكانها، في تنتظر خروج عضو آخر من الأسرة. وهذا الصوم القديم بضائع من هواجها ووحشيتها. وويل للغريب الذي يسمح لها بأن تلمق جسده، فهي لن تعضه فحسب، بل ستقرسه وتمصر دمه إذا لم يأت أحد لإنقاذه. وقد كشف لي رفيق يوما، عن بطة سله أو بالأحرى ما تبقى منها، قتلا بأن الكلب الذي سبب له هذه القاعة، قسم بمصاة واحدة رطلا من اللحم، ألهمه على الفور أمام أعين الصحبة، إن لم تقل إنه لورده في عملية بلع سريعة.

مستوية القرويش إلى صوب الشمال، ثاركا بني ولشك، وراء خط مستقيم دون مدرجات ودون حواجز، انطلاقا من تاليليث. وهذا الواد المستقيم هو عبارة عن شريط فضي تضيقه سماء صافية، اتخذته القرويش مرشدا له، بحيث كان يسير على صفته ببطء مصفيا أحيانا لنوي طلقة بشفرة أت من بعيد. ولم يكن راغبا في لقاء السكان، لأنه كان يعلم بأنه من السهولة تقبلي رصاصة أثناء المرور ليلا قرب المزارع والقرى الصغيرة.

وعند الفجر وصل إلى تازغوين، وهي قرية كبيرة تتدرج مثل مدرجات المسرح، على جانب تل. لقد حل ببني سعيد، وهي قبيلة بحرية محاطة بتمساح غربا وبقلعة شرقا وبني ولشك وبني بويحيى جنوبا. وتمتد على مساحة 20 كيلومترا طولا وعرضا، كما تتوفر على أربعة أقسام وهي: أيت أحمد، أيت عمر، أيت علي، أمروج، (قمة الجبل)، (التسمية أمازيغية). ويجند كل قسم 4 ألف رجل من المشاة المسلحين ببنادق حديثة تم شراؤها من المهربين الإسبان.

ولرأسي بني سعيد رملة وأرضا صخرية ومجنية ولا يوجد سكان على الساحل. وتنقسم القبيلة إلى شطرين يحجان بالقرى بفضل اختراق جبل بني سعيد لها. وهو عبارة عن تلال متعاقبة تمتد على خط مستقيم من الغرب إلى الشرق. أما السهل فهو جاف تماما، إذ لا توجد به مخابض ولا أنهار، باستثناء واد سيدي صالح بالقرب والذي لا يسقي للأسف سوى جزء ضئيل من المنطقة، لأن مجراه مستقيم وليس منحرجا. وعلى امتداد هذه المساحة الشاسعة لا توجد أشجار، بل هناك فقط الحلفة وبحر متموج من حقول القمح والشعير يمتد نحو الأفق خلال فصل الربيع. وكان من اللازم على كل منزل بناء خزان أو خزانين بشكل جيد وتبليط أرضيتها بالخزف. ومن تازغوين سير محمد إلى زقزوا، وقد أطلقت هذه التسمية على مجموعة من القرى الصغيرة جنوب القبيلة متتالية من الشرق إلى الغرب. وسكان زقزوا القومطي هم من الشرفاء الذين يعيشون في رخاء، بفضل إحصاء الأهالي الوردعين. وغير بعيد عن هذه القرية الكبيرة، تظهر قرية بطوية التي يبدو أن أمازيغي أغرو (بطوية) ينحدرون منها. وهو ما يؤكد الأهالي أنفسهم، وما يؤكد أيضا سكان بني سعيد الذين يتنن إلى وهران للإشتغال في الفلاحة لدى المعمرين.

وأثناء مقامه ببطوية، كان محمد ينتهر الفرصة للحديث عن الإخوة الجزائريين الذين جعلهم " مكتوبهم " للأسف، تحت سلطة القنصاري. ومنذ سنين عديدة، ظلت الحدود قائمة بين بني سعيد وبني بويحيى. ولا يمر شهر دون أن يؤدي تغفل هذه القبيلة الأخيرة داخل القرى الجنوبية لبني سعيد، إلى اللنار. ورغم أنهم أكل بأس، إلا أنهم يقاومون بشجاعة وينتهي بهم الأمر، بفضل تدخلهم، إلى طرد أعدائهم الشرسين باتجاه الجنوب. وترجع هذه الحدود القديمة إلى سبب تله. ففي أحد الأيام وبينما كانت بعض نساء بني بويحيى يقمن بزيارة قبر الولي سيدي عيسى، إذا بهن

وسمعن كلمات بذينة تقوه بها رجل من بني سعيد ، حيث جاء على لسان هذا السلال عديم الحياة ما يلي: " ماها.. بكى لا راتن صغيرات.. ألا تخشين من مكروه؟ ما رأيكن في أن...؟. هذا بالإضافة إلى العديد من الحمقات التي يتقن قناس العديم التربية، في قولها ببلاهة. ولأن سيدي عيسى كان مكانا مقدسا، فإنه من البديهي أن تعمل الشرائع الإلهية والإنسانية على معاقبة المذنبين. وعند رجوع النساء إلى بيوتهن، تشتكين إلى أهلن وأخبرن أقاربهن بالإهانة الفظيمة التي سببها لهن السعدي. وعلى الفور نظمت حملة كبيرة، من طرف رجال بني بويحيى الأقوياء والبالغى القسوة الذين قاموا بغزو بني سعيد، ناهين وميدين كل شيء، حيث استولوا على الموالشي وأخرجوا مخازن الحبوب وأحرقوا المساكن. وبعد مجهودات جبارة، تمكنت قبيلة بني سعيد المهزومة، من نحر أعدائها خارج حدودها. غير أن الصراع الأبدى سيكرر كل سنة، مع تقارب في النصر والهزيمة، حيث أن كل طرف كان يدافع عن كل شهر من أراضيه.

وبعدا عن مسرح الحرب، يزول سكان ثلاثة خلجان صغيرة وهي: مرسى سيدي حسان، مرسى سيدي أحصري ومرسى سيدي عيسى، مهبة الصيد والملاحة الساحلية والقرصنة. وتستعمل قواربهم لهذه الأعمال مجتمعة .

تخلوا معي صيدا واقفا أمامكم. ألا يبدو لكم مسالما، منهمكا في صله، هنا عندما يأتي شبكته وسط أسراب السمك؟ في الواقع، علينا ألا نفتقر بالمظهر. فحينئذ الحادثان أصبحتا مركبا شراعيا في الأفق. وعلى الفور سيخبر رفاهه بواسطة الصغير، وسينضمون إليه بسرعة بواسطة قواربهم . وفجأة سيصبح الصيد المسلم، قائد أسطول صغير escadre، لأنه أول من رأى المنية غير المنتظرة. وإذا كان المركب المشار إليه كبير الحجم، فإن القراصنة لن يجنوا شيئا من المجهود الذي بذلوه في التجنيب.

لما إذا كان الأمر يتعلق بسفينة أوروبية صغيرة أو بقارب من قارب ريدي الشاطئ أو بزورق تائه وسط المياه، فإن أصحابنا لن يترددوا في مطاردته. وويل للنصارى إن هم سقطوا في قبضتهم، إذ يتم ذبحهم ببرودة دم، وأحيانا ما يساهم إعلان الشهادة، في إلقاء حياة الأوربيين الذين تم أسرهم من طرف هؤلاء المتوحشين.

لما الملاحة الساحلية لتمثل في نقل المسافرين إلى توطاون (تطوان) وطنجة ومليانة. والمهمة الوحيدة بالنسبة لأهالي الداخل هي الفلاحة وهم يستخدمون الحفلة بكل تأكيد، لكن فقط من أجل صنع نعال عديمة القيمة أو الحبال.

ويوجد بالقبيلة سوقان. سوق الجمعة برقرارا وسوق الإثنين بأمروج. وهناك تباع كميات كبيرة من الشاي والسكر الإنجليزي والتي يتم جلبها من فارس. وقد أكد لي بعضهم بأن قلب

السكر من أربعة إلى خمسة محلوهرات لا يسوي أكثر من فرنك. لها للحقيرة التجارية لهؤلاء الإنجليز ! إذ كيف يبيعون بئس بفس، مادة باعظة القطن في أوروبا؟ إنني أعلم بأن قهروب الإنجليزي يدخل إلى المغرب كمية هائلة من التبضع. ومع ذلك، حتى ولو كانت هذه البضائع مهربة، فإننا نتساءل كيف يمكن أن تباع بهذه الأثمان البهسة؟.. لماذا لم ننشئ من جانبنا أسواقا حرة بنمور Nemours وندرومة واللامخية وتلمسان وعلى طول كل حدودنا الوحرانية، في كل مكان توجد فيه قرية أو قبيلة وحيث يمكننا أن نقوم معاملات تجارية ؟ إنها ستكون ضربة مميّنة لتجارة جيراننا لما وراء القماش..

إن الطعام ، وإن كان أفضل من طعام الجنوب الغربي، ليس لهذا مع ذلك، إذ يتكون دوما من البصل (كسكن الشعير مخلوط بالفلو) وخبز الشعير الخشن وغير المطبوخ بشكل جيد. ويرتدي رجال جلابة من الصوف ذات خطوط صغيرة، بيضاء وسوداء. أما النساء المتلفعات إلى حد ما، فلا يتحجبن. وهن موثقات بالأثواب القطنية، الإسبانية والإنجليزية، التي يصفن منها قصة ذات أكمام قصيرة. وهن يهوين الاستحمام بشاطئ البحر، قرب سيدي عيسى وبعضهن يحترن السباحة. كما أن وصمتهن الأسرية لا تثير الحسد مثلما لا تثير المشقة. فهي نفس الوضعية التي حددها القرآن في كل بلاد الإسلام، أي أنها مقبولة بشكل عام وذات ارتباط وثيق بنمط عيش المسلمين. وعلى أية حال، فإن المسلمين لا يشكون من هذه الوضعية وليس هناك داع لتغيير وضع اجتماعي رغم ثرائه، ما دام يتضمن على مستويات عديدة جوانب أفضل من نظامنا. فحينما أصبحت الأسرة عندنا عرضة للتفكك، حيث يجر كل طرف الحبل إلى جهته، ولم يعد هناك تقريبا ، أي امتثال للسلطة الأبوية ما دام النموذج لفظ السائد هو العروبة أو تحديد النسل، فإن العقلة المسلمة ظلت إلى حد الآن أبوية، مثلما كان عليه الأمر في الزمن القوراني، أي قوية ومتعددة ومتراصة حول رئيسها المبجل الذي تعتبر مجرد إشارة منه، بمثابة أمر مطاع على الفور.

ولا تعتقدوا بأن المرأة لم تنشئ في الوسط الإسلامي وضعا أسما من فوضع المحدد دينيا. واستحضر هنا شهادة بعض المسلمين أنفسهم الذين أحاط بهم بالقول: * لماذا لا تصرحون أبدا بالحقيقة ؟ لماذا لا تعلمون عن ما هو حقيقي وما اكتشفته مرات عديدة، وألحد السيدة المطلقة لزوجاتكم داخل المنزل؟³⁹ لماذا تتركون كل هؤلاء الرعاع السفلة الجاهلين يتحدثون من وراء ظهوركم، وهم الذين لا يعرفون ولو كلمة واحدة بالعربية أو بالأمازيغية. ومع ذلك فهم

39 -) بما أنني أكتب من أجل النخبة، فهل من الضروري أن أؤكد للحوال المثقة التي تروني، بأن هناك استثناءات لهذه القاعدة، وفيه يوجد لدى كل الأعراق وفي كل عائلات العالم، أزواج سيذون وزوجات سيذات جدا؟

يستمدون معلومات من مجتمعكم، من الأوغاد لصحاب الشائبة ومن ماسحي الأحنية في الساحات المصومة؟

ولست مطلبا بالبحث بعيدا عن أمثلة حول السلطة المطلقة التي تمارسها المسلمات على أزواجهن المتواضعين داخل المنزل والمتجعين خارجه. لنأخذ إذا ما سمعتم، مثال الدرويش فقد افتخر ألامس بكونه يسيطر بيد من حديد على الأرملة التي تزوجها بعد وصوله إلى وهران بفترة قصيرة وبواسطة بعض الأصدقاء. والحال ، أنني كنت شاهدا في العديد من المرات على وضع الدرويش المثير للشفقة، أمام زوجته الرهيبة التي كانت تأخذ منه كل مخزواته، فلما فلما، لتورعها على ألبانها الثلاثة من زوجها الأول. وفي إحدى المرات، رأيتها تشد بخناق محمد بيدها المتشبعتين فقد كانت ممسكة بتلابيب جلابته، طالبة منه فرنكين لشراء القهوة والسكر اللذين حرمت منهما منذ يومين على حد قولها. وكانت تكتب طبعاً، لأن الدرويش كان يدها بكل المال الذي يكسبه. أما داخل المنزل، فقد كان الأمر قطع، إذ أن الأطفال الثلاثة للمدعي التربية والمؤثرين من طرف أمهم ، لم يكونوا مطيعين لأوامر محمد الذين يعتبرونه مجرد دخول عليهم. وفي أحد الأيام، رفع هذا الأخير يده لضرب أحد هؤلاء الأطفال الفظيعين، لكنه تراجع مرهوبا أمام انظر الأم الموجهة صوب عينيهِ. ولأن القنيس كان يعلم بأنني مطلع على مصائبه الزوجية، فقد روى لي مشاكله وأخبرني بأنه قرر الهروب من وهران وترك هذه الأرملة المقيمة هناك. ونظرا لأنني متمسك بإنهاء كتابي حول المغرب فقد أسديت له خير نصيحة بقولي: " لم تسمح ليها لمعمل، قبل أن تقدم على رواجك الأخير (لأنه تزوج من قبل ثلاث أو أربع مرات)، بالحكمة العربية حول الأرملة والتي تقول:

نوصيك لا تلغز الهجعة ﴿﴾ ولو كان خدما مشموم

أنت تخدم خدمة الرجال ﴿﴾ وهي تقول الله يرحم المرحوم "

ويمكنني أن أذكر بسهولة أسماء أخرى لأزواج مسلمين، خاصمين بالمطلق لزوجاتهم اللواتي يعملن بهم ما يشأن. فمن جلال أسعاري إلى تونس وعبر ألبانيا الجرائرية الثلاث، التقيت في العديد من الأحيان، عربا وأمازيغيين يحبون زوجاتهم ويحترمونهن بشكل كبير، حيث لا يتخذون أي قرار دون مشاورتهن، وهم مخلصون لهن ويعتكون بهن ويعلمون بصراحة لأصدقائهم الحميمين، بأنهم يفضلون زوجاتهم على أطفالهم. ونحن نعتقد عكس ذلك في أوروبا، لأنه لا أحد من بين المستعمرين رفع صوته لمواجهة هذا الخطأ فلو تمكن الكتاب الأوروبيون

الذين وضعوا مؤلفات حول العرب والأمازيغ، دون العلم بلغتهم ولا بهجاتهم، من تلك في الأخطاء الفظيعة التي ارتكبوها، لملأوا بحرق النسخ المتبقية، المتداولة في المكتبات. وللأسف، فإن المستشرقين⁴⁰ قد سمعوا الجهلة بالسيطرة على هذا المجال المنطبق بالمعادات العربية وحيث فيه كما أرادوا، بحيث لم يقف لهم بالمرصاد، أي معارض ولا أي نقد ممكن، يظهر لهم خواصهم. ويزداد هذا الشر استفحالاً كل يوم. فهؤلاء الأشخاص غير المسؤولين الذين شجعهم قصص المتعجبين للمتخصصين، ينشجون باستمرار أخطائهم المظلمة بجمل جوفاء رنانة ومؤثرة. أما جمهور الأوروبي لطبيب، فإنه يتبع هذه الجرعات حول المغرب والجزائر وتونس والمناطق الإسلامية الأخرى. ولما أعظم، بأن القسطنطين سيطر هذا تركهم من الفترات التي يتجاوز فيها الاتصال مع الأخطاء. ولقد ليها الكتاب الأوروبيون الذين تريدون الحديث عن العرب والأمازيغ وعن بلادهم، بشكل دقيق، اتبعوا هذه النصيحة: تعلموا أولاً لغتهم الصحيحة بشكل لا يصدق وبعد ذلك، اكتبوا عنهم، وما ستجرونه سيكون جيداً.

إن قبيلة بني سعيد تمتاز بتربية الماعز والأغنام والخيال التي تباح في الأسواق مقابل نقود فرنسية وإسبانية. ولا يطرح أي مشكل بخصوص هذه النقود، فهي تقبل على علاتها، سواء كانت قطعة فضة أو ذهبية، متقوية أو مزورة، المهم أنها تفصل على النقود المغربية. وتوفر الأجراف الموجودة على شاطئ البحر مسغورا رحوية جيدة، يصنع منها الأواني رخي، يصدرونها بعد ذلك إلى كل الساحل الريفي حتى نواحي تطوان (تطوان). وتوجد مستودعات كبيرة لهذه الرخي بالمغارات الطبيعية لهذه الأجراف.

وداخل المنازل، تعتبر الدواجن ملكية للنساء. وهن يربين الدجاج فقط. أما البط والإوز والديك الرومي والحبشة، فهي غير معروفة. وينطبق هذا الأمر على الريف برمته، ويجري الدجاج في كل مكان بفناء المنزل بلحفاً عن طعمه وسط فضلات المرائشي. كما تستأجر ربة البيت بما تحصله من بيعها لمنتجات هذه الدواجن وتشترى بذلك مواد زينتها (مشط، مرآة، خلخال، لسورة، عطور).

وبالمزول أيضاً تربي القطط التي تملأ بطنها، ليس بالأطعمة اللينة التي لن يقدمها لها أحد أبداً، ولكن من خلال صيدها للنشيط للقران والسحليات والعصافير إلخ... وفي الريف برمته، خصوصاً عند بني سعيد وتمصمان والقلمة، تقام بمناسبة التوعة⁴¹ أو حفلات الزواج، سهرات

⁴⁰ - تكلم هنا عن أولئك الذين يملأون اللغة العربية وأدبها، مسجون لهم قلوبهم، لكنهم على قلوبهم، متعمدون جداً في مبادئهم.

⁴¹ - وهي حفلة إسبانية، تقام على شرف أولياء المنطقة.

لونية، متبوعة بالاعراب شبيهة بالفلانزيما ، لكنها ترم بكون جيد. فبعد عشاء فلفر مكون من اللحم المطبوخ بزيت تحرق اللحم بسبب التوابل القوية الموجودة بها بكثرة، يختار النساء والأطفال والرجال والشيوخ مكانا ملائما خارج القرية، هو عبارة عن حقل للمناورة، يسمح للمتعارفين بالتحرك كما يشاؤون.

وسجلت النساء والأطفال وعازفو الداي وقارعوا الطبل، القرفصاء على خطين متوازيين، ووسط هذين الصعين ستوقد نار نصية المشهد. وتبدأ النساء، الشابات والمجوزات، بإنشاد لشعار أمازيغية ترتجل في قلب الأحيان لهذه المناسبة. وتجييها نغمات الداي وأصوات الطبول بضجيج يوقظ الميت من قبره كما يقال. وغداة تتوقف الموسيقى ويرتجل الموسيقيون بدورهم لشعرا. وعندما ينتهون من آخر بيت، يستأنفون من جديد القفح في قصباتهم والصرير بقوة على الطبول المصنوعة من جلد الحمير. وعند الفجر، يوزع " المسمن " و " التريد ". وبعد هذه الوجبة الخفيفة يتهاى المحاربون لمحركة وهمية، فيشكلون دائرة كبيرة ويضرب عشرون رجلا من الجهتين، المتقابلتين للدائرة، عشرة من كل جهة، ويتقدمون باتجاه بعضهم البعض. وسبعث الانقطاعي مركز الدائرة بالذات ، وها يرفع صوت سالما: *Aouith ithid ! Aouith ithid !* *a ifrakh* (احملو... احملو... أيها الأطفال)⁴². وتستبدل الكلمات الأخيرة وسط رشقات جماعية مضبوطة من عشرون بندقة، صوبت فوهاتنا نحو الأرض، مما سيؤدي إلى تطاير غبار كثيف. وفي الوقت الذي يرجع فيه المحاربون إلى أماكنهم، تتصاعد زغرذات النساء الحادة وتقرع الطبول مساهمة في تحريك وجدان الحضور.

وستتقدم عشرون بندقة أخرى وسط الساحة لتقوم بنفس العملية بحيث سيستمر نفس المشهد حتى وسط النهار، باعثة لدى المتفرجين والفاعلين حماسا يصل إلى حد الهياج.

القرى الرئيسية ببني سعيد

- تيلزوين (الضعاف)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل، على المنحدر الشمالي لجبل بني سعيد وتوجد بها شجيرات التين الوحشي بوفرة.
- سيدي حسان، 100 منزل، على البحر الأبيض المتوسط.
- سيدي محمد والحضري، خليج صغير، 100 منزل.

⁴² - المقصود بكلمة احملو هو البارود وهو مذكر بلغة تامازيغت.

- **معدى عيسى**، 50 منزلاً، دلفل الخليج، يؤمه الزوار بكثرة، وهناك قبر باسم سيدي عيسى موجود بمضلى صغيرة وسط القرية. ويخترق هذه الأخيرة جدول صغير هو ولد سيدي عيسى الذي يلتقي في البحر كمية قليلة من المياه.

- **زقزوا القحطانية** (الخضراء القحطانية)، (التسمية أمازيغية عربية)، 300 منزل.

- **زقزوا القوقلية** (الخضراء القوقلية)، (التسمية أمازيغية عربية)، 300 منزل بالشرق.

- **بطيوا** (القصة)، (التسمية أمازيغية)، 20 منزلاً، جنوب زقزوا.

- **سوى الاثنين**، هو مكان شاسع غير مسكون، تجتمع فيه كل يوم كتين عشود هائلة. ويهر واد ككوت شرق الشرق، مشكلاً على مجرى مستقيم، حدوداً طبيعية بين بني سعيد والعمية. وتوجد لكتر من 200 قرية على منحدر جبل بني سعيد.

لقوى العسكرية: 12 قناراً من المشاة؛ عدد السكان المحتمل 80 ألف نسمة. سهل شاسع، باستثناء جبل بني سعيد القليل الارتفاع. التعليم القرأني محدود. القبيلة مستقلة، لكنها تعال مع ذلك تواجد ممثل للمغربيين بزقزوا، نظراً لقربها من الأسبان المتواجدين بمليوية.

وهذا الشخص الذي لا يتوفر على أية سلطة، يمنع لنفسه مع ذلك، لقب قائد الذي لا جدوى من ورثته. وكل اسم هذا الشخص أثناء مرور الدروبش بزقزوا، هو الحاج العربي قولشكي.

43 **قبيلة بني بويحيى** (التسمية عربية أمازيغية)

كانت ربح شرقي تهب بقوة، مساهمة في نبول الشبح فوق الرمال الحارقة للغاريت الشاسع، هذا الشبح الذي يثبت في مثل هذه الصحاري. وهناك رجل واحد تجراً وغادر زقزوا في جو كهذا تاركاً البحر وراءه ليفوح في الجنوب بخطوات كبيرة. فهذا الهنيس أن يكون عرضة للاعتداء، لأن أسنانه بالية ورأسه عار ورجليه حافيتان. وكانت الشمس الإفريقية الحارقة ترسل أشعتها القارية على رأسه الحديدى. ومع ذلك، فقد ظل يتقدم إلى الأمام، غير أنه يهيران

43 - بالنسبة لقاسالينات وكل اللهجات الأمازيغية الأخرى، فإن الألف المقصورة التي تنتهي بها أسماء الأعلام العربية، تتحول في الغالب إلى ياء. مثلاً موسى بالنسبة لموسى ويحيى بالنسبة ليحيى

السما والباحثين السهل. عند حدود بني سعد، قرب سوق الخميس، ستمر الحين الثانية للدوش من بعد، هو إلى حشر جيد تساق الرياح ورأسها إلى الأمام وتثير روية بسبب سرعتها الجودية. وسوق هذه الجود حتى بعد خطوات منه، بعد أن شد لجاسها من طرف ركنها. عندئذ غاطب شخص طويل الفسة الدوش. من فوق ركنه ومحركا عصا طويلة مطوقة، متحدثا ناعما يمت:

- أهلا.. هل أنت من بني سعد؟

- كلا، أنا من بني ولساء.

- إنك تكذب، فأنت من بني سعد

ولاح الشخص بمصاء المطوقة، متظاهرا بطعن الجوال الذي لم يتوقف عن تردد: "أنا كنت سمديا، أنا طالع جئت هنا للدراسة". وسأله الرجل بعد أن توقف عن جس عنقه بمصاء:

- طيب، قل لنا، هل تدوي قبيلة بني سعد مهاجمتنا قريبا؟

- طبعًا لا، فأنتم تعرفون أنني من بني سعد بخالفونكم. أما الذي يمكن هؤلاء الرجالين

بمساء أن يظهروا أمام جفكم؟

وال هؤلاء الفرسان لم يطمئنا إلى تواجدهم بأعداد قليلة داخل أراضي العدو، فلبهم عدوا من حيث أنوا، وركب محمد وراء واحد من بين هؤلاء الفرسان فاطمي قطرق، ليعود الجميع إلى القرية الموجودة على مسافة قريبة، جنوب سوق الخميس. وللإحتفاء بوصول الجوال الذي ادعى بأنه حاكم كبير، تم ذبح خروف وطبخه في العديد من القدور وأكله من الخمر. وسيفسي الرجال ليلتهم في الخمر وهم يشربون الشاي ويتحدثون فيما بينهم. ولأن محمد بن الطيب كان قليل الكلام، فبقه كل يكتفي بالإنصات وبالملاحظة والقلم وكان موضوع الحديث ينطق بالفزوات وبالجملات الجريئة التي يشوب لسماعها شعر الصبوان.

وعند منتصف الليل خلد الجميع إلى النوم، وتم إختال الدوش إلى خيمة واسعة، فاست إلى جرائن بواسطة الحصى الطويلة التي تسدها. وفي جهة تمام الأسرة مجتمعة بصف طويل، سيشتل الدوش أحد أطرافه، وفي جهة أخرى تتواجد الجود التي كبلت أرجلها والجمال السرفسة التي شددت أرجلها بشكالة من الصوف. وبالمساحة التي تحيط بها مائة خيمة بالدوار، توجد الخراف والماعز والأبقار التي تجتر بهدوء تحت ضوء النجوم. وقد تتحرك أحيانا ببطء وبشكل جماعي أمام نهج حوالي مائة من الكلاب التي تغير من كل الجهات عند سماعها لأصوات بذات لوى الحادة أو لأصوات الضجاج المنسوزة. لذلك تتعرض الخراف والماعز والأبقار لمضات الكلاب الباهتة عن مكان لها وسط القطيع، وتغزو الخيمة وتلوس وهي في حلة رعب على

الرحل القاتميين. وبالرغم من هذه العجوبة، فإن الدرويش كان يستمر في شغفه مطمئنا، لأنه متعود على ما هو أصعب من ذلك.

وظل محمد يوسن عند استقلته الجند، ثم تطلق متجولا في البلاد، دائما في الدواوير، ركبها الحصان، مشاركاً في غزوات جريئة بدافع الفضول، ممسكا كمارس غير صحتك يعرف حصان الصحراء " شارب الريح" الذي يلتهم القضاة الشاسعة سريعا كالبرق ودون كلل. وكاستراتيجية جيد، فإن الدرويش أقام موقفه الرئيسي بالكرب، وهي زاوية مخصصة لميدي محمد بن قنور. ومنها كان ينطلق نحو المناطق الأخرى ثم يعود إليها لاسترجاع قواه وأخذ قسم من الراحة في هذا المكان المضيق.

توجد الآن بقيلة بني بويحيى، وهي قبيلة كبيرة من الرحل توجد بجنوب قلعة. مساحتها 40 كيلومترا طولا وعرضا وتتضمن خمسة أقسام وهي: إخيلى (للصوم) بالشمال، (التسمية عربية أمازيغية)، والمرت (الجافة) بالوسط (التسمية عربية) والتي تنقسم بدورها إلى قسمين وهما: الفلرت وبني أحمد؛ الكرت (الحجر) (التسمية أمازيغية)، ربع وادا (القسم السفلي) بالجنوب (التسمية عربية أمازيغية) .

ويجند كل قسم 5 آلاف فارس

وإذا ما استتبنا جهة الغرب، حيث يوجد خط طويل من الفلال يمتد من الشمال إلى الجنوب ويتحول بعض الشيء نحو الغرب، ابتداء من الوسط، حيث يسمى تارة جبل بني بويحيى وتارة جبل الكرت، فإن المنطقة برمتها هي عبارة عن سهل شاسع مكسي بالشيوخ والحلقة، وقطعه واد الكرت الذي يحمل قطرات من المياه إلى البحر الأبيض المتوسط، غرب قلعة. ويتوج جبل الكرت ببقايا غلبة لم يبق منها إلا الأثر بقع الحرائق والرعي وقطع الأشجار الذي يتم بدون حد ولا تعقل.

وقد غرت الحلقة المحدرات الأولى للفلال. وتساهم هذه البنية التي تحترق كل سنة، في تآكل الأشجار التي تشكل الواجهة الأمامية للغابات الموجودة بقمة الجبل. ويستعمل بني بويحيى الحانة بطريقة أصيلة، حيث يصنعون منها خياما كبيرة ومتينة جدا. وهل من الضروري التفكير بأن الأحذية والحبال والحاصلات وممسحات الأقدام والشباك والفربال المستخدم لطهي الكسكس، مصنوعة جميعها من الحلقة؟ لكن صحراء الفلارت لا تتضمن الحلقة فقط. فهناك حقول صالحة لزراعة الشعير وحتى القمح. لكن الثروة الرئيسية للرحل تتمثل في مواشيهم. فترية الأغنام والحياد تسمح لهم بتحصيل مكاسب هامة، إذ أن الصوف الأسود والأبيض المتميز بجودته، ورغم

ثمنه البخر (50 سنتيما فقط للجزء loison) هو بالنسبة إليهم مصدر ربح مؤكد أكثر من ماصيد الحبوب.

طبعاً فإن الفلارت، هذه الفزاح الغربية الصحراء، قد جعلت ريفي بني بويحيى رحلاً. ورغم أن عاداتهم مغيرة لعادات إخوانهم بالشمال والغرب، إلا أنهم حافظوا على لهجة تامازيغت الخفيفة تقريباً. وهم يرتدون أيضاً الجلابية القردية في فترات الراحة، لكن ما أن يمتطوا جوادهم حتى يرتدوا الحائك الأخف والأقل مضيقاً. ذلك أن الأكمام القصيرة والضيقة للجلابية تمنعهم من استعمال مخطافهم الحشوي بمهارتهم المعبودة. والمخطاف هو سلاح خطير، يمسك الرجل من حقه أو ثوبه أو كعسه ويرفعه وقد حبست أنفاسه أمام غاطفه الجالس فوق سرج الحصان. وأفضل من المخطاف الخطير، فلي الفارس مسلح بسيف ومسدس وبنقوية. ويحتمل هذه الأخيرة ضد الغرباء الذين يريد القبض عليهم أو قتلهم. أما المخطاف فهو شخص أساساً لأسر أهلي القبائل الأخرى، فتعطرية فما بينها باستمرار.

ويركب الفرد من بني بويحيى حصاناً مسرجاً بشكل رائع على الطريقة العربية، وهو يبدو برأسه العالي ولحيته الكثيرة ورجليه وساقيه الماريتين كمتوحش يتلخص مظهره مع الحلي الذهبية والفضية التي تزيى اللجام والسرج. ويعشق متابعه الغزلان والقمام دون أمل في الإيقاع بها، بل للاستمتاع فقط بمسابقة الريح ورفع هذه الحيوانات المسالمة حتى البحر. ورغم كل المصايفات التي تتعرض لها من طرف الإنسان، فإنها ترجع إلى مأواها بالربوع الخالية المفضلة لديها.

وتبدو علامات الذمعة على أهلي بني بويحيى، وهو ما يمكن تلخيصه من خلال ملابسهم الفاخرة والحلي الذهبية والفضية التي يتوفرون عليها. أما النساء فهن جميلات إلى حد ما، لا يتحجبن أبداً ولهن مترمّمات. وهن يشاركن الرجال أحداثهنم كرفقات ولا يتصنعن الذمعة بل فهن يقمن لأكثر من واحد، دروساً في الحكمة والحس السليم، لكن عيون الصغير الذي يشترك فيه مع الرجال، هو عشقون للشاي، وتحديداً للشاي المحلى بشكل بشير الفتيان. فإمكان أربعة رجال وأربع نساء أن يرتشفوا في أسمية واحدة حوالي ثلاثين كأساً من الشاي لكل واحد، مستهلكين بذلك قلباً من السكر نعمة واحدة.

وتوجد بالقبيلة أربعة أسواق وهي: سوق الجمعة بقسم بغيان وسوق الإثنين بالكرت وسوق الثلاثاء بربيع وادا وسوق الخميس.

ونباع البصائع هناك بأثمان بخسة، حيث تؤدي مبالغ زهيدة مقابل جبال من الصوف المجتر من ظهور الكباش فلارت فضيحة.

ويتحالف بني بويحيى مع قبائل صحراء انجاد. وحيثما يتقرر القيلم بغزوة من طرف القليد الخمسة أو ستة بالقبائل المتحالفة، فإن كل قسم يقدم العدد اللازم من الرجال، وكل من أحجم عن القيلم بذلك، سيخضع لعزيمة من 100 إلى 150 غراكا. وتوزع العزيمة بين كل قبائل المشاركة في الحملة. وبطبيعة الحال فإن القليد يحظون ببعض الامتيازات أثناء عملية التوزيع.

القرى الرئيسية ببني بويحيى

- الكوت (الحجر)، 100 منزل؛
- سوق الخميس، 10 منزل؛
- سوق الجمعة، 20 منزلا.
- القرى العسكرية: 25 ألف فارس، عدد السكان المحتمل 125 ألف نسمة؛ الصحراء مكنسة بالحافة والشوح يتم تعلم القرآن ببعض الشيء تحت الخيام. ويوجد بالقبيلة طابع مثل من الأغنام.

قبيلة قنينة⁴⁴

(تصغير لقلعة) ، (التسمية عربية أمازيغية)

انطلاقا من قرية الجمعة إلى الحدود الجنوبية لقلعة يمتد السهل دون وجود أية شجرة ولا لأي دوار ولا لأي منزل. وفجأة تبرز تلال بني بويغور العاربة والمكونة لجدار ممتد من الشرق إلى الغرب سيجير القارت (الفاريت) على التوجه يمينا نحو كبدانة وطريفة. وما أن يخرق واد كرت أراضي قلعة حتى تمتلئ مسطاه بالقرى. ولن يعود لأمسا ذلك الخدير الصغير بدون اسم، الذي كان يتفادى التسرب داخل الشقوق الحافة للقارت، فهو يجري الآن فوق أرض كل جعافا، منتعشا بمياه الينابيع التي يلتقي بها في مجراه. وتتوالى الحقول المزروعة بدون انقطاع، متناوبة مع كتل الصهار وبساتين الخضر والفواكه التي تستمد حياتها من مياه النهر. وسهل الأرض ، قلب السكان سيتغريرون هم أيضا ولن يمودوا شبيهير بسكان الصحراء.

⁴⁴ - لا تستطيع الحروف الفرنسية، نقل النطق الحقيقي لبس الحروف العربية والأمازيغية، الكلمة لها مثلا، لا يستطيع النطق غير المتدرب أن ينطقها كما يجب. فإذا كنت العين مأقوفة لديهم ، تلفوها قنينة، وفي حلة العكر تلفوها قنينة Guelara.

إن القلتعيين الأتداء الذين ما زالت طبيعتهم أقرب إلى الفوحش يعتبرون مع ذلك أناسا مهذبين نسبيا بحيث يتولون الصدرة في لريف برعته على المستوى التسامح الديني وعلى مستوى الحضاري. ولأنهم أتوا مرارا إلى الجزائر، وخصوصا إلى محافظة وهران، فإنهم لاحظوا كيف أن النصارى، وتحديدًا الفرنسيين، يتفرون على مزاي ليست لديهم، وهم يتفرون بذلك صراحة. كما أن القرب من ملوية جطهم وأعين بأن النصارى لموسوا، كما يعتقد الريفيون الآخرون، أناسا لا أهمية لهم. ومع ذلك فليهم قناعة بأنه لا توجد في الدنيا قوة قادرة على مواجهتهم في إقليمهم الصغير. وسيكون هذا الاعتزاز بالنفس، المبالغ فيه إلى حد اللاعقول، سببا في ضياعهم. فهم سيتعتنون في رفض مساعدة جيرانهم ضد الأسبان الذين كانوا في نزاع مستمر معهم ؛ بل سيعتبرون بأنه لو توفرت لهم بعض السفن لكفوا قد احتلوا إسبانيا. ويبدو أن جهل الريفي يتجاوز هنا كل الحدود الممكنة فكل الريفيين يقولون لي بأن دول النصارى تؤدي الجريمة لسلطان القسطنطينية. وهم يشاطرون في ذلك ، رأي كل مسلمي العلم. والأمر الطريف لديهم هو تأكيدهم على أن فرنسا غير قادرة على إخضاع الريف. وهذا شرف تحظى به فرنسا دون غيرها من القوى الأوروبية. وبالفعل، فهم يزعمون بأن قبيلتين أو ثلاث قبائل ريفية، تكفي لهزم إنجلترا أو ألمانيا شر هزيمة !

وقد لاحظت مرارا كيف أن القلتعيين يأخذون عنا كل مساوئنا ويتركون جانبنا مزاوانا. فبعد أشهر من الإقامة عند المعمرين الفرنسيين بالجزائر، يستهويهم الفخر فيشربونه حتى القشالة وينغمسون في المذات ويتفنون في ذلك ككل المسلمين غير الوريين. فالصلاة والصيام وكل الممارسات والمواظب الأخلاقية الجميلة الصادرة عن القرآن، تصبح موضوعات لمخربة دائمة من طرف هؤلاء الأشخاص ذوي النفوس القوية.

لكن حذري من هذا المسلم المنحرف! فمع تقدمه في العمر، يتفقد ويريد التوبة والتكفير عن الآثام والذنوب التي ارتكبها وخالف بها دينه. فما الذي يمكنه فعله لتهدئة الله تعالى؟ ما هو القربان الذي يمكنه أن يقدمه كتكفير عن آثامه؟ ليس هناك ما هو الفصل بالنسبة لهذا الإله الخيور من لدم قلبي للرومي الذي سيسيل ساخنا تحت سيف المنذب القاتب الذي تحول بفعل الظروف إلى حبر مكلف بالأضاحي. فالمسلم الذي لا يلتزم بتعاليم دينه هو إنسان خطير وحقيق. يلزم الاحتياط منه. غير أن مواطنينا غالبا ما ينسون هذه الحقيقة، معتقدين أن المسلم الذي يشاركنا رذائلنا هو أفضل من المسلم الذي يتبع تعاليم القرآن. وهذا خطأ كبير وشنيع، بل يمكن اعتباره سببا في كل الخيانات والاعتيالات التي تعرض لها مستوطنونا غير المجريين، منذ احتلال الجزائر.

إن محمد بن الطيب بذكاته العملي وأدبائه الصائبة، لم يصانق أي شخص في المغرب، فقد كان يعلم بأن المسلمين الورعين سيحتاطون منه مثلما يحتاطون من أي معلم خريب. كما كان يعلم بأن عليه التهيب من المسلمين غير الورعين. لذلك لم يرتبط بأي كائن، بما في ذلك المرتكبين أو قتلث نساء التواني تزوجهن صدقة وطلقهن أو تخلص عنيهن بنفس اللامبالاة، مفضتاً لنداء فتجوال لقتلن.

وسنجد الآن على ضفاف واد الكرت، حيث غادر بني بويحيى، متوجها نحو الشمال خلال النهار ومتوقفا بقرى المحامية للنهر أثناء الليل. ويوصل إلى أسلمز، وهي قرية كبيرة تضم 300 منزل من طابق واحد، توجد قرب البحر على سهل رملي شاسع حيث ينمو الشعير والقمح والتمين قوحشي. وكل بعض الرجال جالسين بباب المسجد، مرتكبين الجلابة السوداء واضعين يدهم بين أرجلهم ويتكلمون في أمورهم يتمازجت مختلفة بعض الشيء عن تمازجت سكان الريف الأوسط. ولم ينتبه أحد إلى الدرويش الذي سيمر أمام المجموعة متمتما بسرعة عبارة : " السلام عليكم " ليدخل إلى المسجد حيث وجد هناك حوالي عشرين شابا، بعضهم يتلو آيات قرآنية بصوت عال وبعض الآخر يخطب فصلا أو يرقع جوارب أو يرتق جلابة. والملاحظ، أن مهنة الحياطة في القرى المغربية وفي الريف، معتكرة من طرف الطلبة. وهو عمل جميل ينضاف إلى مهام أخرى، كحضور الجنزات وصنع الأحذية. ولا يكتفي ساكني القرية بتعليم الطالب وليولاه وتزويده باللباس، بل يكلفه بكل أعمال الحياطة التي يحتاج إليها أفراد الأسرة ويمنحه أجرا وبعض الهدايا مقابل ذلك.

وينتمي كل الطلبة الحياطين بقلمية، إلى قبيلة غمارة الجبلية، وبالمقابل فإن الطلبة القلميين لا يمارسون هذه المهنة، بل إنهم يتدربون، خارج ساعات الدراسة، على الرماية أو يساعدون آبائهم في أشغال الحقول.

وطبعا، فإن الدرويش سيستقبل من طرف الطلبة المهتمين فقط بمعرفة القبيلة التي سيملاون فيها بطونهم بشكل جيد. وسيقدم العشاء المكون من النيسار والسمك والبيض المسلوق والربدة والعدس. ويستحق خبز الشعير وحده، رقعة خاصة بسبب حجمه الذي يساوي ذراعا، طولا وعرضا، والذي يسميه القلميون أنيگول Aneggoul. وهو يؤكل بالبيض المطبوخ بالزيت والثوم الذي يضاف إليه الفلفل الحار. وفي كل منزل يستهلك الشاي الشديد الحلاوة بكثرة ويرتشف الطلبة في المساجد كمية كبيرة منه.

وبعد استراحة دامت يومين أو ثلاثة، غادر الدرويش أسامر متجولا عبر القرى التي يقضي بها لوائيه ومكتشفا بلقاء هذه القبيلة الهلججة والراغبة في رمي كل إسباني ملولبة في البحر.

وتستند قلعة على مسافة 20 كيلومتر من الشمال إلى الجنوب و 40 كيلومترا من الشرق إلى الغرب وتحتوي على سبعة قصام وهي: بني شيكر (أبناء لشكر)، (التسمية عربية أمازيغية)، فرخانة (قصبر)، (التسمية عربية أمازيغية)، بني بوغمرن (أبناء أصحاب المرافق)، (التسمية عربية أمازيغية)، بني بوغمر (أبناء العقيم)، (التسمية عربية أمازيغية)، بني سيدل (أبناء المواجه)، (التسمية عربية أمازيغية)، بني بوبارور (أبناء صاحب الخراف والجداء (تحويل للكلمة العربية فرور)، مزوجا (لغة الجبل الممثلة) (التسمية عربية أمازيغية).

ويعتبر قسم بني شيكر من أكبر الأقسام مساحة وأكثرها سكانا. كما أن الأراضي في هذا القسم، أكثر خصوبة وأشجارا وأفضل سفيا. ويساهم واد بني شيكر الذي يصب في البحر غرب ملولبة تحت اسم واد فرخانة، في الحفاظ على الخضرة القليلة الموجودة بهذه الأرض الصخرية المجعدة إلى حد ما، وذلك بفضل المذليح المائية التي تغذي مجراه. وتعتبر مزوجا بدون منزع، القرع الشمالي الأخير للقرات (الفخاريت) الذي سمى عبره خط من الأراضي القاحلة والمالحة، باتجاه الغرب حتى البحيرة المالحة لبوعركاء. وإذا ما استثنينا بني شيكر الذين نجد لديهم بعض الغابات الصغيرة المتوجة لقم وجنبات الجبال، فإن الأقسام الأخرى محرومة من الخضرة، إذ لم تلتها جرداء مثلكة بفعل مياه العطر ومتكسكة بتأثير أشعة الشمس الحارقة. وحدها شجيرة القين الوحشي تقاوم بنجاح الأرض القاحلة والحررة الملتحية للشمس. وهي توجد في كل مكان، حول المنزل والقرى، حيث تنمو في أماكن لا يصلها الإنسان، وتقدم للجميع وخصوصا الفقراء، فاكهتها الحمراء الحلوة والشائكة. ففي كل المناطق الفقيرة بشمال إفريقيا، نجد عائلات بأكملها تستسلم للكسل وتتحدى الجوع، حائلة بطونها على مدى شهور عديدة بالقين الوحشي. غير أن المحتلون من كل الأزمنة والأمكنة لم يحترموا قوت الفقير هذا، إذ لم يصرروا المزعومة للدفاع والهجوم، أدت إلى مسح غابات كاملة من الصبار. وهذه كارثة لا تعرض خطأ سياسي شنيع وقسوة مجافية، تجعل غالبية السكان الجائعين، يشعرون لمدة طويلة، بالحدق تجاه قاتلين.

وبفضل القلميون بناء مساكنهم فوق الأماكن المائية، لكي يطلوا على الأراضي المحيطة بهم. وتتضمن أغلب القلل قرى عديدة، منها ما هو محلق بقسمها ومنها ما هو موجود بمنحدراتها. ولا تفرق المساجد على صوامع، وهي تتميز عن المنازل بالنظم الأبيض المرفرف فوق حود تم تثبيتته وسط ساحة بيت الله.

من مجاورة أراضي قلعية للفرات، أدت إلى عدم خصوبتها، وكلما سلحت الفرصة
لأمازيغي المنطقة بتحدى هذا الوحش الصحراوي الذي يبتلع كل شيء، فلهم يقومون بذلك.
لهذا، فإن المرء يندهش عند رؤية حقول الشعير وبساتين الخضار، فوق أراضي كانت منذ قرون
خلت، عبارة عن صحاري، ولربما كانت مغمورة بمياه البحر الأبيض المتوسط.

وبالفعل، فإن شيوخ قلعية يقدمون تفسيراً لتكون الأراضي المنبسطة التي تحيط بجبالهم
من مصب واد الكرت إلى مرسى مزوجا، جاعلة الأماكن القلعية في الوسط. فهم يحكون بأنه في
الأزمان السحيقة، كان البحر يغمر كل السهول، مستثنياً قسم جبال الوسط التي كانت عبارة عن
جزر متناثرة وسط المياه. وكان الإسبان قد سيطروا في هذا الزمن الساحق على هذه الجزر قبل
مجيء الربيعين أنفسهم. ثم بعد ذلك، انحسرت مياه البحر إلى حدود مليلية تاركة وراءها، على
السهل، رصاً مالحة عند سانج جبل بني شيكو. هكذا تشكلت حفرة، هي بحيرة بوعرف المساء
أيضا بحر مزوجا أو سبخة بوعسرون (بحيرة بوعسرون المالحة). ولا يمكنها أن تفرغ من مياهها
الآن، لأن أعماقها توجد تحت مستوى البحر. وفي القديم، كانت هناك مساحة أرضية شاسعة، هي
بمثابة معبر، تفصل البحيرة عن البحر. وقد استقرت فوقها عائلات بأكملها، منها، من يسكن تحت
الخيام، ومنها من يعيش داخل المنازل بقرى صغيرة. وكان الجميع يشتغل بمشآت الملح الذي
يصدر ويباع إلى القبائل الريفية الأخرى، كما كان الجميع يمارس الصيد في مياه البحيرة المليئة
بالسمك. ولم ينتبه أحد إلى أن البحر يفوق تدريجياً تلك الأرض المتواجدة بين البحيرة والبحر.

وفي إحدى الليالي، وكل ذلك منذ خمس أو ست سنوات، وقع أول افتتاح لمياه البحر،
تحت بروق ورعود العاصفة. فقد انفتح البحر بأواجه القلعية صوب الأرض المحاصرة بيه
وبين البحيرة، مما أدخل الرعب في قلوب هؤلاء المساكين المشتغلين بالملح وجرفت المياه
الرجال والنساء والأطفال والمواشي، مثل فئسات من العشب وفتلت الخيام وتلاعبت بها فوق
الموج، حيث انتشرت كأحرمة من الصوف الأسود أو كجداريات قائمة فوق هذه المنصات
المتحركة. وقد غرقت من جراء ذلك ثلاثة دواوير كانت هي الأقرب إلى البحر. وظل منسوب
المياه يتصاعد مدة أربعة أيام وليالي مما أدى بالأمواج إلى افتتاح البحيرة التي سارتفع منسوب
مياهها فجأة بعدة أمتار، مدمرة كل ما يوجد على ضفافها من مساكن ومشآت للملح.

هكذا، استغنى الأرض التي كانت موجودة بين البحيرة والبحر واستظل تحت الماء مدة
سنتين. لكن، منذ حوالي ثلاث أو أربع سنوات، بدأت هذه الأرض تظهر من جديد، بفعل تراجع
البحر. وقد أصبح المكان صالحاً الآن للمرور وعادت قوافل كيدانة وطريقة إلى استعمال طريق
مليلية للقيمة التي تجنبهم القيام بدورة كبيرة حول السبخة. ومثل كل الأسماء العربية والأمازيغية

بالمغرب، فإن اسم هذه الأخيرة قد شوه من طرف الأوروبيين. ولهذا قدمت أعلاه، التسميات الثلاث التي اشتهرت بها البحيرة. وأشهرها هي سبعة بوعرف لأن الملح يحيط بها من كل جانب.

وقد حصلت للدرويش مغامرة صغيرة بالمعبر الضيق الذي يفصل البحر الأبيض المتوسط عن بحيرة بوعرف، إذ كل من متجها نحو سوق الأحد بمزوجا رفقة طالب من كلية وكفا قد غادرا فرخانة معاً، ويميران بطمانينة على شاطئ البحر. وعند نقطة يلتقي فيها هذا الأخير مع البحيرة قريبا، وجدا رجلا معنّدا على بطنه. وكانت جلابته نظيفة وحول عنقه كانت هناك مسبحة وبحزامه حبة ملينة بالخرطوش وبالقرب منه بندقيته. وكانت كل المظاهر تشير إلى أن الرجل نائم أو أنه تعرض لضربة شمس. ولأنهما كانا ككل الصغاربة، حزينين من هذا الغريب فإنهما اختبأ بحفرة موجودة على تل. وشرعا في مخاطبة الشخص من بعيد. لكنهما لم يتلقيا أي جواب ولم تصدر عن الرجل أية حركة. لذلك، سيقتريل منه وسيناديه بصوت عال يلى وسيجرآن على رميه بالحصى. حيث أصابا الهدف مرتين أو ثلاث مرات. لكن الأمر يفي لم يحرك سلكنا. ومن المؤكد أن الرجل كان ميتا. وهذا من حسن حظ الطالبيين. فهناك بندقية ولباس وربما ذهب أيضا. وكان من اللازم الاقتراب من الرجل للتأكد من كل ذلك. ولأن الدرويش غير جريء بطنه، فقد تقدم مرتعدا وهو يمشي فوق الرمال الملطحة بالدماء وشارك صديقه في تفتيش الميت وسبم بعض كل المخليء المعروفة لدى الريفيين، من القنصوة وعطاء رأس وأحذية لكنهما لم يجدا ولو سلتما واحدا. ولربما سبقهم آخرون وقاموا بنفس العملية التي يقومون بها الآن. ولأن القلعي لم يجد مالا فقد قرر نزع ملابس الميت. غير أن الدرويش اعترض على ذلك، مستكرا كيف سمعت له نفسه بتجريد ميت من ملابسه. فالأمر لا يطاق! وإذا كان من الجائر أخذ البندقية والخرطوش، ففقه لا يجوز من باقي الأشياء. وعندما بانر بحمل البندقية الجيدة من صعب إسباني، وفي الوقت الذي كان فيه مرافقه يقلب الجثة لئلا حزام الخرطوش، سمعا أصواتا آتية من بعيد. فتركا كل شيء ملتجئين صوب مصدر الصوت. وكان هناك حوالي عشرين رجلا قادمين من الشرق لربما من كبدانة، وكانوا يمشون بمحاذاة الشاطئ ويتحدثون بحماس ممسكين بتلابهم بحد. ولأن الدرويش ورفقه المرعوبين معاً، اعتقنا بأن هؤلاء الأشخاص سيتهمونهما بقتل الرجل، فقد ظلّا واقفين بدون حراك، متحذرين وصعية ذليلة، في انتظار ما سيحدث. والتقرب الأشخاص منهما، وبظنرة سريعة أدركوا بأن الرجلين طالبان مسلمان. هكذا، سوسلمون عليهما وسيدانر محمد وقلعي بالإجابة بأدب على الأسئلة المطروحة، مع المبالغة في إظهار علامات الاحترام. بيد أن الأشخاص الغرباء لم يهيروا ذلك، أي احتشام وتهجوا صوب الجثة التي تمروا

طلبها، صلتحين بغضب: " لقد اغتال القاصيون قبر قبيلتنا جدو. لكن سيرون ! إلههم يريدون منعنا من الوصول إلى سبلابة، حسنا! إننا نعرف ما سلفناه! " وإثر ذلك، رفعوا جدو المسكين، كاشفين عن صدره الذي اخترقه الرصاص ومزقه من كل الجهات. وردفوا بهزئ: " أيها القاصين، ألم تجد بيتنا ولو شخصاً واحداً يرافقك في الطريق، عندما ذهبت وحدك ليلاً، عابراً أرض الأعداء؟ وما نحن الآن عرضة لسخرية كل أوغاد قلعة؟ "

وحملوا الجثة على ظهر البيلة التي جلبوها معهم. وبعد أن ربطوها جيداً بحبال الحلفة وأخذوا بتدفية الميت، خاطبوا الطلابين قائلا: " نحن من كبدانة، ولففونا لتفردوا بعض الآيات القرآنية على ألبنا المسكين، أثناء السير. " غير أن محمداً ومرافقه سيجتران، مبرزين موقفهما بضرورة التحقق من تأخر، بموق الأحد بمزوجا. وذهب الكبدانيون إلى حال سبيلهم، أما الصديقان فتتسا الصعداء واستمرا في السير بمحاداة البحيرة، فرحين بأن ما أصابهما من هذه المناسفة هو شيء من الخوف فقط.

إن بحيرة بو عرف هي عبارة عن ملبة مائية طولها 12 كيلومترا وعرضها 7 أو 8 كيلومتر. والشاطئ من حولها عرا، حيث تكتشف الحين شطا شاسعا متحدرا بعض الشيء، رماله ذهبية ولامعة، ذات انعكاس مذهي. وقد تمكنت بعض النباتات القصيرة والأدغال الصغيرة وثبتة المستقمت بتثبيت جذورها في هذا " النقيق " الأصفر الذي تحركه لدى هبة ربح. وتوجد به آلاف لمحارات والفوق الوحيدة الصمام الملنفة بشكل حازوني والممترجة بلزبد (Os de seiche ou sepiu). وكلها شاهدة على العزو الأخير لنياه البحر والسبخة صيقة في الوسط وأحيانا ما تقوم المواسف برفع أمواج قصيرة ترتطم بالشاطئ. كما أن رياح الشتاء تدفع مياه المتوسط في بعض الجهات، لتصل إلى البحيرة، سائمة بذلك كل حركة على المعبر المتواجد بينهما. وفي أقصى جنوب بو عرف توجد كتلة هائلة من الملح الحام في حجم جبل، تمنح ثروتها لكل من يريد أن يستغلها. وقد أثارني هذه البحيرة وما زالت تثورني إلى حد الآن، وسأعنت بشأنها كل القاصيين الذين رأوها والذين كان بإمكانهم إصطاتي معلومات حولها. وإذا ما كانت لقتراضاتهم صحيحة، فإنه لا أحد غامر سباحة أو على ظهر مركب، فوق مياه بو عرف اللانظمة والتي وإن كانت غير صيقة قرب الشاطئ، إلا أنها تشكل في الوسط حوضا يصل صفه ما بين 15 و 20 مترا.⁴⁵

⁴⁵ - إن الحديث المؤلم الذي رواه لي شاهد عيلى قلمي هذه الأيام، هو خير برهان على عمق السبخة. ففي حرب مليلية الأخيرة وجد فارس إسباني نفسه محرولا عن كتيبتة ومحلسرا من طرف الأمازيغيين قبالة البحيرة. ولكنه لم يجد لي مفد عدا السطح الهائل لمرعق، فقه لتفزع باتجاهه معقدا بأن مياهه ليست صيقة.

ويمكن اقرب البحيرة من البحر أن يجعل منها مستقبلا مياهها طيبها رقما أو يهزرت
أخرى، لكنها أكبر بخمسين مرة من الميناء الجزائري، حيث يمكنها أن تكون مرسى أسنة السفن
البحرية.

وكذا اعتبر محمد ومرافقه بأنه من الحكمة عدم الاقتراب من كهفها، لذلك طافا حول
السبخة وقررا قضاء الليل بسوق الجمعة في أقصى الشمال الغربي من يعرف. ويسمى هذا
السوق ثرة: سوق مزوجا وثرة أخرى سوق الجمعة. وهو مركز هام للمعاملات التجارية يقع
بالسهل قرب البحيرة وسط القليلة إلى صبح التسيير. ويوجد السوق خارج القرية، ويمكن التعرف
عليه بفضل قبة صغيرة تحمي خزانة بئر margelle. ويأتي آلاف الزبائن إلى سوق الجمعة من
مناطق نائية أحيانا، حاملين منتجاتهم معهم. كما تكثر البضائع الإسبانية التي تم جلبها من مليانة،
مثل السكر والقشاي والخردوشات والبندق والبلرود والشموع والمصباح الخشبية (يسمى
الزيفون البترول بالغاز ويستخدمونه للإضاءة) والسكاكين والكؤوس والقفيزات. أما منتجات البلد
فهي تبرز من خلال هلال من الألبسة الجديدة أو القديمة المعروضة للبيع وجبال من
الصوف والعديد من الأغنام والأبقار والحمير والبغال والقطيل من الجبال. وبالمقابل، يعرض
الكثير من الخضار والفواكه والزيت والزيب والقطاني والحبوب. كما يقدم الجزارون بالهواء
الطازج، شرايح من لحم البقر والغنم، محمولة على ثلاث عصى مشدودة من فوق بحبل ومثبتة
على الأرض. وعلى عكس ما هو مألوف في قبائل الريف الأخرى، فإن النساء القلبيات يتجهون
بحرية في الأسواق ويتاجرن ويشترين ما يحتاجن إليه ويتجهون سفرات الوجوه بمشية حازمة.
وهن يحتكرن بيع القبيض والدجاج والطاسات المصنوعة من الطين (الزلايف) - وهذه صناعة
محلية - وصحون الحزف المستوردة من إسبانيا والقدور والموافد الطينية المصنوعة بالقبيلة.
ويصنع تجار الأثواب والأدوية معروضاتهم تحت خيام من الكتان أو بداخل بيوت صغيرة مبنية
بالحجر الأبيض. وتحيط هذه الخيام والبيوت الصغيرة بالسوق مكونة دائرة شبه كاملة.

وسيفت الزبائن مشدوهين لمتعة الملاءة التي ستقع لهم أيديهم، غير مصممين على إنهاء حذب هذا الرجل
برصاصة الرحمة وهو الذي سيصوت بعد قليل. ولأن الإسباني اعتد بأنه تخلص من أعدائه الزميين فإنه لم يشر في
طرح جوف إلى الأسماء، طما إلى شاء وصل إلى السرج مما أدى إلى وقوع الحاصل. وهذا يبرز القيان منظر مؤثر.
فيما كل القاريس المنحج بالسلاح يتثبت بقوة بحرف الحاصل، تلتها للفرق في البقعة، كل السورين يغتلي داخل
المياه بفعل العمل الثقيل، ومعه القاريس. وكل الأمارييون والحمير والمطعين واثنين أمام رعب المشهد، مترقبين
العمل النهائي. وبعد ثواني محدودة ظهر الفريقان، وبرز قاريس وهو يحيط رقبة الحاصل في حلق يقسم. ثم غرقت
الكتلة من جديد، تاركة على سطح المياه بعض القموجات التي وصلت على الشاطئ قرب أرجل فريقين المستعدين،
وبعد يومين، ستلقى البحيرة بالجثث على رمل الشاطئ. وكان القاريس ما يزال مطمئنا برغبة حاصله.

ويمكننا أن نكون فكرة عن قيمة كل هذه المتوجات من خلال الأكمة التالية: دجاجة: 50 سنتهما البيض: للبر للبهضة قواحدة، وهذا قطن باعط إلى حد ما، نظرا لتواجد فوسان المنزلي واليهود الذين يستهلكونه بكثرة. خروف جيد: 5 فرنكات؛ بقرة حلوب جيدة: 50 فرنكا؛ بندقية إسبانية 50 فرنكا، قلب المكر من أربعة أرواح : فرنك وخمسون سنتهما، وإجمالا فإن الأكمة تعتبر أكثر ارتفاعا مما هو عليه الحال في قبائل القريف الأخرى. ولعل السبب في هذا الغلاء غير المألوف، يرجع إلى وجود الجمارك السلطانية قرب مدينة وإلى بيع المتوجات سريرا إلى الإسبان وتواجد المشاة المغاربة بحامية سلوان والذي يتكون بالنظام للتضخم من سوق مزوجا. وليس هناك مكان أفضل من سوق الجمعة لملاحظة مسئلي الجنسين من القبيلة. فالرجل يرتدي جلبنة ذات خطوط بيضاء وسوداء في فصل الشتاء ويحلق رأسه عن آخره ويغسله كلبه تقريبا بـ"شاشية" حمراء، تحيط بها من القاعدة عمامة قطنية. وفي الصيف يعرض الحائك الجلبنة. إن القضي يتجول طيلة اليوم، حافي القدمين، متوشحا ببندقية وقد وضع جعبة الخرطوشات حول حراسه ويتجاذب أطراف الحديث بكثرة مع الآخرين ويشرب الشاي ولا يشتري إلا الشيء القليل. كما أنه يستطاع الأخبار من إخوانه في الملة، القادمين من قبائل الأخرى أو من الجزائر أو من إسبانيا.

أما المرأة، فإنها ترتدي ملابس كثيفة من الصوف وتمشي عارية الرأس حيث يسمع رنين خلاطها وأسلورها. ويبرز على صدرها عقدان أو ثلاث وقد تم تزيينهما بفقود فضية أو نحاسية. وللأسف، لا نرى سوى النساء اللواتي تقدم بهن العمر واللواتي لم يعد جملهن لذييل يثير قريشات. أما النساء الجميلات جدا، فيمكن في المنزل حبسهن جدرانهم، بنفس الصرامة التي تحبس بها المسلمات في المدن الجزائرية.

وكان موضوع الحديث الرئيسي ذلك اليوم في السوق، هو قتل الكبداني الذي وجده القرويش بمعبر بوعرف فقد كان هذا القنيس قايما من مليلية التي غادرها معه خمسة بفل محملة بالبنادق الإسبانية والخرطوشات والسكر والشاي والبنترول (الغاز). وقد اعتقد بأن أحدا لن يراه إذا ما سافر ليلا. لكنه كان متبوعا بخمسة قطاع طرق من قلمية، لوقوه بأصيق مكان بالمعبر فالتل:

- قرك لنا البغال وتنج بجلدك، وإلا قتلناك.

- ولجأهم الكبداني وهو يمسد البندقية على كتفه: كلا، وسأقتلكم أو ألقى حتفي.

وشرع في إطلاق النار لكنه لم يصب أحد منهم؛ فما كان على اللصوص إلا أن يصمتوا على الفور وأخذوا معهم البقال تاركين ضيعتهم قرب بندقيته التي لم يحملوها معهم، خشية اقتصاح أسرمهم بسبب العلامات الخاصة التي يضعها أمازيغيو الريف على أسلحتهم.

وقد عرف الجناة تقريبا. لكن لم يفكر أحدا في إلقاء القبض عليهم، بما في ذلك القليل نفسه. أولسا في بلد الخيرات الذي ينهشه القتل والصوص والأوغاد؟ ففي الأسواق السبعة لقمية يصبح "البرامون" على التوالي: "ليحظ التجار الغرباء والمتعاملون معنا بالسلام والأمن" وهي المعاملة المتبعة في كل المراكز التجارية بالمغرب، وإن كان كل واحد يهتم هذا الالتزام المزعوم بطريقته من جهة أخرى، سطر "البراح" بأن عقوبات قاسية ستطبق على الإخوة المزيفين الذين قد يخربهم بيع الحبوب والقطاني لإسبانيي مليلية.

وبشكل عام، يتم الالتزام بهذه التوصية، لأن الحقد للنفس تجاه "الرومي" والخوف من التخبذ الوحشي الذي تؤدي إليه حيلة من هذا النوع، يدفعان كل من يريد إعطاء الأولوية لمصلحته على حب الوطن، إلى التفكير قبل الإقدام على فعلته.

وتتوزع أسواق لقمية على الشكل التالي:

- 1 - سوق الجمعة بمزوجا؛
- 2 - سوق الأحد بمزوجا وبزغة؛
- 3 - سوق الخميس ببني بويغرة؛
- 4 - سوق الثلاثاء ببني بوعاغر؛
- 5 و 6 - سوق الثلاثاء وسوق الأربعاء ببني شيكر وسط القبيلة؛
- 7 - سوق الإثنين بقرخانه، غير بعيد عن مليلية.

وهذه هي القبيلة الوحيدة بالريف التي قبلت وجود الجيود المخزنيين؛ حيث يسكن هرسان السكوم ووكلاء الجمارك السلطانية، بدار المخزن قبالة مليلية. ومهمة رئيس الفرقة المخزنية ليست إدارية، بل تتمثل في منع الأمازيغيين من مهاجمة الإسبانين. ويحمل قياد المدنيين المعبرون من طرف السلطان على اقتطاع الضرائب وخصوصا صربية الحرب، من القبايل المساكين الذين ترهق جيوبهم، كلما قاموا بهجوم على مليلية. ولا توجد بالقبيلة سلطة قضائية ولا إنجليزية؛ بل يسمح للريفيين بالاعتقال هما بينهم ويضرب بعضهم بعضا وبالمفرقة، فذلك شأنهم، المهم ألا يهاجموا السجن الفشتالي. وذلك ما يطلبه السلطان الذي كان يريد العيش بسلام مع إسبانيا.

وهناك حوالي 500 فارس نظامي كومي بقصبة فرخانة وألف من العشرة بقصبة بوغروف المسماة أيضا قصبة سلوان. وهؤلاء الجنود الحفاة بملابس مرقعة، ليس لهم أي صلا، فهم لا يقومون بمناورات أو بتدريبات، بل يقضون أوقاتهم في رثق لملابسهم ولا يتحركون إلا لأهلب الأهالي أو لتنفيذ أوامر رؤسائهم وأوامر الخواص الذين يرشونهم. وكجنود ضيعين فإنهم يترهبون بالشخص العابر الذي يعتقدون بأنه يحمل الذهب. وبعد ليلة، يقسمون الغنيمة مع قائد الحامية ولرؤسائهم جيشه وقد كرر القلميون على مسلمي في كثير من الأحيان، بأن جنود السلطان هم سبب البلاء الذي يحصل بقبيلتهم. فهؤلاء الجنود يمشون باليد ويقتطعون كل سنة، جرما كبيرا من المحاصيل الزراعية ومن المواشي ورغم جشع موظفي الضرائب والجيش، فإن الفنى النسبي لبعض الأسر، يسمح لها بالبقاء باليد وعدم الذهاب إلى هزلان بحثا عن عمل. ومع ذلك، فإن غالبية الأسر تبحث إلبنا بفرد أو مربيين منها للاستئصال حيث يرجع هؤلاء العمال إلى منازلهم وقد كسبوا قدرا هائلا من المال، يكفي للسماح لهم بالمعيش عدة شهور دون أن يفعلوا شيئا.

وإذا ما كان الإسباني معقودا، فإن السلطان ليس أحسن حالا منه، لأن أجداده متهمون ببيع سجون القشطين الريفي للصلاري. وتحكي الأسطورة أنه منذ قرون خلت، وعندما سلم الإمبراطور الخضر مدينة مليلية إلى الكفار، انسحب سكان القرى الخمس الواقعة في محيط المدينة، أمام قوفلين الجند؛ بل إلى أهالي قريتين من هاته القرى سيحتفون على السلطان وسيهاجرون إلى سبتة حيث سيحظون بحسن الاستقبال من طرف الإسبان الذين سيعيشون معهم في ود واتسجام، إلى يومنا هذا. ولم يؤثر المياف والبعث في لباسهم الأصلي. كما أن لغة تامازيغت الأصلية التي يتكلمها إخوانهم في الريف، ما زالت متداولة وسط هذه المقلات المهمة التي يتحضر أفرادها دوما على الوطن المفقود. وبسهل التعرف في سبتة، على الحي الصغير الذي يقطنونه، كما يستخدم المسجد البسيط لهذا الحي، للقاءاتهم ولتعليم أبنائهم. وللحقيقة، يجب أن نضيف بأن السلطان قدم لهؤلاء الأبطال تعويضا عن الأراضي التي سلمها للأجانب، مما سمح لهم بشراء مساكن يقطنونها حاليا بالمدينة الإسبانية

ويسمى الريعون مليلية : ثمريرت، أما بالعربية فتتطرق كما هي: مليلية. وتعلمي ثمريرت بالأمازيغية المكان الذي يتم فيه اللقاء. وهو اسم العمل الريفي emrir (الثقري) والذي يصبح melil عند الرولاء، حيث تتحول اللام إلى راء في اللغة القلمية وذلك طبقا للقواعد الصوتية الثابتة لهذه اللغة. ويحول التمسامانيون اللام إلى دج : dj مثل: idjdji (الفتاة). لما بني ورياعل فيحولونها إلى دال ، مثلا: iddi (الفتاة). وعندما يحدد أهالي قلمية موعدا بمليلية فإنهم يقولون annemrir g themrirth (سنلتقي بثمريرت أي بمليلية). وأحيانا يشار إلى المدينة

بهذين التين وهما: jnada (معسكر)، من الجذر العربي جند، و Er-myahden (المجاهدون).

وتعتبر مليلية مركزا تجاريا هاما بالنسبة للريفين. ولا يمنع لفصول إليها إلا على الأهالي المسلحين. لذلك لا تنتهي بشوارعها إلا بالمسلمين الذين لا يحملون بنادق ولا خناجر. وعند حلول الليل تزد المدينة لبوابها. لذلك يحاول الأمازيغيون إنهاء كل مشترياتهم خلال النهار للرجوع إلى منازلهم قبل غروب الشمس، إذ من الخطورة بمكان، عبور الريف في الظلام. ويشتكي الأمازيغيون والعرب من السلوكات الجافة والقفلة لأسباب المدينة. فالإسبانيون من الطبقة الدنيا يضرطون بكثرة. وعندما يبرون بالقرب من أعتاقهم المسلمين، يصدرون عن قصد ضرطات قوية وسط الشارع، تسمم الجو وتزكم الأنوف بروائحها الكريهة، وهو ما يحفظ الريف الذي يمقت هذا الدوي المفرز.

ومن جهته، فإن محمدا لم تفته زيارة مليلية. ولأنه دخل المدينة بدون نقود، فإنه سيفلجأ عندما حل وقت الغذاء. بعدم وجود أي مسجد يستضاف فيه ويتم بداخله إسكات عصابات يطنه الجائع. لذلك اضطر لبيع مظلة صغيرة بفلسد إسباني، وكان يستغنى بالتأثير على أهالي القبائل وإدهاشهم، بحيث كانوا يعتبرون هذا الشخص المجنوب، مختلفا عن غيره بسبب أطواره العربية. وقد ساعدته قطعة الخبر الأسباني المستدير والتي سبلتهمها أثناء سيره، على التخفيف من جوعه. وكانت تلك أول مرة يشتري فيها شيئا بالمغرب.

وقد أكد لي بأنه نسي أثناء مقامه الطويل بالمساجد الشريفة، هذه الكلمة العملة وهي: لشترى (بالعربية) وساغ (بالأمازيغية)، غير أن مدينة لوروية تكلفت بتذكيره بها.

وغير بعيد عن مليلية، يبرز فوق تل، قبر الولي الصالح لقمية، سيدي ورياش.⁴⁰ ويتعلق الأمر بشخصية شعبية من القرن السابع الهجري، أصله من أولاد ورياش المقيمين بدواهي سيدو. وقد تميز هذا الولي الشباب منذ نعومة أظفاره، بصلاحه وتقواه وكرمه لكل ما هو خير إسلامي. وعاش كزاهد يحبر النووير واليوادي والقرى، حيث كان يحظى باستقبال حماسي من طرف الأهالي المتعصبين والمعجبين دوما بالأولياء، سواء كانوا حقيقيين أم مزيفين. وما أن بلغ سن العشرين حتى اجتاز المصيق ليجد نفسه وسط المورسكيين الإسبان، وقد تاهوا الانحلال الخلقي الملم لهؤلاء المسلمين الذين تشبعوا بالحضارة العربية وتعودوا على رخاء العيش. ولأن أحدا لم

⁴⁰ - ورياش هي كلمة عربية شرعت وتحت ذلك الذي يقوم بالثارات باليد والمصطف للثناء على شخص. وهي مشتقة من الفعل العربي ريش أو رش (العربية المغربية الجزائرية). ملحوظة المترجم. ربما قصد لكتب نعل لشار

يعرء أي اهتمام فله سيمود إلى طنجة، قيل أن يروي وسط لريف، ذلك المعسكر المحصن ضد كل الجيالات. واستقبل بالتبجيل في كل مكان، غير أن أهالي قلعة خلاوا أكثر احتفاء به، لذلك اختار هذه القبيلة وبنى لنفسه صومعة سيعلم فيها عن تنبؤاته. وهذه الصومعة هي التي ستصبح قبرا له فيما بعد. وباستثناء فكرامات العديدة التي تنسبها الأساطير إليه، وهي كرامات مماثلة لما نجده عند مدعي المعجزات thaumaturges في كل الأديان، فإلنسي لم تمكن من جمع معلومات أخرى عن هذا المتمصب الغريب الذي يصعب كتابة سيرة حياته.

ويبدو أن بعض الجنود الإسبانيين نفسوا خبره سنة 1893، وقد أكد العديد من الريفيين أن هؤلاء الجنود جأوا للبحث عن الماء بمنبع سيدي ورياش. فنجرا أحدهم وتبول داخل لمرار عبر شقوق قباب.

وكان ذلك لتتلكا سبضاغف من خطورته كون الماء الذي يغرف من أراضي قلعة تون ترخيص، كان يستخدم لصنع الملاط الذي تستعمله إسبانيا لتشييد حصنها الجديد، قبلة سيدي ورياش على أرض مقارع عليها، وفي ذلك اليوم، دوت رصاصات الريفيين في أجواء المنطقة. ونحن نعرف أحداث مليلية ومعرف الصعوبة التي واجهتها الحكومة الإسبانية لنحر هذا الشعب الصمير الذي كان يقتل من أجل دينه وبيته بدون مدافع ولا خطط حربية، حيث يصارع كل واحد على طريقة لبطال هوميروس غير خاضع لأي رئيس وراعبا مهما كان الثمن في نحر الكافر أو كسب الشهادة وتوجد في حملة مليلية هاته خبايا هامة، إلا أن التاريخ اغتفدها إلى الأبد. ولست متوفرا في الوضعية الحالية، على الوثائق الكافية لتوصيح أعماق هذه المأساة الريفية. وسأكتفي بذكر ملحة بطولية لا تصدق، قام بها ثلاثة قلعيين سباحة، وسط ظلام الليل.

فمنذ بضعة أيام، كانت سعية حربية قننالية ترسو على بعد كيلومترين من الشاطئ، وكانت تنير حق الأهالي بإرسالها كل مساء، لأتار كهربائية على المنطقة. وما لم يسلط الضوء على مكان تولد المجموعات حتى تتبعه قذائف المدافع. وفي البداية لم يتحرك الريفيون الذين كانوا غير واعين بالخطر، وكانوا يهرأون وتصدر عنهم إشارات عديمة الاحترام تجاه الحاكم المشع والذي كان يسمى عندهم بالمصباح الكبير (الفتلر). غير أن موت بعض إخوانهم الذين حصنهم القذائف الرهية، جعلتهم مقتنعين بأنه لا مجال للسخرية من هذا الابتكار الحديث للمصباح الكهربائي. هكذا، سيعقدون اجتماعا فيما بينهم للتشاور، متساكنين عما يمكن فعله لتحطيم هذا المصباح المتطفل. وتقدم ثلاثة سباحين كهوياء، مقترحين الذهاب سباحة إلى السعنة لإتلاف المصباح. وتمت مباركة خطورة هؤلاء المجاهدين ورفعت لكف الضراعة إلى الله من أجل سلامتهم. وبالفعل، دخلوا البحر عراة، حاملين معهم بنادقهم الإسبانية وبعض الخرطوشات.

وقد ربطوها على رؤوسهم فوق ركنهم من الأتواب التي وضعت لتجلبب الأسلحة والبارود قبل.
واستمروا في السباحة بشجاعة، دون ضجيج تحت ظلال الليل، مقتربين تدريجيا من القوس الذي
تنصبب كتلته السوداء على صفحة بحر هادئ تملأ. وعلى ما يبدو فإن جميع بحارة السفينة كانوا
قد خلدوا إلى النوم، باستثناء ضابطين أو ثلاثة ضابط، كانوا متواجدين قرب العاكس يرسلون من
خلاله أضواء منيرة على كل الجهات. ونجح المهاجمون في تسلق سلاسل المرساة، انزلوا على
ظهر السفينة. وفجأة سمع دوي ثلاث طلقات في سمعت قليل، كانت نهجته تحطم العاكس
وإصابة ضابطين بجروح خطيرة. وقفز الفريقون مجددا إلى البحر، عائدین بسرعة على الشاطئ.
وكان الانفعال على أشده فوق السفينة ولم يخطر ببال أحد إزال الزوارق لمتابعة هؤلاء
الجهريين. وتم إطلاق نيران البنادق بشكل عشوائي على سطح الماء، غير أن الأسلحة لم تفلح،
المحميين من طرف الظلمة، يوصلون سالمين إلى البر. وأترككم تتصورون مقدار الاحترام الذي
يحظى به هؤلاء المفلتون داخل قلوبهم، بعد عاصمتهم حقه.

وبنا ما رجنا إلى القرويش ، فإن فرحته كانت عارمة، عندما وجد بضريح سودي
وريش حوالي عشرين هادوا أكثر إثارة للشفقة منه. وأظن بأن هذه الطائفة غير معروفة في
الجزائر إذ يبدو أنها متواجدة في المغرب فقط. والهادوي هو جوال مضول، مغبول بفعل الكيف.
ويتجول على الراس حاملا في يده حربة، كما يرتدي بعض الأسماك تخفي عورته بالكاد ويضع
سبحة بطنه ومحفظة صغيرة بجانبه، مليئة بالكيف وبداخلها غليون طيني صغير، وهو يزور
مختلف الأولياء ويقفات من الأطعمة التي يأتي بها الزوار الأوغياء، إلى قبور الصلحاء، بل يقدم
نفسه كعالم لهذه الأضرحة، صائعا أحيانا، بعض الحلويات التي يهديها إلى الجمهور الحاضر
وهو يظل مشدوها باستمرار، بفعل نعال الكيف. إنه باحتصار كمول مقرب، يمارس أحقر المه
وهي: طهي الأضرحة.

وفي قرية القصارة بني بويغور، سلاحظ الأهالي بأن محمدا يتهاون في أداء صلواته،
بل لا يتوصا سواء عند إقامته في الحالات النادرة على الصلاة أو عند تلاوته للقرآن وللأحاديث
النبوية. لقد كان يقد سكان البلدة ولكن بما أنه كان أجنبيا، فإن هؤلاء السكان سيحتقون بقله
يهودي، وهكذا سيترعض للشتم وسيتلقى الإهانات ، إلا أنه سيتحملها دون شكوى.

وبعد أن أعياه التمرض لأذى هؤلاء القبداء، أعلن في أحد الأيام للعقبة وللطلبة عن عزمه
على الرحيل. وظن بعض السطة بأنه يحمل معه نقودا، فتموه خارج القرية حاملين مسدستهم
معهم. وفجأة اعترضوا طريقه وأمروه بخلع ملابسه. فرد عليهم معمد قائلا: " لنذهب بعيدا،
فلازلنا قريبين جدا من النور السكنية ". وقبل هؤلاء السطة الاقتراح، وأثناء السير تمكن الرحلة،

رغم أنذ المصنعين عليه، من رمي مخفظته بدغل صغير، وكلفت تحتوي على حوالي ثلاثين فردا عسبها عن طريق صنع الأحذية. ولما رأى هؤلاء الأوغاد بأن المسافة قد بدت ، لمسكوا بضحياتهم وجردوه من كل أمتعتهم، بحيث لم يتركوا له سوى قميصه القطني (السكندرية). وكانوا يرغمون في نفودهم بالأساس، ولما لم يجدوها امتاحوا وطلبوا منه، تحت تهديد مسنلتهم، بأن يظهر لهم أين أخفى مخفظته. وأقسم الدرويش بحق سيدي ورياش بأنه من أكثر الناس حرزا، ويتر ذلك لطلق سراحه.

وبقرية الخميس التي لها إربها، منحه الأهالي بعض الألبسة، وبعد أيام قليلة، نزل بجزر شديد إلى المكان الذي رمى فيه مخفظته التي سجد بها هناك، ملجأ لم يمسسها أحد.

إن اليهود يوجدون بكثرة بقبيلة قلعية، وهم يسكنون بالقرى الصغيرة ويملسون مختلف المهن. فهم صنّعو أذية وإسكاليون وصانعو لوتتر وصناعة وصانعو قنورا ولا يوجد أي فلاح بينهم. وهم يكترون منازل سكانهم، لأنهم لا يستطيعون امتلاك مسكن لهم، سواء بقلعية أو خارجها. ويتضمن عقد الإيجار بدا غريبا وهو أن كراء منزل ليهودي، يدوم إلى الأبد، والمالك وحده الحق في طرد المكثري الذي لا يمكنه أن يتغلب عن المنزل من تلقاء نفسه ولا أن يطلب بأي إصلاح لمسكنه. ولكل يهودي مسلمة الذي يعتبر سيده له.

ويسافر الاسرائيليون القاصرون لقضاء أغراضهم، حيث يكون إلى وهران وطسجة وإسبانيا وإلى أي مكان يرغبون في الذهاب إليه، وهذا دليل ساطع على تمتعهم بحرية كبيرة، وهم لا يشعرون بالتمساسة ما داموا يرجعون بطمأنينة إلى بيوتهم. ويعترفون بأن الأملازيخيين لا يملأونهم لهذا بسوء. وقد سمح الاتصال للقديم العهد، بتهدئة الأحقاد العرقية، مجبرا المسلمين على قبول هؤلاء الرجل العظميين الذين يتكلمون لغتهم ويرتدون نفس ربههم، ولا يتميزون عنهم إلا بخصائص شعرهم الطويلة التي تنموج بشكل لولبي فوق صدورهم حتى الفك الأسفل.

إن سيدي ورياش هو سيد القبيلة لكن هذه الأخيرة تتوفر أيضا على أولياء آخرين مهمين أيضا. لنذكر فقط من بين أشهرهم: سيدي بوصير ببني بويررر، سيدي محمد بن عبد الله بمزرجا، سيدي الحاج سعيد ببني شبر.

ولثناء ريلرة قبور هؤلاء الأولياء، ينبج القجاج والأغنام والماعز والأبقار. وهذه الأضحيات ليست مقدمة كقرابين للأولياء كما نعتقد في أوروبا، إذ أن الأمر يتعلق بصداقة من أجل الفقراء، تمنح لوجه الله. ويأتي هؤلاء المساكين إلى مثل هذه " الوعدات "، لملأ بطونهم بالكسكس واللحم والعلويات ثم يعودون من حيث أتوا وهم على استعداد لمعادلة فكرة من جديد

كلما سطحت القفصة. ويخشى الأميون، المؤمنون بالشعوذة، هؤلاء الأوثياء. لذلك تراهم يتضرعون على الولي فور تولدهم بضروحه وبهمسهم بالدعوات والتوسلات.

إن الطالب الذي يعيش في القلب بالقرب من الأصححة، وهي بدايات مجاورة للمسجد أو للمقبرة، يتألف مع الولي الصالح ويشعر بنوع من الحمومية تجاهه، معتبرا إياه كقريب عظيم وطيب ومتساهل. لكن يقال بأن الصالحاء ينتقمون أحيانا من الإهانات التي يقرسون لها وتعتبر الحادثة التي وقعت لمحمد بن الطيب غير دليل على ذلك.

لقد كان الدرويش مقيما بضريح سيدي بوسبر منذ حوالي شهر يتلقى الدروس ويهرح ويتشارك مع رفاقه الطلبة داخل الضريح ويجري ويصرخ غير أنه بأي شيء. وباختصار، كان بأفعله وأخلاقه ينتهك حرمة قبر سيد بني بويغرر. وفي إحدى الليالي الدافئة للخريف، خرج ليتنسم الهواء وسط شجيرات القتين الوحشي العنيدة والمحيطة بقبر الولي. وفجأة أصابه الرعب من جراء أمر خارق لم يكن يتوقعه. على بعد عشرين خطوة وراء ظهره، برز جمل ضخم وبقعه بندقية، وتندفع باتجاه الدرويش وهو يصرخ بصوت رهيب. ولشدة رعبه، انطلق محمد جازيا كالسهم بين مسالك الشجيرات الشوكية قفرا فوق قبور بني بويغرر الذين اختاروا مقبرتهم بالقرب من ضريح ولبيهم. وكان الجمل يطارد الجوال ويصدر أصواتا حثثة متتالية، تشير على أن غصبه قد بلغ حده الأقصى. وأخيرا وبعد أن طاف مئات المرات حول متاهات شجيرات القتين الوحشي، وجد محمد بن الطيب نفسه، دون أن يدري كيف، أمام مبنى الضريح الذي دخله بسرعة، مغلقا للباب وراماه. وقد كان معطوفا بقطعه ذلك. فلو تأخر دقيقة واحدة، لكان الحيوان الهائج قد مزقه إربا. وظل الحيوان يقرع الباب الخشبي ببندقته، وهنا حدثت المعجزة، حيث صدرت عنه كلمة عربية وهي: افتح. وعند سماعه لهذه الكلمة، خر الدرويش أرضا بالقرب من رفاقه وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

وكان أجاب على الأسئلة الموجهة إليه، وهو شلمب اللون، منقطع الأنفاس، مرتد الفرائص، قائلا بأنه كان عرضة للمطاردة حتى وصل إلى باب الضريح. وأعلن الطلبة بأنهم لم يروا ولم يسموا أحدا، وبأن ذلك نام الدرويش وهو على تلك الحالة من الانفعال. وعند منتصف الليل رأى في المنام، سيدي بوسبر نفسه الذي خاطبه بالعربية قدرجة قائلا: " لو كان تعود تلعب كما لعبت في القبة، نرملك إلى القلعة الخالي".

ولما بزغ نور الصباح قام محمد من النوم، وعلى غير عادته اغتسل وأدى الصلاة لمدة طويلة. وفي المساء، خرج في نفس توقيت البارحة ونذهب إلى المكان الذي ظهر فيه الحيوان الرهيب وبدأ يصرخ بأعلى صوته: " ليها الجمل، أنت الذي طارنتني البارحة، اظهر الآن ...".

ويبدو أن سدي بوسير كان قد هدا، لأنه لم يقرر التحول مرة ثانية لتهريب الدرويش، ولبدء من ذلك اليوم، أصبح هذا الأخير يكن كبير الاحترام لكل الأولياء ولأضرحتهم.

إن المسلمين الأفارقة وخصوصا المتعلمين منهم ، يرون في أحلامهم أشياء غريبة، فغالبا ما يتراعى لهم أولياء وتنباء بل وحتى الرسول محمد (ص) الذي لا يدخل عليهم بنصائحه أو تنبيهاته. ويساهم الإيمان العميق للمسلمين في إثارة خيالهم الدماغية ويجعلهم في حالة مستديمة من الارتجاج العصبي الذي يتجاوز حدود الإدراك. وسواء كانوا نغمين أو مستيقظين، فإن غوالمه تشيط بهم إلى مجال الخوارق داخل عوالم راقية ، وفي المنطق الساحرة للعالم الأخروي الذي نقصى منه نحن الأوروبيون، بسبب جفاف الفكر الوضعي والعلمي الحديث، هذا الفكر العلمي أكثر من اللازم ربما.

وقد بنت لي مطاردة الجمل أمرا لا يصدق وأردت التأكيد عما إذا لم يكن الدرويش ضحية هلوسة أو حلم مزعج. ولندش محمد كثيرا من إلحاحي وعدم تصديقي متسائلا: ألا يقوم الأولياء بالمعجزات ولو بعد مماتهم؟

والخلاصة التي توصلت إليها من جراء هذه الرؤيا الغريبة ومن جراء رؤى أخرى حكيت لي من طرف أتباع الرسول محمد (ص)، هي أن المسلمين وخصوصا الورعين منهم، يحرصون لهلوسات خاصة ولاضطرابات دماغية مميزة لا علاقة لها بأي شكل من أشكال الجنون. والمثير في حالتهم، هو المسير المنتظم والمستمر لهلوساتهم التي لا يحصل فيها انقطاع، بل تظل قائمة لديهم مدى الحياة، فهي قد تولدت لديهم منذ نعومة أظفارهم تحت تأثير اعتقاد قوي جدا وهو: الإيمان الديني! وهي لا تتوقف بالنسبة لمغلبية المسلمين إلا بعد الموت.

وعلى مستوى آخر، يعتبر شرف المرأة بقدمية، أمرا بالغ الجدية. وسيتأكد ذلك من خلال الحكاية التي سأسردها بعد قليل. وقد رواها لي شاهد عيان، وهو طالب ريفي شهم، طرده حقد روجة لبيه من منزل هذا الأخير. وهو شريف بن شريف، ويفصل ررع كروم للمعمرين الوهرانيين بدل الجيش دون عمل، تحت سيطرة المرأة الشريرة التي تكبر كل شيء، وحدها في البيت. وهذا الطالب الذي ألح على عدم ذكر اسمه في هذا الكتاب، علمني لغة تمازيغت، وهو معروف لدى القلعيين الذين يقدرونه ويحترمونه كطالب وكشريف.

ويدين له أحد أصدقائي، وهو ضابط صف في البحرية، يعمل حاليا بسفينة الأميرال بودن baudin ، ببقته على قيد الحياة. وهذا البحار مهتم باللغة العربية بشكل كبير، وهو أمر نادر. وثناء زيارة الأسطول البحري الأخيرة لوهراء، سارع بالذهاب إلى حي الأهالي لتعلم الحديث باللغة العربية وكان قد تعرف على صاحبنا الربي، الذي كان للإشارة، يتحدث العربية بصعوبة.

والقاء تجوالهما بالأزقة الوسعة لحي المسلمين، حوالي الحادية عشر ليلا، حاصرهما أربعة لصوس يرتدون المعاطف ويحملون القهراوات وذلك بغرض سلبهما ما عندهما. وقد دفع الشريف ببسالة عن مرافقة الذي كانت معرفته به محدودة. رغم أن إخوانه في القلة رددوا على مناصحه: " اتركنا سلب هذا النصراني الكلب ما يملكه، وسنقسم معك ما أخذناه"، إلا أنه رفض العرض وواجه بشجاعة ضربات عصي هؤلاء اللصوص وتمكن من تخليص الفرنسي من بين أيديهم.

وعندما سيقرا مواطني هذه السطور، وقد كان منذ عدة أيام، يتبع دروسي بانتظام، بكرسي العربية بوجرا، فإنه سيتعرف بسهولة على هذا الريفي اللزبه الذي سخطبه الكلمة الآن، ليروي لنا بلهجة تامازيغت الحليصة⁴⁷، المشهد الهمجي التالي، المؤثر بشكل كبير وعلى كل المستويات .

وهذا كل ما هناك. لكنني أعلم بأن صديقي باصي Basset مدير المدرسة العليا للأدب بالجزائر، يهيء عملا حول البحر والمعجم المقارن للهجات قلمية وبني ورياغل وبقوة وتمسان وبني سعيد وبني زناسن، مرفوقا بالنصوص. وأخيرا هناك يظهر غلاف هذا الكتاب إعلان عن مؤلف بعنوان: " بحث حول تامازيغت والحكايات الشعبية بالريف"، وكان من الممكن صدوره لولا انشغالاتي الحالية. من جهة أخرى، فإني تقدمت كثيرا في إنجاز " المعجم الفرنسي - الريفي" وعندما ستتشر هذه الأعمال، فإن لهجات الريف، ستخضع نفس مصير هذا البلد المتوحش الذي مازال مجهولا والذي أصبحت بعض ملامحه تظهر الآن بفضل تصريحات الدرويش والرحالة المسلمين الآخرين

⁴⁷ - في اللهجات الأمازيغية معروفة بشكل قليل أو غير معروفة تماما. والباحثون الذين تطرقوا لهذا الموضوع، لجزوا الأعمال التمهيدية التالية:

- *Hanoteau, Grammaire Kabyle, un conte en thamazir'it de Galiya.*
- **R.Basset :**
 - + *Manuel Kabyle.*
 - + *Note de lexicographie Berbère.* Le 1^{er} chapitre, de la 1^{ere} série, est consacré au Galiyen, dans les séries suivantes, les dialectes du Rif sont pris comme point de comparaison.
 - + *Loqman Berbère, plusieurs fables en temsamani.*
 - + *Etudes sur les dialectes Berbères. Notes grammaticales sur différents dialectes Rifains.*
 - + *Les Noms des métaux et des couleurs en Berbère*
- *Omeden Feldt, Eintheilung und verbreitung der Berber vilkerung in Maroco ;* s'est occupé aussi des dialectes du Rif.
- *Missions évangélique de Londres ? Les Evangiles de St Matthieu et de St Jean en galiyen*

Rih' Kakh en

فيها حكمة 44

Ijouna gourgaz yemrech ouflin taked

رجل متزوج بوخت مع

lecht en tem'art temrech

امراة متزوجة

Di dehar in at- sid'ar

بقرية بني سيدال

Di thek'bitt in k'eraiyin

بقبيلة القاصيين

Ij oussougga, ettour'a

في القصة الماضية كان هناك

Ij oungouargaz 49 yemrech R'ares

رجل متزوج. وكان له

Ijjen rāyarnst; iarr ed r'arer

بستان؛ وضع فيه

Tharja oungouaman 50, ichd'a

قناة الماء. وبدأ

I tsessaou rāyarnst enni

يسقي هذا البستان

Thous ed

وأنت

R'ares ijjen temr'art temrech

بالقرب منه امراة متزوجة

Ek'kimen aya Ked'ouya. lebd'a

وجلسا معا. وشرع

Itek'k'ont s eddou ijjen

في موالعتها تحت

Ouarthou

شجرة التين

Iezan ithen

ورآها

Ij outharras; ysekka Khaf

رجل، وأثار حولهما

Sen ethr'ouyyith.

الصيحات (نادى على كل الناس)

Mounen d

ولجئتم

Khaf sen ioud'an at't'as.

ضدكما العديد من الناس، والامراة

Thamghart

48 - اعتمدت كتابة هذا النص بهذه الطريقة، حتى أعطي لمعجمي الأندلسي، فكرة دقيقة حول لغة وأسلوب الريفيين.

ملحوظة المترجم. بدوري سأحافظ على تركيب اللغة الأمازيغية الريفية كما وردت في النص وكما ترجمها مولييريس إلى الفرنسية. وإن أضفناها تركيب اللغة العربية.

49 - عن الحركات الأنفية voyelles nasales، توجد بلغة تامازيغت وهو ما ينطبق على oun التي يصعب النطق بها فعلا، لكن يمكن التوصل إلى ذلك بصبر وأناة.

50 - الحركة الموجودة فوق حرف النون (n) يجب أن تنطق (gn) مثل: montagne.

Tarouor. Ed'farenteth arhà en
Ioudan, ear'inteth a thsapouais³¹

R'arsen as aàddis s
Thasboutt³²

Oujjinteth d'i barra
ed'rinteth

S'ijj ouh'ach.

Arghaz enni, thauia , yarower

R'ar ijjen taddart tekhra

Yek'k'en khafé thaououarth
nouarn

As,

Ed' farent id' yaoud'an, ~~thasboutt~~

Aouarn as, echathents

Erbaroud'

Arami Ioud'ef thaddarth, yebd'n

Yachchathithen d, ranta,

Zeg icht tebouarjet yanr'a

D'aisen sebà.

Bed'an youd'an enni
ettaryen

Akh terk'k'a. k'eddaàn
tih'anis

Entezak'k'a, arami kafa

Snouk'k'eben. Louiyen d
tizizoun

D'i ther'aracin.

هربت وتبعها أربعة

قرد، وقتلوا بواسطة البنادق

وشقوا لها بطنها بالسيف

وتركوه بالخارج في العراء

وغطوه

بحبك.

والرجل هذا ، أيضا هرب

باتجاه منزل خير مسكون

وأطلق عليه قلب الخلفية،



وطرده الناس وجروا

وراءه هو، وضربوه هو

بالبارود (أطلقوا عليه النار).

وعندما دخل إلى الدار شرع

في ضربهم، هو أيضا (أطلق النار

عليهم)

من النافذة وقتل

من بينهم سبعة

وشرع هؤلاء الناس في الصعود

على السطح، وتزحوا روافد

السطح، إلى أن أقاموا فوقه

ثقبا و حملوا النحل

في الخلايا

³¹ - كلمة thasppaniout (بنديقية) تقابل كلمة espagnol، منطوقة باللغة الريفية. ويحول القاريون الاسم المرحود في لغة الكلمة إلى ثاء أو طاء (T).

³² - مأخوذة عن الكلمة الإسبانية espada

Farrer'ea khafs thizizoua.
 Ek'k'eden
 Timessi d'i thesoumadh
 ouagouari
 Bed'an net't'aren khafs thimessi
 Akhkhani
 Enni iechchour s thizizoua
 d'ed Dekhan.
 Thizizoua ettemounent kh ouargaz
 Enni, zaïfent d'aïg.
 Ied'ouer ouar
 Itouiri our ad' ijjen s errih'ath
 Bed'an yïoud'an
 Net't'ouen d khafs zi thezek'k'a.
 Et't'fent. ek'k'arnenn as ifassen
 R'ar d'effar. Essoufer'ent id
 R'abarra, r'ad'erent r'ar
 themmou Arth.
 Bed'an ek'k'arer
 As ath àmmis :
 " – etta d'ergerait ennech àla
 Khat'er echehek ouar ifahmen
 Areddif ennech. Etteged
 Eràib d'i tharoua àmmich "
 Nitheni ek'k'aren
 As ammou, nitheni etk'eçcen
 Dais s ermouas
 H'add itk'eçcith
 Zi thekberkhamin en fassen

ورموا عليه النحل واشطوا
 النار في هزم الحلقة.
 وبنوا يرمونه بالنار
 والبيت
 هذا، استلأ بالنحل
 وبالنخان
 والنحل هجم على هذا الرجل
 وفرسه
 وأصبح هو
 لا يرى شيئا (بسبب النحل)
 وشرع الناس
 في القفز عليه من السطح
 وأمسكوا به. وربطوا له اليدين
 من الخواصر. وأخرجوه هو
 إلى الخارج، وأسقطوه هو
 على الأرض
 وشرعوا يقولون
 له أبناء عمه (أبناء القبيلة) :
 " هذا هو جزؤك أنت ، لأن
 أنت، كنت ذكيا
 رأسك أنت (أنت بليد) أنت رميت
 العيب على أبناء عمك أنت".
 وهم قالوا
 له ذلك، وهم يقطعون
 أحشاءه بالمسكين
 واحد قطع
 له المعصمين وولد

Chan, h'achcheth lechalt,	شبلنا لم يمتنع من أخذ.
Ettour'a r'ares thratha en	وكان له ثلاثة
Tsarfia en imendi echrin d	مخازن من الشعر؛ وأخذوا
Imendi enni marra, endarent	هذا الشعر كله ورموه
R'a barra zeddaant. Ouar th	بالخارج ونشروه (في كل الجهات)
Iouyen, r'er in oua r'ar leddi	ولا أحد أخذ، فقط ذلك الذي
Cha, r'er imezrad'ith yiouiyeu.	لا يملك شبلنا، فقط الفلراء
Thammouarth ennes, thezzenz	الذين أخذوه. وحقله هو
it tak'bilt ik'eriyeu	باصته قبيلة القلعين
Far'k'enteth akh techouchai	وقسموه (أي ثمن البيع) على الرؤوس
Eansen. ⁵⁴	بينهم

وبسبب هذا التعذيب الفظيع، فإن هناك قليل وقليل جدا من الرعيين الذين يستهويهم الإخلال بالحياة الزوجية. ذلك أن أقرب أقربائهم سيكونون هم أول من يجرحهم؛ وإذا لم يقوموا بذلك، فينعرضون هم أنفسهم لأفطع الممارسات الانتقامية.

ويعمل شبان الذين هم في غالبيتهم رعاة الماعز أو الأغنام أو الأبقار، على تجاوز مساواة العزوبية وذلك بإشباع رغبتهم الجسدية في الحقول، عبر اللجوء إلى الحيوانات التي يرعونها. وتتم الأمور بهذا الشكل في الجزائر والمغرب وفي كل البلدان العربية والأمازيغية.

وهذا السلوك المعيت مقبول ومسلم به ومسموح به ومعروف لدى الجميع.

ويتم اتهامه بشك في المجتمعات الإسلامية الريفية، كموضوع للصخرة والصمك.

وبالرغم من أن الأشخاص الوريين في الإسلام يلعبون هذه الأهواء الشديدة لدى المسلمين للشباب العازبين، إلا أنهم يجدون الأعذار لهذه الحيوانية، معطين أمام الجميع، بأن المساكنة من غير زواج concubinage والزنى والبغاء، هي جرائم أفطع وانتهاك للقوانين الإلهية والإنسانية بشكل أكبر.

⁵⁴ - أحتفظ في صلي المقل، وعنوانه: " بحث في لجة تامازيغت وحكايات الريف الشعبية "، بالملاحظات التي كان من الممكن أن تقوم بها هنا، حول التحرر والاشتقاق اللغوي.

ورغم الاختلاط الكبير بين أفرادها، فإن أخلاق العلاقات القسرية تظل سليمة. وتحترم الأم هي سيده الدار، وقد رأينا من قبل كيف أن روجة الأب تنيق الأمرين لربيبها حتى ولو كان راشدا. فالأزواج الذين يسودون بالمعالج يكونون وديعين داخل المنزل. والمرأة بدورها تصبح كقنا صميغا ما أن تتجاوز أسوار مسكنها. وتقتضي العادة أن تكبر وجهها إذا ما رآها غريب. وهي بخرا ما تخرج إذا كانت جميلة، وتعيش في منزلها منتظرة باستمرار للحظة التي تزور فيها ليوبيها، وهذه الزيارة لا تتم إلا مرة أو مرتين في السنة، إذا كان المرءان متباعدين.

وقد حاولت البعثة الرسولية mission apostolique لبريطانيا العظمى، مدفوعة بحملات ديني لا تحصى تواقفه السياسية، دعوة سكان الريف إلى المسيحية. ولأنها تخوفت من تعرض مبشرينها، الذين سيعرفون على الفور بسبب لكنتهم البريطانية، للذبح من طرف أهالي البلد المتوحش، فإنها حاولت تجلوس هذه المشكلة بترجمة إنجيلي القديسين مرقس ويوحنا إلى لغة تلمازيت.

وإليك كيف استقبل الريعور عديم المنتوجين للتقعة الإنجليزية. في أحد الأيام، ذهب الشريف الشاب الذي روى لنا، قصة التعذيب القريب المتملق بالرضى، إلى مليلية لشراء بعض الحاجيات. وهناك، التقى في زلوية أحد الأزقة، مع رومي أشقر ضخم الجثة، تبرز ضحكته العالية صفا من الأسنان الرائعة وبشكل غريزي اتخذ الريعري وضعا دفاعيا. لكن الأوروبي لم يتأثر بذلك. ودس في يد الأمريعي عشرات الكتب الصغيرة، داعيا لياها لقراحتها وتوزيعها فيما بعد على أبناء ملته.

وعند وصوله إلى المنزل، أدخل الحمار إلى الإسطبل وبادر بفتح أحد هذه الكتب التي لم يفهم منها شيئا، كما سيعترف لي بذلك. وفي الليل رجع ليومه، وهو فقير، إلى القنزل. وقد تم إخباره بما وقع، فانتظر الانتهاء من تناول العشاء ليرى ما تقتضيه هذه الكتب الغريبة. ولأنه أدرك من الأسطر الأولى بأن الأمر يتملق بديانة غير ديونته، فقد أصابته نوبة هياج وصاح بالعربية: يلعن دين والديهم الكافرين.

وعلى الفور، وضع كومة من الحطب بهاء المنزل وأشعل نارا عظيمة. وعندما صعد الذهب عاليا وأضاء الحيطان الأربعة للدار، مثل ضوء النهار، مخترقا كثافة ظلمة الليل، ألقى لفتيه بهذيا الإنجليز، في تلك النار للحامية، وهو يرفقها بأفصح اللغات. وبينما كانت عملية إحراق كتب القديسين تتم بذلك الطريقة الساذجة، كان إخوة وأخوات الطلاب لثمانية، يرقصون حول حطب المحرقة وهم يرددون أقوال الأب. " يلعن دين والديهم الكافرين".

وهذا هو المصير المحتوم لكل المحاولات الهادفة إلى تحويل المسلمين عن دينهم، فمن الجذور دعوتهم للتخلي عن إيمان آبائهم، هذا الإيمان الراسخ الذي لا تقصم عراه، فكيف وصل بنا للجهل بعاداتهم إلى هذه الدرجة من الوهم؟ ألا ترون على العكس، بأنه كلما اتقى أو تنافس الإسلام مع المسيحية، كلما كان هو الفرجح؟ وبمكنا في هذا الإطار أن نذكر حشدا من المرتدين المسيحيين الذين أصبحوا مسلمين؛ لكنني لا أعرب مسلما واحدا تخلى عن دينه لينقلب إلى صف عبدة لمسيح.

إن شبه جزيرة قلجة تشبه مخروطا ناقصا، تعلوه ثلاثة نتوءات متباعدة الأشكال، اثنين منها يمثلان عند الأطراف رأس المعجور بالغرب ورأس الشوكات الثلاث بالشرق. وبشكل هائل الطرفان، اللتانيتين الشماليين الأبعد في القرية.

وهناك غديران يستقبل شبه الجزيرة هاتك وهما: واد الكرت الذي يلبح من زاوية سيدي محمد بن خنور وواد بني شيكر الذي يوجد كلية داخل القسم الذي يحمل نفس الاسم.

القرى الرئيسية بقلجة

قسم بني شيكر

- إغزاقن، (الأعزاء، المكرمون)، (التسمية عربية أمازيغية)، ما بين رأس المعجور ورأس الشوكات الثلاث، على شاطئ البحر. يوجد بها حوالي 50 منزلا ويمارس السكان الصيد والفلاحة، وخصوصا الصيد.
- أيت مسغذال، (أبناء المروج المصطنعة)، (التسمية عربية أمازيغية)، 500 منزل، قرب واد بني شيكر. وبالجوار يوجد سوق الثلاثاء.
- ثاقونيت، (القلعة الصغيرة)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.
- أيت فكتال، 100 منزل.
- سيدي الحاج سعيد، 100 منزل.
- إغدونن، (عبدة الله)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.
- الأربعاء، 500 منزل، يوجد بها سوق الأربعاء الكبير.

قسم فرختة

- أيت موسى، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.

- جنادة، (المسكر)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل قرب وادي بني شيكر الذي يأخذ انطلاقاً من هذا الموقع، اسم واد فرخانة
- فرخانة، (الثبالي الصغير)، (التسمية عربية أمازيغية)، وهو خليج صغير يسمى بنوع من المبالغة مرسى فرخانة، ويوجد بالشمال قرب مليلية.
- القلعة، 100 منزل، جنوب مليلية.
- القنطور، (الراسد)، (التسمية عربية)، وهو ميناء يقع على البحر، 100 منزل.

قسم بني بولفار

- تيزي، (ممر جبلي)، (التسمية أمازيغية)، وهي قرية كبيرة وسط قتال، غرب شبه جزيرة قلعية، 300 منزل. وتتضمن مجموعة من القرى الصغيرة.
- عزيزاتن، (الأعزاء)، (التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل، عبارة عن قرى صغيرة مجمعة.
- زردة، (الشقنة)، (التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل، وهي مجموعة من القرى الصغيرة السنية فوق أراضي متوجة وصحرية.
- حنيناتن، (العطوفون)، (التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل، وتشمل خمس أو ست قرى متقاربة هيها بينها.
- بلجوة، (سمك القد)، (التسمية عربية أمازيغية)، 30 منزلا.
- تيمزولونت، (شرفة السطح)، (التسمية عربية أمازيغية)، 50 منزلا، قرب البحر.
- لولاه الحسن، 20 منزلا، على واد بولفار وجنوب هذه القرية الصغيرة يوجد سوق الثلاثاء.
- تيفاصوع، (لبرسيم)، (التسمية عربية أمازيغية)، 50 منزلا، قرب البحر.
- بوحمزة، 100 منزل، على واد بولفار، وقد احتل الدرويش بعدد الأصمى سنة 1889، بهذه القرية.
- مرسى بولفار، خليج صغير.
- بني بوشفاري، (لبناء لب للصوصة أو الذي يمتلك بندق تطولانية)، (التسمية عربية أمازيغية)، وهي قرية صغيرة على شاطئ البحر.
- لاسمر، (المكان المشمس)، (التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل، وهي قرية مهمة.

- شمالة، (السريعة في السابق)، (أو البلد الذي ينتج لحسن أصناف شجر الزيتون، المسمى لشمال)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل.⁵⁵
- تفلدية، (الرعي)، (التسمية عربية أمازيغية)، مشتقة من الكلمة العربية غزيمة)، 50 منزلا.
- مهييلتن، (المهن من فصيلة aldar nasomaculatus وتجمع أيضا مهيات)، 100 منزل؛
- أولاد صر، 10 منازل؛
- بوحوي، (العاجز)، (التسمية عربية)⁵⁶ . 100 منزل، غير بعيدة عن الضفة اليسرى لواد الكرت الذي يسمى انطلاقا من هذا الموقع واد بوقفلر .
- إثيل ومضفلر، (القمة الملتوية)، (التسمية عربية أمازيغية)، 500 منزل؛
- أيت علي، 100 منزل؛
- إجولون، (الزواوا)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.

قسم بني سيدال

- أيت سيدار، (بني سيدال بالعربية)، في هذه القرية وقعت المأساة التي رويناها أعلاه، 200 منزل.
- يمن أولياسين⁵⁷، 300 منزل، أهم مركز ببني سيدال ويوجد به مسجد وزاوية ومجموعة من الطلبة .
- إجولون، (الزواوا) (التسمية أمازيغية)، 100 منزل.

⁵⁵ - انظر كتابي: ' أساطير وحكايات رائعة من القليل الكبير'، الكرسي للثالث الصكية 23، وهذا البيت * thalek'k amth ouchemical، والملاحظة المتعلقة بهذه الكلمة الأخيرة.

⁵⁶ - يمكن أن تعني أيا حواء أو المكان الذي وجدت فيه حواء. وتُعرَّف أسطورة شعبية هذا المعنى الثاني، إذ يحكي في الريف، أن أم البشرية، استراحت فترة بوحوي أثناء مرورها بقلمية. ومن هنا جاءت تسمية القرية.

⁵⁷ - تقرأ يلمين، وهو عنوان السورة 36 من القرآن وتبدأ كما يلي: "يمن والقرآن الحكيم" وقد حاول شارح هذا الكتاب الربطي شرح معنى هذين العرفين لكن بدون جدوى.

قسم بني بويلفرور (بني بويلفر)

- سيدي بوسيرا، وهذا تمت مبالغ فيه إذا ما تذكرنا عصبه الشديد على محمد بن الطيب.
- وهو سيد بني بويلفرور ويحظى قبره بزيارات مكثفة، 100 منزل؛
- زغنغن، قرية هامة من 500 منزل، على الضفة اليمنى لواد الكرت؛
- لقزوية، 100 منزل ، على واد الكرت؛
- الصلابة، (الصعوبة)، (التسمية عربية)، 100 منزل؛
- سوق الخميس، 300 منزل، وهو سوق هامة؛
- ثلاثة، وهو سوق الثلاثاء الكبير، 500 منزل.

قسم مزوجا

- سيدي موسى، في الطرف الشمالي لبحيرة بوعرف، 100 منزل؛
- مرمسى بوعرف، وهو شرم صغير يفصله عن القرية السابقة، ممر رملي صيق يقع بين السبخة والبحر.
- نقيوين، (المنبع)، (التسمية أمازيغية)، غير بعيدة عن بوعرق، 100 منزل.
- الجمعة، 100 منزل؛
- بزغنا، 300 منزل، جنوب سوق الأحد.
- فصبة سلون، يوغر فيها واد بوعرف الصغير ، الماء الصروري للحامية المخزبية.

قسم بني بوغمرن

- بوغمرن، 50 منزلا ، غير بعيدة عن منابع نهر صغير. وهو واد سيدي موسى الذي يصب بالناضور. وقد أبلغني أمالي هذا القسم بوجود أطلال هامة أشرت إليها بالخريطة؛ ويسمونها ikhraben iroumien (أطلال النصارى). ولربما كانت تشكل آثار مدينة قديمة، نسي اسمها في البلد.
- ويوجد عدد كبير من القرى الصغيرة التي تتكون من ثلاثة أو أربعة منازل فقط وخصوصا بقسم بني شيكر الكبير.
- القرى العسكرية : 22 ألفا من المشاة، عدد السكان المحتمل 110 ألف نسمة، لتنظيم القرأني منتشر بشكل كبير.

وتعتبر ملوية بمثابة المستودع الكبير الذي لا يتضخ منه القطنون وحدهم، بل كل أهلي
الريف الشرقي والدمرة حتى فجيج، وكل الجزء الشرقي من جباله. ولا يمكن مناقشة هذه
المنافسة الخطيرة إلا بحلق أسواق حرة على طول حدودنا مع المغرب. وبأمل أن تقوم الحكومة
عاجلا بضرورة خلق مثل هذه الأسواق.

قبيلة كبدانة

(أصحاب الأئدة) ، (التسمية عربية أمازيغية).

توجد كبدانة داخل صحراء القارث (الغارث)، وهي قبيلة زناتية تتحدث لهجة أمازيغية
تسمى الرناتية . ولا يتوغل القارث عن الامتداد رغم وجود مجرى مائي من أكثر المجاري أهمية
على الشاطئ الإفريقي للمتوسط بعد النيل، وهو نهر ملوية⁵⁸ الذي يجتازه دون أن يحصره،
متوقفا فقط أمام شساعة البحر، باسطا بكبرياء وأمام الصفعة لرقاء ، مصبه الذي يمتد على
خمسين كيلومترا، وهو مصب مترامي الأطراف، يمتد من بحيرة بوعرف إلى الحدود الوهرانية.
وقبل مغادرة اللمعة للتوجه إلى قبيلة كبدانة، لرتأى محمد بلّته من الأفضل أن يتحدث مع
التجار الكبدانيين الذين التقى بهم بسوق الجمعة لمروجا، حيث تواجد ليبيع الشعير والساعز والحنم.
وقد تعرف عليهم بسهولة من خلال جلابتهم الرمادية ولغتهم الزناتية المختلفة كثيرا عن تمازيغت
وجلس يجلسهم فوق تليمن " مقلوب مليء بالشعير، ليبدأ الحديث معهم.

وبعد أن تكلموا على أشياء مختلفة، أعلن الحوالم عن رغبته قائلا: " أنا طلب، أريد أن
أرفقكم، كي أدرس القرآن على يد فقهائكم الذين يقال عنهم كل خير". وأجاب هؤلاء الناس
الطيبون: " مرحبا بك، في موطن الإسلام"⁵⁹. وبما أن الوقت كان ظهرا، وكانت هناك مسافة
طويلة تنتظر الكبدانيين لوصولهم إلى ديارهم، فقد جمعوا أمتعتهم وأركبوا الدرويش على ظهر بغل
واطلقوا سائرين على جنبات البحيرة في قيدية، ثم على شاطئ البحر فيما بعد. وأسرعوا للفاطمة
الصغيرة المكونة من البغال مشيا دون أن تتوقف ولو مرة، إلى أن غربت الشمس، هكذا، اجتازت

⁵⁸ - ملوية (الملوية) (التسمية عربية). ويدعوها الأوروييون Molouya لكن يجب أن تطلق Moulouin .

⁵⁹ - مذابت كل قبيلة تدعي بأن إسلامها أفضل من إسلام الآخرين، فمن أن تتعجب من وجود لوطس للإسلام في
هذه الرلوبة الإسلامية الشاسعة المسماة المغرب

منطقة منبسطة والمالحة، مبنية قصداً من الأماكن المأهولة بالسكن، كي لا تنكفي بمجموعات من القبيلة أو لاد سنوات قتي كانت كبدانة في حالة حرب صدها.

وعند حلول المساء، وبعد هذه السيرة الطويلة والتمتع التي نال فيها الشعب كلا من الراكبين وبغالهم، وصل الجميع إلى القلال الأولى لجبل كبدانة. وهناك تبدد الخوف، فخصوص القارات بحبوب السهل ويسلمون أمنة المسافرين الذين يحترضون سبلهم، لكنهم يحفظون من المظلمة وسط الجبال المنيمة التي تشكل فيها كل قرية، قلعة صغيرة.

ونزل محمد بأول قرية تواف فيها أحد رفقاء الطريق. بعد هذا السفر المصلي على ظهر حيوان ينسب راكبه، مما ولد له الأما بالظهور. وكان اسم القرية الصغيرة التي تتضمن حشرين منزلاً هو: الزاوية. واستضاف الكبداني الرجل الغريب في منزله، حيث أدخله بيتاً لا ثالث فيه، وجلب له حصيرة من الخلفة، نمد عليها محمد على قفوره. وبعد ساعة، جاء المضيف بمسح من الخشب يرتكز على قاعدة طويلة ويسمى "المثرد" عند العرب. وكان من اللازم إيقاف الدرويش الذي شعر بالسرور عند رؤية الكسكس وقطعة اللحم الكبيرة الموصوعة فوق حبات السميد المصراة. وأتى الرجلان اللذان لم ينوفا الطعام منذ الصباح، على الطعام كاملاً، تاركان في عقر الصحن عظماً فقط، سمحه محمد للطفل الذي كان يسفي الرجلين. وبعد ارتشاف لجانين أو ثلاثة فجانين من الشاي، خلد الجميع إلى النوم.

وعند الصباح، استعمل الجوال الرحيل عندما علم بأن الطلبة يحفظون بتكريم خاص بقرية بو عنفود. وبالفعل، فإن هذه القرية الكبيرة المكونة من 300 منزل، تكرم ضيافة الطلبة الذين يتلون لنظم القرآن بمساجدها، وبها كان محمد يتناول وجبته، بعد جولاته الطويلة داخل القبيلة.

وتعد كبدانة شمالاً بالبحر الأبيض المتوسط وغرباً بقلية وبني بويحيى وجنوباً بلولاد سنوات وبني برناسن وشرقاً بطريفة. وتتوفر على قسمين وهما بو عنفود (التسمية عربية) وإزخانيين (التفاسمون) (التسمية أمازيغية)، ويعد كل قسم 2500 من المشاة، أي ما مجموعه 5 آلاف مقاتل بالنسبة لكل القبيلة وهم في غالبيتهم مسلحون ببنادق إسبانية.

ويعد جبل كبدانة، وهو عبارة عن تلال صغيرة متتابعة، مكسوة بشجيرات قسطنق (الديرو)، إلى داخل قسم إزخانيين. وحوله وأمامه يوجد القارات، السهل الصخري العاري، الذي يتوفر مع ذلك على بعض الشجيرات قرب الساحل.

ولهذا، فإن كل الأهلي استقروا بالكتل الجبلية بالجنوب، حيث الأرض غير مثقلة بالرمل والحصى، وأصلح للزراعة من أرض الصحراء القاحلة. وعلى القسم، تتواجد قرى الصغيرة بكثافة ولا جلمت على رؤوس جبلية pitons بأماكن صعبة العبور، محاطة بشجيرات التين

الوحشي. وعلى طول الأودية حتى السهل، تتوالى حقول الشعير على مدى البحر. لكن يوجد بها القليل من القمح، أما الحنظل فلا أثر له. وتكثر الأرتاب البرية والحجل وبدأت توى برمال القارات، وتندرا ما تتعرض للمطاردة.

إن كبدانة تشكل جزءا من اتحاد اتحاد. وفي الفترة التي رارها الدرويش كان يحكمها قائد اسمه بوصصة. وهو رجل ديناموكي، ذو لعود وخبرة في السلطة، وهذا أمر نادر في الريف. ومرد تلك في الحقيقة إلى كون الأهالي حكمين في تصرفاتهم ومجدين في عملهم وغير سلابين. وهم يهتمون بتربية الغنم والماعز والأبقار والحمير والبغال. كما أنهم ورعون ويقدسون كل ما يرتبط من قريب أو بعيد بالدين، ويقدمون ذبائح كثيرة لجلب الفقهاء المشهورين إلى القرابة. ويلقى كل طالب الحفاوة في مساجدهم العديدة، ولأن الطلبة المرحين يدركون المعرفة التي يحفظون بها، فإنهم يتهاقنوا على هذه القبيلة التي يسمونها "جبل الدقيق". وهي التسمية التي أعطيت أيضا لجبل بني زناسن وبني سنوس (بدائرة تلمسان)، لأنهم يتلقون الكثير من الدقيق الذي يصنعون منه خبزهم بأنفسهم ويبيعون الباقي الذي لا يمكن استهلاكه. ورغم بياض الدقيق، فإن الخبز يكون دائما مغلا إلى الأخضرار.

هل يرجع ذلك إلى غياب الخميرة؟ حسب المعتقدات الشعبية، فإن هذا اللون العثير الذي لا يفتح للشهية، راجع إلى دعوة أحد الأولياء الكبار المقدسين بالبلد، وهو سيدي إبراهيم الذي قطع بطنه من المستحيل جعل البشر سعداء بالكامل، طلب من الله أن يلبي كل رغبات أهالي كبدانة، وأن يوجب لهم بالمقابل مناعب خفيفة مع الخبز الأخضر. ووضع هذا الطلب سجعا وهو كما يلي:

بلكبدانة نيتكم ما تخيب ﴿﴾ وخبزكم ما يطيب

وعلى ساحل البحر، قبالة الجزر الجعفرية المحتلة من طرف الإسبان، أقام الأهالي مركزا يتواجد به حوالي مائة رجل لمنع أعدائهم من النزول إلى البر.

وكل رجل قادر، مطالب بالقوام بالحراسة. وبداخل الأراضي، جنوب للمركز الأمزيقي، تتورع منازل قرية البرج فوق الرمال التي تكسو السهل. وقد كانت الجزر الجعفرية التي يدعوها الريفيون حجرة كبدانة غير محتلة إلى حدود سنة 1849. ولزادت فرنسا السيطرة على هذه الجزر الجرداء لتشكل موقعا استراتيجيا أساسيا بمصب ملوية، على بعد كيلومترات قليلة من الحدود الوهرانية. لكن السعيبة التي أرسلتها لهذا الغرض، وجدت نفسها مسبوقة بهضج ساعات

قطب من طرف بلاجة قشتالية، ستثمر مواطنينا المحبين بلو العملية قد تمت باسم الحكومة الاسبانية.. وكان من اللازم القصوع للأمر الواقع. فقد قنظروا تسعة عشر سنة قبل أن نقرر وضع العلم الفرنسي فوق هذه الصخور القاطنة التي لم يكن أحد يدعي امتلاكها، وعندما عزمنا على إنجاز هذا العمل البسيط، وجدنا المكان محتلا. إنها قصة الحديثة للمكتشفين، وننتهي من هذا، إلا أننا هنا المغرب، كجزيرة طوب صغيرة، مثل تلك الجزر الجفرية التي كانت قريبة جدا من الساحل الجرجري.

ومثل كل القبائل الموجودة بالقبائل، فإن كيدانية تكون حرة صيفا بفعل الشمس الحارقة. وتهب فيها رياح الشرقي بنصف قوة وعنف رياح السوموم simouns الصحراوية. ولا يكثر ذلك كثيرا على السكان الفولانيين الذين يعيشون في هذه المناطق الوعرة. وكهنا كثر الحال، في مناخ البلاد صحي. فصل الشتاء الممطر والمعتدل جدا، يسمح لقوة لأهالي كي يواجهوا حرارة الصيف الحارقة.

إن الكبدانيين يتوزعون إلى أسواق الحدودية لبيع مواشيهم وصوفهم. لكن منذ استقرار الأسير بالجزر الجفرية، لم يعودوا يشترون منا أي شيء، معصون القناعة ما يلزمهم بالقرب منهم وبشأن بفس. ويمنع عليهم بيع أي منتج إلى جيرانهم بالجزر. من قنصلو الذين بمقوتهم بشكل لا يمكن وصفه، وكرحل حقيقيين، فهم لا يحبون ركوب السفن ويكرهون السفر الذي لا يصطلحونه أبدا وإن تجد عندهم ولو قريبا واحدا. بالمقابل، فقيم يتعمون على الأسعار الجيدة الطويلة، حنليين على بخلهم وحميرهم لشعر الذي يبيعونه لأوروبيين مدينتي نيمور ومطيلة. وهم يفضلون المدينة الثانية على الأولى، لأن كل ما يعرض فيها أحسن وأخص ثمنا. ويشترون بطليية ما هو ضروري لهم، من سكر وصابون وشاي ولحوب قطنية وبنزول وسكاكين وبنادق وخرطوشات الخ..

والموردان الأساسيان للكبدانيين هما: ثروتهم الرعوية والحظفة التي يصنعون منها القنصل ومسلح الأقدام والخرابيل لصنع الكسكس والخبيل والحصائر المسطحة، وهي منتجات تبايع لمرج الجنوب. وهناك مهران بالقبيلة، الأول هو ولد سيدي إبراهيم، وهو جلف بامتداد والثاني هو بئر ملوية الذي يكون ممثلا على قنصل. ويضم ولد سيدي إبراهيم النبع من جبل كيدانية، القبيلة إلى قسمين ويتجه نحو الشمال الشرقي حيث يأخذ في أسفل القرية التي يحمل اسمها، تسمية أخرى وهي ولد البرج. وتستحق قرية سيدي إبراهيم وقعة خاصة.

للبنين قنصرتي الذي يعتبره العرب جدا لهم، يتوفر على ضريح في هذه المنطقة القنية من شمال إفريقيا. وهو مبنى عظيم، لكن لا علاقة له بضخامة ضريح أرتميز Artemise.

وتعيط به المنازل لتزويد من ضياعته، مشكلة حزاما عربيا من البنايات الخفية والموجدة biscomues التي تقع على أرتعة منحوتة مليئة بأحجار البناء وبالحصص. وتوسط قرية سيدي ليراهم منازلها المعلقة على قاع السيل ذاته. وعند رؤية المنبع الجميل الذي ينبثق وسط القرية، نفهم لماذا اضطر الأهالي إلى الانزواء بذلك المكان، إذ لا يوجد في أي موضع داخل القبيلة، منبع يصاحبه عذوبة ووفرة ماء بل على العكس، ففي كل مكان، لا تشرب سوى مياه الخزانات.

من جهة أخرى، فإن نهر ملوية يخترق قبيلة كدافة بمص الشبه ويرعم أولاد الحاج المتولين بلضفة اليمنى بأنه يشكل حدود قسمهم من جهة الغرب؛ وهذا نزاع قديم سبب في العديد من المآسي وفي إراقة الدماء. وهذا النهر الهادي يجري هو أيضا منذ عدة قرون داخل رمال السهل وسط ضفاف غير مرتفعة، حاملا مياهه الحمراء الطينية العميقة. وفي فصل الشتاء يلغص عن حده وينطلي سهل القارات القاحل، الذي يصبح خصبا بشكل مؤقت بفصل قطبي الكثيف الذي يستغله الأهالي ويحولونه إلى بساتين الخضراوات، ما أن تتراجع مياه النهر. ولا يوجد أي مسكن على ضفتي هذا الأخير، فكل ما هنالك شجيرات الحومر (المسماة عند العرب شجيرات الطرفة). وهو نبات الوحيد الذي ينمو هذه المنطقة البنيمة. وعند حلول الظلام وحتى الفجر، تأتي الوحوش المريبة التي تسكن هذه الأماكن الموحشة، لتتروى عطشها في المياه ذات اللون القلبي. فالنهر بالنسبة لها هو مرشد أمير، تسير على جنباته حتى قبحر وتتصد مجراه بعد ذلك، بعيدا نحو الجنوب، لتصطاد الطرائد التي يرغبها العطش على المجيء إلى النهر.

ويؤكد المسافرون المسلمون بأن منبع ملوية يوجد بقبيلة القنادسة، ما بين تافيلالت وهورلوا، أي بمئات الكيلومترات عن مصبه. ويرسم النهر منحى كبيرا حتى تبدو، متلقيا من كل جانب مياه الروافد التي تملأ جنباته وتجعل منه ذلك النهر الرائع الذي يمكن رؤية مصبه قريبا من الجزر الجعفرية. ووسط الرمال العطشى للقارات وبعد أن يكون قد فقد نصف مياهه بسبب مجراه الطويل، يحتفظ للنهر مع ذلك، وفي شهر يوليو، بمائة متر عرضا ومترين عمقا. وفي الصحراء، يكون مستواه في الغالب هو نفس مستوى السهل، ويراها وهو يجري دون ضفاف متميزا فقط عن التراب الأصفر للقارات بالشريط القلبي والشماس لمياهه. ويمكن عبوره في الصيف القانظ، عند بعض الأماكن المعروفة لدى سكان البلاد. ويحكى أنه بعد هزيمة ليسلي، لم يرد الأهالي تعيين معايير النهر للأمير عبد القادر، وقد عرق العديد من رجال هذا القائد العربي، عندما حاولوا عبور النهر بجيادهم.⁶⁰

⁶⁰ - وقد حدثت هذه الفاجعة بالضبط، ليلة 21 ديسمبر سنة 1846، أي بعد أكثر من سنتين على وقوع معركة ليسلي

والشراء المثير هو أن أعلى كبدانة وطريقة لا يبالون بل ويحتقرون السك ولا يصطادونه أبداً ولو نيوحه إلى الأعلى المقيمين بعيداً عن النهر. لذلك تعتبر ملوية من الأتجار الأكثر توفراً على السك في المنظر المتوسطي للمغرب.

القرى الرئيسية بكبدانة

- البرج، 300 منزل،
- سيدي إبراهيم، 100 منزل،
- بوعفود، 300 منزل. ويوجد سوق الثلاثاء بالجنوب الشرقي لهذه القرية.
- بركاتين، (السود)، (التسمية أمازيغية)، 50 منزلاً،
- بركاء، (المكار الذي يوجد به السود)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل، جنوب غابة صغيرة من شجيرات الفستق
- سوق الأحد، وهو سوق هام؛
- ازووية، 20 منزلاً.
- القرى العسكرية: 5 آلاف من المشاة المسلحين جميعهم تقريباً ببنادق إسبانية. عدد السكان المحتمل: 25 ألف نسمة. السهل الظم في كل مكان.
- البلد قاحل وجاف. التعليم القرأني منتشر بكثرة.

قبيلة تريفنة

(التي تحيا في الترف)، (التسمية عربية) *

غادر محمد عند الفجر، قرية سيدي إبراهيم وسط كبدانة ووصل إلى ضفاف ملوية مع حلول المساء. ولأنه لا يعرف السباحة، فقد اضطر إلى قطع النهر على ظهر حصان وضع رهن إشارته من طرف مرافقيه من أولاد الحاج الذين رجعوا من حيث أتوا وقبل أن يغرقوا لنرويش دعوهم إلى أخذ الحيلة والحذر من هولة الذين يجوبون المنطقة والذين أعلنوا الحرب على جيرانهم بالمغرب. وأجابهم الجوال، وهو يشير إلى أسمائه قائلًا: " القريان في القفلة، عليه أمان

* - ملحوظة المترجم: يمكن أن تطلق أيضاً طريقة من الطريقة.

لطف". بعد ذلك، توغل داخل السهل دون وجل، وحيدا وبهذوء، وهو على علم مسبق بأن أي أحد لن يمس رجلا مسكونا مثله. وبعد نصف ساعة من المشي، سقط في كمين نصبه له أفراد من هولة. وصاح فيه بعض فرسانهم: "لنت إليها الكلب، من أي بلد أنت؟". وتوقف الدرويش عن المشي منتظرا مصيره، وأجاب بالتحضاب: "أنا مغربي". فتوجه فرسان هولة نحوه وجعلوه وسط جبالهم، عاملين على تروحيه، عبر تهيج جبالهم لرافعة قتي تنف على حوافرها الخلعة وتحرك الأمامية في الهواء، مباترة فوق رأس محمد. وسألوه مرة أخرى: "طيب، قل لنا كم عدد الرجال الذين يتوهم عليهم المغربة"⁶¹ لمواجهتنا وستسلم من الموت". وأجابهم الدرويش ببساطة: "إنني معلم بزلوية سيدي رمضلي"⁶². وكان يعرف التأثير السحري الذي تمارسه هذه الكلمات البسيطة على العرب. وعلى الفور، تراجع الفرسان، موسعين الدائرة حول الرجل الذي أصبح قويا في ضمعه، بل في أفرانهم ترحلوا وتقدموا باحترام نحوه وقبلوا رأسه قائلين: "اسمح لنا أيها الفقيه"⁶³ لقد كنا نعتقد بأنك من الغرب. وبما فك تنتمي إلى الزلوية، فعليك أن تركب الحصل وترافقنا إلى ديارنا".

وللاعتناء بالغريب المبجل، وصنع رهن إشارته حصان جموح، يصلح ويقف على حوافر الخلعة باستمرار. ولم يستطع الدرويش الذي شعر بالرضى، أن يطلب منهم مطية لكل جموحا، لذلك ركب الحصان الهائج الذي كل فردان من هولة يعملان على تهنتته. وما أن امتلأ الحيوان حتى ألس بنفسه مثل ريشة تتلاعب بها الرياح، بفعل الوثبات غير المنتظمة للحصان الذي يريد طي المسافات. ومباشرة بعد أن أصدر رئيس المجموعة صوتا متميزا تحرك الفرسان سريعا، راجعين إلى القوار.

وعند وصولهم أوقدت النار لتبهي الشاي، وبعد ذلك قدم الطعام، وهو عبارة عن خروف مشوي تفتترقه عصا طويلة لتسهيل شيه على القوار ولأن الفرسان وضيفهم كانوا جائعين، لقد أتوا على الخروف بأكمله.

وعند الصباح توجه الدرويش إلى قصبة شراة. ومن الأمور التي كانت شائعة لدى سكان المنطقة، أن "مولي الساعة"، وهو بمثابة مهدي منظر منذ قرون، ستكون انطلاقته من شراة. ولن يستقر الجوال سوى يوما واحدا بهذه القرية، ليتوجه إثر ذلك إلى القلعة، وهي قرية واقعة

⁶¹ - يكسدون بذلك، أولاد الحاج، جيرانهم بالغرب.

⁶² - وتوجد بقسم بني متوش، قبيلة بني زلفين.

⁶³ - وهذه التسمية هي بمثابة لقب متكذب، يوزع بدون تمييز، على كل من يعرف القراءة والكتابة.

قرب السوق المحاذي للحدود الفرنسية، بجانب ود كير . وسوخطى هناك بصدقة قاضي تريف.
قدحمر سودي عبد الرحمن الذي أوصى ضيقه.

إن سلسلة هذه القبيلة قبحية الموجودة بالقياس شرق تريف، لا تتعدى عشرون
كيلومترا، طولاً وعرضاً. وهي تمتد شمالاً بالبحر الأبيض المتوسط، وغرباً بكبدقة، وجنوباً ببني
زناسن وشرقاً بآلهم وهران. وتتضمن خمسة قسام وهي: أولاد الحاج، هولة (المهدمون)،
أولاد الصغير، أولاد منصور، بني منقوش. وتجدد الأقسام الأربعة الأولى 1500 فارس في حين
لا يجدد القسم الأخير سوى 50 مقاتلاً.

وتوجد تريفية كثيرة داخل سهل بنج الشحر والقصح بوفرد، مما يسمح بطلب كطمان قعاز
والأنكر والأخندم والجداد والجمال. وتظل هناك مساحات شاسعة غير مزروعة، تغطيها شجيرات
الزفراف *juzubiers* . وبالإضافة إلى ود كير، يوجد نهر صغير يحمل معه قتليل من الماء
إلى هذه المنطقة الجافة، وهو ود شراة الذي ينبع داخل قبيلة بني زناسن، حيث يأخذ اسم ود
بني وكلائن.

والقريشون هم عرب رحل يعيشون تحت الغمام، لكنهم لا يتجاوزون حدود قبائلهم. ويبدو
أن هذه الأخيرة قد قصبت إلى قسمين بعد رسم الحدود التونسية. وأساس التقضية عليهم هم
الكسكن والخيز الصغير، كما هو الحال في كبدقة. ويستهلك الشاي الصيني بكثرة، أما الأرض
فتحرث مباشرة بواسطة الجواد. بعد سقوط الأسطر الأولى للتريف.

إن تريفية تشكل جزءاً من اتحاد الجواد، وتعرض أحياناً لقوئل بني زناسن ولحمية في
مناطقها الجنوبية، أما نصفها الشمالي فيخضع لسلطة قائد سيدة *Saida* . وكعبة سيدة، كما
يشير إليه إسماها، هي هولة عن حصن صغير يقع على شاطئ البحر بمصب النهر الذي يشكل
رسماً للحدود مع المستعمرة الفرنسية. وأثناء حور محمد بن الطيب المنطقة، كان هذا الحصن
الصغير بأوي الحدود من جنود المشاة والفرسان النظاميين. وقد عين القائد البوخلاري المعزول
هناك، منذ أكثر من عشرين سنة، وهو يعيش الحياة القروية للقبائل المعزولة داخل قصره
الرفيع *manoir* ، حيث لا يوجد ما يشغل، سوى منظر الأراضي المنبسطة والسطح العالي
بالشمال.

ويوجد سوقان بالقبيلة وهما: سوق الخميس وسوق الأحد. ويقام الأول قرب قرية لراة
مرتقن في الأسبوع، يومي الخميس والأتين. أما الثاني، وكما يشير إليه اسمه، فهو يقام يوم الأحد
، ويتواجد عند طرف قرية القلعة يشطره ود كير إلى شطرين، حيث يوجد نصف السوق
بالأرض المغربية والنصف الثاني بالأرض (الفرنسية)، والمثير في الأمر أن تجد الأهالي

مسلحين بينهم في الجزء الغربي ومذروعي السلاح في الجزء الشرقي. فمن جهة، هناك الحرية
للأصليون والغريب قاتم للحكومة وسيادة قانون الأقوى والفوضى المارمة التي تهم ملايين
الأشخاص الذين لا يجمعهم سوى شيء واحد، هو الإيمان بالإسلام.

ومن جهة أخرى، هناك الحضارة الأوروبية التي تمثلها سلطة عظيمة وقوية، لا تفرق
بين القوي والضعيف ولا بين الغني والفقير، وتشجع التوأم بين أربعم مليون من الأشخاص
الخاصين لإدارتها والذين تختلف معتقداتهم، لأنها أثرت إيماناً جديداً وهو: الإيمان بالوطن
الفرنسي.

إن تربة الواقعة بأقصى شرق القارت، هي منطقة فقيرة وجافة. ومع ذلك، فهي تتوفر
خلال فصلي الشتاء والربيع، على مراعي جميلة ترتادها قطعان القبائل المجاورة. وهذه الأخيرة
التي تتوفر على قوة أكبر، تسيطر على المنطقة الصغيرة بالسلاح وتزيل كل النباتات الموجودة
بهذه المروج الجميلة التي ستختفي في كل الأحوال، مع البدايات الأولى للتبخر حيث تستبدل
الأرض الخضراء بأرض جرداء مصنوعة لن يثبت فيها شيء على مدى ثمانية أشهر. فمن
أبريل إلى نوفمبر، سبيل القارت عبارة عن جحيم تسطح فوقه شمس حارقة.

ويقال بأن أهالي تربة ليسوا كرماء ولا يحبون استضافة الغرباء. وسلاهم أبقات وعن
يخرجون بحلولهم. أما سلوكياتهم فعلوها ببعض المأخذات. ويرتدي الرجال البرنوس شتاءً والحلوك
صيفاً، ويتناولون "البلفه" التي تجلب من تلمسان. وفي الأسواق، تروى المقاتلين المسلحين والنساء
السافرات يتنصحن ويتكلمون عالياً ويتشاجرون ويسامعون في أثمان الحبوب والقصوف
والمواد المصنعة. ونظراً لقرب هذه الأسواق من قناب الفرنسي، فإن عملتنا الذهبية والفضية
تحتل بالأولوية مقارنة بالعملتين الإسبانية والمغربية الشريفة.

وقد سامت مجاورة القبيلة لنا، في رفع أثمان منتوجاتها المصدرة إنباء كالمائية بكل
أصنافها والقصوف والزبدة والبيض.

ويطلق القريفيون باسم مرسى ملوية على الخليج القاتم بمصب النهر الكبير، بواسطة
الطرفين الموجودين برأس الماء Cap de l'agouas ويقرأس الموجود غرب قصبة سعيدة.
ويمكن لمصب ملوية الخليج أن يكون في المستقبل، عبارة عن ميناء حربي وتجاري رائع.

القرى الرئيسية بتريفة

- قصبة شراحة وتوجد على واد يحمل نفس الاسم. وهي قرية صغيرة، يسميها العديد من
الروا الذين يأتون إليها للتزود بولينين صالحين معروفين وهما: سيدي ميمون وسيدي منظور.
وكذلك بنيت المنازل فيها بالطين الممزوج بالطين، وهي حقلية وغير متينة.
- قصبة هواره (المهدوم) وتأتي هذه القصبة بمصر الجنود المغاربة الملتحقين دوما
وراء أسوارها. وهي تبدو مهجورة في السنين الأخيرة.
- الزرايب، وتحتوي على حوالي خمسين منزلا.
- القلعة، وتوجد على الحدود مع فرنسا (الجزائر).
القرى العسكرية: 6 آلاف فارس، عدد السكان المحتمل، 30 ألف نسمة. المنطقة سهلة
وتوجد بها دواوير متنتة في كل مكان . أما الأمية فهي عامة تقريبا.

قبيلة أولاد ستوت

(أبناء المرأة الشرمسة أو الغولة)، (التسمية عربية)

نجد أولاد ستوت بالجانب الغربي لتريفة. وهي قبيلة من العرب الرحل الذين يسكنون
الخيل. وتتلف من حوالي خمسين من الدواوير الشاسعة التي يعيش سكانها في القبلي المنبسطة
للغارت المسيطر على المنطقة، حيث يغطيها برداته الأصفر الرطبي. ونجد بالغرب بني بويحيى
وبالجانب بني وكيل (الدمرة) وبالشرق بني زناسن وبالشمال كبدانة.
ويجري نهر ملوية بمنزرج صغير ، جنوب للقبيلة. أما واد غارت فيتمرج من الشمال إلى
الجنوب حاملا مياهه ذاته المذاق المالح (شلوق) ولتقليل الحموضة، إلى أن يلتقي مع ملوية عند
شمال بني محبو. ويصبح هذا النهر المياه لكل تلك المنطقة القاحلة. فبدونه لن يتمكن الرحل من
الابتماد عن ضفاف ملوية ولن تكون قطعان المائنة بمثل ذلك الجمال. والماء ذو المذاق المالح
ليس هو ما قد يعتقه سكان المناطق الباردة. فهو ممكن للعطش بشكل جيد ويجعل من يتناولوه
بدنيا ، وأهم ما يميزه بالنسبة للسكان الرعاة، هو مساهمته في تسمين الحيوانات التي تشربه.
وهذا على الأقل هو رأي الرحل.

والإكسام الثلاثة لأولاد ستوت هي: لولاد زابر بالشرق، القلوت (الجانب) بالوسط
 ولبخامة (المنكرون) بالغرب. وعلى طول امتداد القبيلة (20 كيلومترا طولا وعرضا) لا نجد
 قرية ولا منزلا، مع استثناء واحد بالشمال على حدود كيدانة، حيث تبرز قلعة صغيرة بأوي إليها،
 في زمن السلم، القرويين المخزنون الذين أرسلهم سيدهم لمصارمة السلب أينما حلوا دون أن
 يستقوا أحدا. إنها قصبة سلوان، أي قلعة و السلوان بالنسبة لأولئك المنحوسين المقيمين بها.
 وفي أصلي الشتاء والربيع، تقوم أكثر من 500 خيمة أجنبية بأراضي أولاد ستوت،
 وتشمل العقارات ومواشيها. وستتلقى الحضرة سريما تحت أسنان الحيوانات المجترة التي ترعى
 بكل حرية في المروج الشاسع جدا. ويتعاش أولاد ستوت، باعتبارهم رجلا، مع الوافدين الجدد
 ويرفقونهم شمالا وجنوبا، عندما ينفذ الكلا بأراضيهم. وتتحرك الحشود العظيمة باستمرار،
 متوجهة دائما إلى الأمام، حيث تأتي على كل ما هو أغصن وتتمزز صفوفها بالأهالي الذين نفذ
 الكلا بمراعيهم أيضا.

وعبر فيالي القلوت وصحاري أنجاد، تتعارف قبائل الرحل فيما بينها وتحالف وتعاقد.
 فالمغرب يجتمعون فيما بينهم وكذلك الأمازيغيون. وأحيانا تقتفي الحشود من العرقين، عندئذ تشب
 المعارك بسبب مجرى سائي أو من أجل امتلاك مرعى متنازع عليه منذ القدم.
 واليوم، وبعد قرون من الصراعات الدموية أصبحت أراضي البحور محددة، بحيث تمكن
 كل عرق وكل قبيلة من تجديد مجالها الخاص إلى جانب المنافسين الآخرين، الأقوياء والضعفاء.
 ويتم احترام هذه الحواجز المصطنعة التي تظل قائمة بفصل العبارة المأخوذة من المعارك القديمة
 واحترام التقاليد المتفق عليها.

إن أولاد ستوت لا يخضعون لأي أحد، فهم أناس خطيرون، لصوص وقطاع طرق،
 أنكياه بشكل كبير وحائكون. فمجرد رؤية زوج من النعال الجديدة أو خاتم يلعب أو ثوب نظيف
 إلى حذاء، يلهب طمعهم وينفعهم إلى ارتكاب الجرائم. ويصل بهم الأمر إلى حد سلب بعضهم
 بعضا، لأنهم ممنعون للذهب على الدوام ويتحينون الفرصة للانقضاض على فريستهم.

وهم يشتررون البنادق الإسبانية والبصائع من مليلية. ويسمح لهم القلميون المتصالحون
 معهم، بانتهاز أراضيهم مع أخذ الاحتياطات منهم والمستوى عربي اللغة والملبس. وهو ينكلم لغة
 عربية خالصة، بل ويستعمل عبارات منقاة. وهناك في قلب الصحراء، وفي ليالي السمر تحت
 سماء صافية، يحدث تنافس خالص بالفصاحة وحذاري من أي خطأ نحوي Solécisme .
 فالمسكين الذي يرتكبه، يتحمل وزره مدى الحياة، إذ سيشار إليه دوما أثناء الحديث، بالكلمة التي
 شوهها. وقد رويت لي حالة شخص معروف تحت لقب قلاعي فهذا الشخص السمين الحظ أخطأ

في نطق كلمة قنوق (لثركة سخن). وقد حاول تدارك خطئه ونبرة نفسه، لكن بعد فوات الأوان، بحيث كان محط سفرة الدور كله وبقي القلب مقترنا به.

وكما كان الشلل في عهد الرسول (ص) ولي المرحلة القراية لما قبل الإسلام، فإن البدو كانوا هم سادة اللغة وكانوا خطابين راقعين. لذلك، كل من اللازم الإكلمة بينهم لدراسة أغلى اللهجات العربية وأكثرها جاذبية وصعوبة. واستوتني الوحيد الذي تمكنت من استشارته حول منطقته وحول المغرب، كان يتكلم عربية فصحة. وقبل أن يودعني فشد الأبيات فتلية، بخصوص هذا العمل الجبار الذي تقوم به؛ أبيات يمكن لأعني ستوتني من عشر سنوات أن يلهمها لأول وهلة، وهو ما لا يمكن لمستعرب أوروبي أن يتوصل إليه ما لم يقص سنوات عديدة في دراسة العربية وسط البدو. وتقول الأبيات:

تنتظر الأنفس بالشك والترديد	✦	وسط اليم الفارق ملحين سفونك
ما فاصد مرسى تلجأ رواح المبد	✦	ومياه التاج غبط ليها سيرك
تحيا كل نهار على إقبس جديد	✦	مقحم ذا المشقة فلاح سفونك

في الستوتني المنطق والمحال لا يكتبي بكونه لصا وشاهد رور، بل هو لصا نعام ومغزى وقع. فهو لم يعد يتكرر العبارة العميقة للرسول محمد (ص)، البلاء موكل بالمنطق (بالعربية في النص الأصلي)

ويتهكم أثناء حديثه، على الجميع وخصوصا على الأمزيين الذين يدرك عيوبهم بدقة. وهو لم يسبق له أن رأى نصرانيا أو يهوديا، ومع ذلك فإنه ينسب إليهم كل رذائل الدنيا. لكلمة روسي هي شتمة خطيرة؛ أما لفظة اليهودي فهي حقيرة وبمثابة إهانة قتلته، لا توجه إلا للحيوانات القذرة، ولا يمكن أن توجه أبدا إلى حيوانات محترمة كالحصان أو السلوقي مثلا.

وهؤلاء الرجال الذين يعيشون تحت الغيلام ليست لديهم مملجد ولا مدارس، وتتوفر المثلثات المبسورة على مربين، تقتصر معرفتهم على القرآن الذي يتم تحفيظه للأطفال دون تفسير.

وفرسان القابذ مقبولون بالقبيلة. وقد اقتضت العادة أن يستقبل الفارس الذي أرسله سيده إلى الدور من أجل مهمة؛ استقبالا لائقا. ذلك أن كل عائلة تقدم له يوميا وبمقتلروب، دجاجة ورطلين من النقيق ونصف رطل من الزبدة ويضع غرامات من الشاي ووجبة من الشعير

لحصوله. ويمنح له تعويض يومي من خمسة فرنكات، على حساب ذلك أو أولئك الذين كانوا سببا في مجيئه إلى القبيلة. وتتم الأمور بنفس الشكل تقريبا في كل دوائر وحدة.
إن القوافل القديمة الممتدة إلى منبلة لشراء البنلق والبرود والخرطوشات والسكر والشاي والملابس القطنية، تمر عبر الحدود الشرقية لأولاد ستوت وتصل إلى تريفه، ثم تتوجه بعد ذلك إلى القلعة القشتالية مروراً بأراضي كبدانة والعمية. ويمكننا أن نتصور أهمية المعاملات التجارية من خلال العدد التقريبي للقوافل الذي يصل إلى مائة سنوياً على الأقل، في حين يتراوح عدد الموفشي ما بين 100 إلى 500 بالنسبة لكل قلعة. ألا تعتقدون بأن العديد من الأسواق الحرة الموزعة على حدودنا، قد توقف بعض القوافل أثناء مرورها؟ هل سيتردد الأهالي في اقتصاد مئات الكيلومترات لو وجدوا عندنا نفس الأمان البهيمية ونفس البضائع الموجودة عند الإسبان؟
إن طرح السؤال هو الطريق إلى حل؛ إذ يجب علينا أن نبدأ بمواجهة المعقل القشتالي (منبلة) تجارياً، وأن نشجع جيراننا المغاربة على اتباع طريق الشرق، ونبرهن لهم بأن الصناعة الفرنسية أفضل من صناعة العديد من البلدان الأوروبية الأخرى.

ويتكون الطعام الأساسي لأولاد ستوت من كسكس الشحير، كما يشكل الحززون المطبوخ والكليلة (جبن مصنوع من اللبن المثلج) طعاماً إضافياً مرغوباً فيه. ويراب الحليب عبر خلطه بالشوك الداخلي للخرشف (الحكة).

وقد احتفظ محمد بن الطيب بذكريات سيئة من أولاد ستوت. وتؤكد الرواية القنطية على أنه كان صائهاً في حقه عليهم. ففي أحد الأيام، قنس وسط مجموعة من الحصادين والميلامين الريفيين، الراجعين إلى ديارهم بقلبائل الموجودة بالريف. وكان ضمن هذه المجموعة رجل يدعى السباعي، أصله من أولاد السبع بالقيم مراكش. وهو متزوج من امرأة شابة من أولاد زهير (قبيلة أولاد ستوت). وكان هذا الرجل راجعاً إلى دوله الواقع قرب سوق الأحد، حيث كان صهره وروجه بانتظاره. وقد سبق لابن الطيب أن اشترى من سوق الجمعة الذي عاينه، نطوين جديدين من النوع القاسي. وكان هذا الاقتناء سبباً في إلراغ جيبه، إذ أدى ثمن النطوين فرنكين وخمسين سنتيماً، وهذا كل ما كان كسبه من جراء بيعه حجاباً لبدوي عليل، مدعياً بأنه يقي من أمراض الحيون. ولأنه كان مطمئناً بتولجده وسط الحصادين، فإنه لم يخف عليه داخل قلنسوته، بل لبسها وتابع السير مع رفقه الذين كانت أرجلهم العازية والوسخة تتناقص بشكل مثير مع الجلد الأصفر الجميل للنعلين. ولم يكن السباعي هو الوحيد الذي لاحظ أنفة التدريش غير المعهودة، إذ لم رجلاً يلبس مثل هذين النطوين لا بد وأن يحمل معه نقوداً. والمهم هو سلبه مناعه دون إثارة انتباه أي أحد؛ لذلك وجب استدراجه إلى دوار الدرجة والصبر؛ وسيكون هذا الأخير مصروراً

بالحصول على بعض النقود القصية كمكافأة له على توليته. وعندما تقرب الجميع من سوق الأحد، أظهر السباعي فجأة لطمعه، وتوسل إلى الرحالة بأن يقبل المجيء عنده والاستراحة داخل خيمته الصوفية. وقبل محمد الدعوة، مدركا حيلة مضيقه. لكنه لم يكن لديه مال وكانت ملابسه في حالة رثة، فما لدي يمكن أن يفعله هذا الرجل؟ هل سيقوم بقتله؟ إن هذا غير ممكن، إذ لا يقتل الإنسان بدون سبب، حتى ولو كان في المغرب.

وعليه، خاطب الدرويش السباعي قتيلا: "سأرافقك إلى حيث تسكن". ولم يخطر بباله ما قد يحدث لضييفه. إثر ذلك ودع مجموعة الحصادير الذين تابعوا سيرهم، ورافق مضيقه، معتقدا بأنه سيظهر بظلم جيد وسيصحبك على المغربي الطماع.

ومن جهته، فإن السباعي كان يتصور بدور شك، لي المقتنين أو الثلاث مائة فرنك التي بحوزة الدرويش ستمتعه من الحصاد الشاق لمدة سنتين أو ثلاث سنوات. وعند وصولهما إلى الدوار، تبادل السباعي وصهره نظرات ذات معنى، بخصوص التعامل مع هذا الغريب. لكن لسوء حظهما، فقد كان يتواجد بالخيمة خمسة رجال من أصدقاء العائلة، وصلوا في الليلة السابقة وكانوا يتأهبون للذهاب إلى سوق الأحد بعد تناول الغذاء. وأعلن الدرويش على الفور: "هذا أمر جيد، سادس لنا أيضا إلى السوق وسأخذ الطريق معا". وكان ينظر إلى مضيقه بتهكم، غير أن هذا الأخير لم يظهر لضعفه وغير خطئه، حيث أصبح للرحالة بمرافقة الرجال للضمة الذين سيقيمهم صهره. وبعد تناول الطعام الذي كان مكونا من خبز الشمر والرعدة والصل، أخذ الجميع الشاي. وعند الساعة الرابعة بعد الظهر استعد المسافرون للرحيل بعد أن خفت حرارة الشمس. وودع الرحالة مضيقه السباعي بتكبر مصطنع قتيلا بسعريّة: "يا عزيزي، كافاك الله وملا متريك بالأطفال.. وأغناك ومنحك المساعدة". وتظاهر السباعي بالتكبر بفعل هذه الدعوات المتتالية، وأعلن بأنه غير راضٍ وأن بإمكانه مرافقة الجماعة. وإثر ذلك، أسك بيد الدرويش، وهي علامة على روابط الصداقة لدى المغاربة.

ولما ابتعدوا عن الدوار بحوالي كيلومترين أو ثلاثة، تظاهر السباعي بالعرج وطلب من صهره بأن يتابع السير مع الرجال الخمسة، ثم شرع يشتكي قتيلا: "اللمنة على هذه الأحجار، لقد أثمت رجلي. ولت يا عريزي محمد ابق معي وسأتكف بإرشادك، أما الآن فسأكون عليك من جانب وعلى عصاي من جانب آخر". ولم يكن بإمكان محمد الاعتماد على الرجل الذي كان يمسك به بيد حديدية. أنصف إلى ذلك، أنه لم يكن يملك قلما واحدا، بحيث سيكون الآخر هو من سيقع في الفخ. وتليما للسير فترة من الزمن صامتين، ولم بعد يظهر أمامهما أحد. عندئذ توقف السباعي فجأة وأبان عن وجهه الحقيقي، صارخا في الدرويش:

- هل هناك نقود؟

- لا

- سأقتلك

- افعل ما تريد.

ولما فحشه السباعي بقعة دون أن يجد ولو سنتيما واحدا، لفعل وصرخ في وجهه قائلا: "أيها المقاربة الكلاب، تفادرون بلكم لممارسة شطارتكم في جهة أخرى. ها اطلع لطيفك". ولم يكن محمد يتوقع هذا الأمر، فحاول المجادلة وإقناع اللص بأن رجله أكبر من القطير؛ لكنه سيختل سريعا عن محاولته ليلم العصا المرفوعة فوق رأسه. هكذا، وضع السباعي المسروقات بكنسوته وقتل راجعا إلى الدوار. وبعد أن سار عشرين خطوة، غاطب الدرويش قائلا: "آه، لقد نسيت، ها هي طريقك التي ستوصلك إلى وجهتك". وكلفت يده تشير إلى الوجهة غير الصحيحة، التي أن يتبعها محمد طيما. وافترق الرجلان، وأخذ كل واحد اتجاهها ماعكسا للآخر. وبعد ساعات من المشي المتعب فوق أرض حارقة، وصل محمد إلى دوار كبير. وتحت الخيمة التي لقي بها القرحاب، لرح بلقاء أناس سبق له التعرف عليهم بمزوها (قلعة)؛ وهم أقرباء للقائد الحاج حنو، وقد اضطروا لمغادرة قبيلتهم بعد نفي الجماعة لرئيسهم. وكان لقائد يعيش معهم، على أمل أن يرجعه نمرد ما بالقبيلة إلى منطقته.

وبعد أيام، التقى الدرويش وأصدقائه في سوق الأحد، بالسباعي الوغد وهو يتجول بالدميين المسروقين. واقترب منه القلعويون بمرض استردادها إلا أن المجرم أكد بلغة فسيحة، بأنه هو مالك القلعين وأن الرحلة كذاب وهذا خير تبرير للمثل العربي المتعلق بقبيلته والذي يقول:

أولاد ستوت مولاة بهوت ﴿﴾ الله لا يرحمها يوم تموت

وحسب أسطورة عربية قديمة، لها علاقة دون شك بنفاق هؤلاء الرحل وبسمية قبيلتهم أولاد ستوت التي تعني أبناء المرأة الشريرة أو الغولة، فإنه في الزمن السحيق الذي لم تكن فيه هذه المنطقة الرهبة مأهولة بالسكان بعد، فإن أهالي المناطق المجاورة لاحظوا يوما تولد عولة يتبعها اثنين أو ثلاثة من أبنائها. وكانت تجوب المنطقة التي سمعتها اسمها وتلتهم الناس قننين تصادهم في طريقها، كما تطعم أبنائها لحم الأدميين.. ولم يعرف أي أحد من أين أتت، كما لم يظهر برقيقتها أي ذكر، سواء كان عولا أو إنسيا، وهو ما دفع إلى القول فيما بعد، بأن أولاد

موت لا لب لهم. وبعد أن نشرت الطراب حولها مدة سنوات، انفتحت فجأة. أهلى أين ذهبت؟ لا أحد يعلم، لأنه لم يرها أحد بعد ذلك. لكن أبناءها ظلوا بصحراء القوت. ومنهم من حضر لولاد ستوت الحاليين، الذين يعتبرون خير خلف لخير سلف.

معلومات عامة حول أولاد ستوت

بمستقاء نسبة سلون، ليست هناك منازل مبنية فوق كل تراب هذه القبيلة من الرجل. وتشير الأماكن التي يقام فيها سوق الأحد وسوق الجمعة بشمال القبيلة، عارية ومنبسطة مثل راحة اليد، إذ لا وجود فيها لمسكن ولو من الطين وقتين.

القرى العسكرية: 4 آلاف فارس، مسلحين ببنادق إسبانية. عدد السكان المحتملين 20 ألف نسمة. المنطقة منخفضة ورملية، لكن توجد بها مع ذلك، بعض حقول الشعير. التعليم شبه منعدم. الاستقلالية مطلقة.

قبيلة بني زناسن وبني محيو

(تحويل لكلمة يحيى أو ماضي)

بعد أن غادر منطقة أولاد ستوت البنيصة، توجه محمد إلى قبيلة بني زناسن. وهناك طلب الأكل واللباس والغطاء من ربيعة سيدي رمضان ببني منقوش. وكان بالرواية حوالي عشرين طفا مجدين ومنهمكين في حفظ سيدي خليل، ذلك الفقيه العربي المعروف بالقتصاب وعموض لبطوبه. وعلى مدى شهر، سيجعل الدرويش من هذه القرية مركز " عمليته ". بعدها سيخصي شهرا عند بني عتيق وشهرا آخر عند بني وريش وشهري عند بني خالد. منتقلا عبر الجبال والوديان. وهذه العبارة مستعملة في مطها، لأن القبيلة توجد كلها تقريبا وسط كتلة جبلية، تضامى في جمالها وخضرتها أجمل المناطق الربية التي سبق أن زناها. وتحد شرقا وفي الشمال الشرقي ببلقيم وهران وشمالا بتريفة وفي الشمال الغربي بكبدانة وغربا بأولاد ستوت وبني محيو وجنوبا بقبائل الدهرة. وهي تمتد على مساحة أربعين كيلومترا من كل الجهات. وتتفرع على أربعة أقسام وهي: بني خالد، بني منقوش، بني عتيق، بني وريش (أولاد المجموعة)، (التسمية عربية أمازيغية). وكان من العنصر أن تندمج قبيلة بني محيو الصغيرة جدا، داخل جارتها الشرقية الكبيرة، حيث تخصص لها بشكل مطلق منذ قرون.

وقبيلة بني زناسن مستقلة تقريبا، رغم المجهودات المتتالية للسلطان الذي يقوم بكل ما في وسعه ليطهر منها بما يشبه الولاء، لذلك فإن قبالها هم أول من يثير الاضطرابات، حيث يتسببون في الحروب بهدف تضخيم ثروتهم.

ولكي لا تظل معزولة بجانب السكان العرب والأمازيغ المتحدنين، فإنها كانت ملزمة، رغم الحصون الطبيعية التي تشكلها جبالها، بالانضمام إلى لف أنجاد الذي يشمل بني زناسن، بني محيو، تريف، كيدانة، فولاد ستوت، بني بويحيى، السنجة، بني بوزيكو، لمهية، بني يعل، بني وكيل، الركرة. وهناك مجموعتان متميزتان تفصلان هذا الف الهائل، فمن جهة يوجد العرب ومن جهة أخرى يوجد أمازيغيو زنقة أو الرنايتيون.

ويمثل العرب كل من تريف، أنجاد، لمهية، السنجة، بني وكيل، فولاد ستوت وكلهم رحل يعيشون بالسهل وبالصحراء.

وبالنسبة لزنقة نجد بني زناسن، بني محيو، كيدانة، بني بويحيى، بني بوزيكو، الركرة. وتقوم روابط تضامنية متينة بين قبائل كل مجموعة، وغالبا ما يتنازع العرب والأمازيغ فيما بينهم. حينها تحدث مجازر رهيبة وغزوات شرسة، يظل الفريق المهزوم على إثرها، منهوك القوى مدة طويلة.

وتتملك قبيلة بني زناسن أراضي شاسعة وجميلة ترويضها المياه بكثرة وتنمو فيها الأشجار بوفرة وتحيط بها الجبال العالية الأهلة بالسكان. وتظهر كتلة الف التي بدت من قبل وكأنها غارقة في رمال القارت، وقد اكتست قممها بالثلوج في فصل الشتاء. وتشغل هذه الجبال مساحة شاسعة محاطة بالسهول من كل جانب، ففي الشمال توجد الأراضي المنخفضة لتريف وكيدانة، وبالغرب هناك الأفق الشاسع للقارت القاهل والجنوب توجد صحراء أنجاد وبالشرق هناك الأراضي المتموجة إلى حد ما، على الحدود الفرنسية (الجزائرية). وهي تشبه كتلة جبال الوسط لفرنسية إلى كانت أعلى منها، وذلك من خلال الزكام المتشعب للسلاسل الجبلية التي تمتد إلى السهول المحيطة بها. وتعد سلسلة الفرنسية، المسماة من طرف الأهالي بجبل بني زناسن، من الشرق إلى الغرب، تاركة وراءها بالجنوب والشمال، تلالا مخضرة مليئة بالقرى. وعادة ما تأخذ هذه الجبال الثانوية أسماء الأقسام التي تتواجد بها، ومن أشهرها جبل تافوغالت (جبل الفيلان أو الفواكه غير الطازجة) (التسمية عربية أمازيغية) بالشمال الغربي من بني عتيق.

وعلى القمم، يرى أشجار البلوط والقسطق والسنديان والذلب والجوز، وفي الوديان وعلى جانب المنحدرات، توجد العديد من أشجار الفواكه مثل شجر التين والبرتقال والخروب والوز والجوز والزغروف والرمان والتي تحيط بها الكروم المتسلقة. وفي أسفل التلال والسهول، توجد

الحلقة وشجيرات القيقب الوحشي بكثرة. وتروى هذه المنطقة الجميلة بمئات المنابع وبالعدد من الأنهار، ومن بين هذه المنابع نذكر :

- عين صفرو ذات المياه العذبة والصالحة مثل البهار.

- عين الصفا وتوجد أسفل العين الأولى.

- عين بني عتيق .

- عين بني موسى.

أما الأنهار الرئيسية فهي:

- واد بني وريمش المعروف باسم واد ناكما (الوادي)، (التسمية عربية أمازيغية)

ويجري من الجنوب نحو الشمال، عبرها وديانا خصبة، وهو واد من روافد نهر ملوية الكبير.

- واد زكرل (الأراضي الغرائبية)، (التسمية عربية أمازيغية)، وهو يحمل مياهه

الصالحة وسط مروج رائعة.

- واد بني وكلان (واد لباء العبيد)، (التسمية عربية أمازيغية)، ويشكل عبر التقائه بواد

زكرل، نهرا هاما، يعتبر أكبر روافد ملوية في الريف.

- واد صفرو، يجري من الشمال نحو الجنوب ويغترق الذهرة جنوب مولاي بريس.

- واد بني خالد، وهو غير معروف تحت هذا الاسم، ويشتهر باسم واد عجرود (المسبل

غير الناضجة)، (التسمية عربية) وواد كيس⁶⁴.

- إن الاسم القبيلة كبيرة وأهله بالمكان وتتضمن عرفا قويا وشجاعا يصمد في وجه القبائل

العربية الناهية، ونستثنى هنا بني محيو، وهم رحل يعيشون تحت الخيام، لأن موقع قبيلتهم يوجد

بالمسبل، على عكس باقي الأمالي الذين تتحصن غراهم بالجبال. ويجند بني وريمش للدفاع عنهم

ألف رجل، نصفهم فرس والصف الآخر مشاة. أما بني محيو، جيرانهم الرحل الذين يعتمدون

على الفرس كلية، فهم يجندون حوالي ألف فارس. ولا يتوفر بني عتيق إلا على المشاة الذين يبلغ

عددهم تقريبا 1200 رجل. غير أن الحصن المنيع لبني زفلسن، يشكله كل من بني منقوش الذين

يجندون لوحدهم 5 آلاف من المشاة، وبني خالد بثلاثة آلاف فارس.

وإذا شيدت القرى على سفاب الأنهار ولرب منابع المياه، وحولها توجد بساتين الخضار

والفواكه الرائحة التي تسر الناظرين.

وسلاحظ المرء التناقض الكبير مع القارت البشع الذي تتواف كثران رماله عدد سبع جبل

وريش..

⁶⁴ - يظل اسم واد كيس من أشهر هذه الأسماء.

ولأن ملوية كانت تشكل الحدود القديمة لموريطانيا العثمانية، فإن كل المنطقة الواقعة الواقعة بيني زمامن، وجب أن تشكل جزءا من إفريقيا الفرنسية. ونسائل لماذا عوض ولا كيم الصغير، أثناء رسم الحدود النهائية، المجرى الهائل الذي كان يعتبر منذ القدم، كفاصل طبيعي بين عالمين مختلفين جدا وهما: المغرب الأقصى (أي المغرب الحالي)، والمغرب الأوسط (أي جزائرا الحالية) "، ويعترف المغاربة فيما بينهم فقط بأنه كان من حق فرنسا بعد انتصارها بليبلي، أن تطالب بكل المنطقة الممتدة حتى ملوية. وقد أدركت من اعترافهم هذا، كيف أننا خدعنا مرة أخرى من طرف الدبلوماسية العربية. فقبل أن يرسل ابنه سيدي محمد لمحاربة الفرنسيين على الحدود الجزائرية، قال السلطان مولاي عبد الرحمن: " احتفظ برسائلي الطيبة وأحرق السينة، لكن اتبع ما أمرك به في الرسائل السينة ولا تهر اهتماما لما هو موجود بالطينة ". وسيطبق الشاب تعليمات أبيه بهذا. وكانت كل رسالة تتضمن رسالتين، الواحدة طيبة والثانية سينة. وفي الأولى، كان السلطان يثأد قائده العسكري بألا يهاجم الفرنسيين ولن يكون متسامحا معهم إلى أقصى الحدود ولن يمنع كل انحراف على أرض المعركة ويوقع في أقرب وقت معاهدة سلام صادق ودائم.

لقد الآن الوجه الآخر للعملة، إذ تقول الرسالة الثانية ما يلي: " قم بنحر هؤلاء القصارى الكلاب، قتلهم أينما وجدتهم ولا تتسامح مع أي واحد منهم، فليس هناك سلم مع هؤلاء الكفار.. " وبتاريخ 14 غشت 1844، هرب سيدي محمد من ميدان المعركة، بعد أن تهرم جيشه نهائيا، وقد ترك الأمير خيمته وأمتعته، وحتى مطلقته الشهيرة التي أثارت فيما بعد، إعجاب الفضوليين بباريس.

ولم يبق في صندوقه سوى الرسائل الطيبة أما السينة فقد أحرقت عن آخرها منذ مدة. وقد قهر الفرنسيون بطيوبة السلطان للرفعة. وسيبدر هذا الأخير في نفس الوقت، بالتهور مما فعله ابنه، قائلا بأن الأمير لم يطع أوامره وبأن بإمكان كل مطلع على رسائله التأكد من ذلك. وسقط مواطنونا المدج والطيبين في الفخ، إلى درجة الاعتدال تقريبا عن انتصاراتهم. وتغلوا بطيبة خاطر، لحد الرحمن المناور، عن أجمل الأراسي التي احتلوها بقوة السلاح.

* - مسؤولة المترجم، لذا في حاشية إلى تأكيد المنحى الاستعماري الواضح الذي يدخل كلام مولاي بريس والذي يدرر الأطماع الفرنسية المتمثلة بالمغرب، بعد أن لحكت فرنسا السيطرة على جراتر(ها).

ويبرز على هذه المنطقة التي يمكن تشييدها بسويسرا صغيرة، بحر القند الكبير من
الروايا والمساجد التي نجدها في كل مكان والتي تكون دوماً مليئة بالطلبة وبالمؤونة . وإليكم
أسماء بعض هذه الروايا.

- زاوية سيدي الحاج محمد الصيري، حيث يتلى " ورد " درقلوا
 - زاوية محيي الدين (" ورد " الشيخ عبد القادر)
 - زاوية سيدي رمضان (" ورد " وزق، أي " ورد " مولاي الطيب)
 - زاوية سيدي عبد القادر (" ورد " هذا الولي)
 - زاوية سيدي الحاج بنسعيد
 - زاوية سيدي علي الهكاي
 - زاوية مولاي انريس
- وتوجد سبعة أسواق بالقبيلة وهي:

- سوق الأربعاء ببني وريمش
- سوق الأحد بقرية بني موسى ، قسم بني عتيق
- سوق الثلاثاء بتازاغين، قسم بني عتيق
- سوق الاثنين ببني منقوش
- سوق الأربعاء ببني منقوش
- سوق الأربعاء بصافرو (بني منقوش)
- سوق الاثنين ببني خالد.

وساء القبيلة أنيقات وهن يذهبن إلى الأسواق سافرات لوجوه ولا يخشين نظرات
الرجال. وتدعي بعض الأسن الخبيثة بأن بعضهن يملن من برود جنسي. ومن جهتهم، فإن
الرجال يرتدون جلباباً رمادية مفتوحة في نصفها الأسفل، مثل جلباب الكهنة. ويضعون
البرنوس فوقها خلال فصل الشتاء. أما في فصل الصيف فنالبا ما يكتفون بالحائك. وهم لا
يتخلون أبداً عن أسلحتهم، وهي عبارة عن بندق جيدة، تم شراؤها من الاسبانيين بميلية وعن
خناجر من صنع تاهزوتي. ويتحدثون لهجة أمازيغية تسمى الرنقة، وهي متداولة ما بين رجدة
ودبدو.

ونجد في الأسواق كل منتجات المنطقة، من أبقار وأغنام وماعز وحمر وبغال وجمال
ودجاج وفواكه وخضر وشعير وصوف وعسل. كما نجد مختلف المنتجات الإسبانية والفرنسية
كالفحم والبنترول والسكر والشاي والبنادق والخرطوشات والبارود والرماس والأثواب. وقد

يتعجب المرء من الكم الهائل للخروب المعروض للبيع، إذ أن الأهالي يشترون هذه الكبسولة الطويلة والمسطحة التي تتخذ أحيانا أشكالا غريبة. وتتواجد شجيرات الخروب بوفرة في كل القبيلة. لكن الروعة تتجلى بالخصوص في بستين البرتقال التي تسطر الوديان البهية لئلي وريش. وتكثر أشجار البرتقال على طول ضفتي واد زكزل. كما أن قرية زكزل نفسها مبنية في وسطها بهذه الفاكهة الغلابة وبهذه الأزهار الثلجية التي يتخفى بها المنشدون الزلتون، عندما يقومون في فصل الربيع بجولات غنية عبر المناطق الغنية بالقبيلة. ويعود هؤلاء المنشدون إلى بيوتهم محملين بأكيلس من هذه الفاكهة الذهبية التي تلقوها مقابل إنشادهم والتي ستباع إلى التجار المتجولين الذين سيحرصونها بقصبة العيون ووجدة ونيمور وتلمسان.

إن الدرويش المشغوف بالبرتقال والفواكه الأخرى والطيوات، وبالمختصر بكل ما هو مصلح للأكل، مسجد في منطقة بني زنافس جنة حقيقيّة. وسيروها مرتين، الأولى سنة 1888 والثانية سنة 1893، حيث أن قوته المأدب التي تقام بها، بل إنه سيتخذ كل التدابير للاحتفال بعيد الأضحى في القرى المتفرقة هناك. لذلك نراه باستمرار، متجولا في أراضي القبيلة باحثا عن مكان الوعدة وعن الطعام الجيد.

وبزاوية تزاخير التي كان متعلقا بها على الخصوص، لدواعي بطنية لا يتسع المقام لتحليلها هنا، كان الطلبة يعتبرون الدرويش غير جدي وغير قادر مثلا على القيام بمهمة التدريس التي تشغل الوقت وتستدعي الاستقرار، والتي كان يقوم بها معلم متعصب ومشاكس، أسلم الروح لباريها. فقد كان الدرويش محبوب البلد ويتغيب يومين أو ثلاثة أيام متتالية، ثم يعود من جولاته ماطحا بالوحل وبالبخيل، ممزق الثياب بسبب الأشواك الموجودة بالمسالك الضيقة التي يهوى المرور منها، وسط الكتل الجبلية للمنطقة برمتها.

وفي إحدى الأمسيات، عد السحر، جلب معه إلى الزاوية رجلا لثقي به وسط الغابة، حيث كان تائها وسط الأشجار الكثيفة. وكان عمر الرجل أربعين سنة تقريبا، وقد تلقى تكوينًا متينا بفاس وأجهد نفسه في التحصيل مدة عشرين سنة، وما زال مقتنعا بأنه غير مؤهل لشغل كرسي أستاذ النحو بمسجد من المساجد العديدة بالعاصمة الشريفة. وقاده قدره إلى بني رنسن وهو خاوي الوفاض، حيث أكرمت ضيافته في كل المساجد التي ينام بها والتي يغارها سبلها، بحثا عن عمل وطالبا فقط بأن يحظى بتعليم مبادئ القراءة للأطفال من ست سنوات. لكنه لم يجد شيئا، بسبب الحسد الحاد للمتخلفين الذين يسمونه بدون رحمة، من كسب قوته بشرف. وقد دام هذا الأمر عند مغادرته فاس وعندما وجد الدرويش مستلقيا فوق العشب، اعتقد في البداية بأنه واحد من المتسولين الجوالين الذين يوجدون بكثرة بالمغرب. لكن، لما تابع الطريق سوية وتحدثا

معا، فدهش محمد من العلم الغزير للغريب وقتباً له بمستقبل زاهر وينجاح باهر برأوية سيدي رمضان، شريطة أن يصارع بقوة من أجل نيل المكافئة الثلاثة به، هذا مع العلم، بأن مدعي العلم من لشباب، سيقترعون بسرعة أمام تفوقه الذي لا يضاهي. واحتكم الدرويش ثناءه بالقول: « عندما تحصل على كرسي الدعو أتعنى ألا تنسني ». قال ذلك وهو مختبئ في قرارة نفسه، ومضج لجبال الأنظمة التي ستقدم لمصوبه من طرف العلاقات المترفة بعلمه. خير أن الرجل الذي نمود على قصير، لكفى بأن طأطأ رأسه، كعلامة على الموافقة؛ إذ من الذي يمكنه التنبؤ بالمستقبل؟

هكذا، كلما قصير كصديقين حميمين، سحين بلفاتهما وبتعاقدهما وبإشراك إيمانيتهما المحدودة في الصراع من أجل اكتساح الرأوية معارفا. وعند المساء، كان كل معلمي القرية الذين أخبروا، بمجيء هذا المناس الخطير، حاضرين تحت قبة الرأوية. وقد أظفر الولد الجديد بالعديد من الأسئلة طوال الليل، لكنه خرج منتصرا بعد هذا الامتحان. ومنذ تلك اللحظة تقرر إبعاده، إذ أن شيخ الرأوية نفسه، الذي تخوف من إشجاع هذا العالم البئيس على حسبه والذي كان قد حيا ابن أخيه لشغل المنصب الشاغر، لكونه جاهلا وبلوا، سيستدعي الغريب العلامة وسيطلب منه أن يفاخر لقرية إلى جهة أخرى، يمكن أن تستفيد من معارفه الثمينة ! وهكذا انتصر المعلوم ! هذه الفئة العاسدة، العاقدة التي يطغى عليها الطمع والتكبر والتي ليس لديها من العلم إلا القليل الذي لا يكفيها كي تكون واحة جهلها وبخطئها الجسيم. فقد أعلن هؤلاء المعلومون انتصارهم وأشاعوا في كل مكان، بأن محمدا الجوال قد تجرأ ليحتمي منشردا أكثر عورا وجهلا منه. واستسلم الدرويش المسكين بدوره، حيث أصبحت وصمته الناتجة عن هذا الفضل صعبة؛ لذا غادر الرأوية مقتنيا لثمن محسوبه الذي أن يجده أبدا. وعين الشاب المتألق sémillant لمنصب كرسي النحو، علما بأن أهليته كانت تتلخص في تملقه لأغنياء المنطقة وعلاقة القرابة التي تربطه بشيخ الرأوية. إن أهالي بني رناس القرييين جدا من وحدة، لم يكونوا مستقلين تماما. فقد توجهت السلطة المخروية في أن تعرض عليهم لولدا، كانوا هم أنفسهم مراقبين من طرف أشخاص غامضين، يشار إليهم في البلد كله بلقب احتقاري وهو: " الحبارجية " (البصاصون ذاقوا الأخبار). ولأن هؤلاء الصغربين العاملين بالقبوئيس المغزني كانوا يعتبرون بأن من مسلحتهم تتلون مع رؤساء الأهالي، فإنهم كانوا يشتركون معهم في استتراف الصغفاء الذين لا يستطيعون مقاومة الاستغلال. وما زال الناس يتذكرون أعمال سي بولنوار وسي المكي وسي الطاهر الكبدلي. فهؤلاء البصاصون الثلاثة، المكلفون بمصلحة الاستعلامات، كانوا معقوتين ومحتقرين ومهاتين في القبيلة برمتها.

إن الإدارة ما قبل التاريخية، أي إدارة الأقوي، هي قائمة في بلاد السببة . والقياد هم رؤساء شجع ولهموا غداً. في كل منطقة مستقلة بالمغرب، تتعالف العائلات الغنية وتكتسب زبناء Clients وتمن القوانين وتكون هي قائمة بدون منازع.

وهذه الفوضى المغربية العربية التي تشكل موضوع اندلس دائم للأوروبيين ليست في العمق سوى أوليغارشية مؤسسة بـقن، عملت منذ قرون ، وما زال بإمكانها أن تعمل على تحطيم كل جهود ملوك مراكش الصغار roitelets . ورغم ذلك، إذا ما أقررنا بأن القوة المادية لهذه المملكات محدودة، فيجب أن نعترف بالمقابل، بأن سلطتهم الروحية تفوقها حجماً. وعليها ألا ننسى بأنهم حفنة الرسول (ص)، حيث تجري في عروقهم انماء المقدسة لمؤسس الإسلام العظيم. فمن نوجد هنا بكل تأكيد، أمام نبالة عريقة أفضل بألف مرة في نظر المسلمين، من كل الملوك العظام والأقوياء الذين يفخر بهم العالم المسيحي.

وفي الفترة التي أقام فيها الدرويش عند بني زناسن لأول مرة، كان لهذه القبيلة لشرف الذي لا تحسد عليه في التوفر على أربعة هيدهم: علي لأورباخ قائد بني خالد، ولد لأوجيل - لأوجيل (ابن اليتم)، (التسمية عربية أمازيغية) قائد بني منقوش، ولد الحبيب قائد بني عتيق، ولد البشير أو مسعود، قائد بني ورهمش. وقد تلقوا برونوس التميمي من يد السلطان نفسه الذي خاطبهم قائلاً: " اذهبوا ولا تقلدوا سلوك أولئك الخونة الذين يشكلون وصمة عار على جبين الإمبراطورية ".

وقد ظلت المغامرة الأساسية لقائد بني زناسن السابق، علاقة بالأدهان على الدولم. كان يدعى ولد البشير أو مسعود. وقبل تعيينه قائداً، قدم هو أيضاً إلى فاس وقبل الأعتاب الشريفة وأصبح مهذب الجانب في بلده، حيث حظي بالشهرة بفعل ثروته وكثرة مناصريه. وقد تمكن من القضاء على التقليد المتأونين له ببني زناسن و بتجدد. هكذا أصبح رجل سلطة بكل معنى الكلمة، محاطاً بقوة هائلة، مستعداً للتصرد على ملكه في كل لحظة ومخرباً هذه المنطقة بفعل غروقه المتكررة، ناعماً عامل وجدة بالطفل الصغير ولأن الأهالي ذاقوا درعا بهذا الطاغية الصغير Tyranneau ، فقد رفعوا شكواهم إلى فاس، معللين بأن الوصي أصبح لا يطلق ولمحين بأنه إذا لم يتم مساعدتهم، فإنهم سيضممون إلى صف ولد البشير الزهيب. وأرسل السلطان جنوده لإيقاف التأثير عند حده، لكنهم تلقوا هزيمة ذكراء وكان اندحارهم كلياً. وعندما شعر القائد بنشوة الانتصار، طمع في تسليق الدرجات العليا وسمح لأتباعه بإضفاء لقب السلطان عليه. وقد بذل الإمبراطور الشريف كل ما في وسعه وكل ما يتوفر عليه من حيل، لجلب هذا الشخص المزعج إلى بلاطه. فبحث الرسائل والهدايا والبلاغات بدون جدوى، إذ أن ولد البشير ظل بجباله التي

تسميه من كل هجوم. وأخيرا امتدى السلطان إلى الفصل مصيدة، لقد يمتد إلى القلعة، ممسكة
الخاصة وتلهل الأمان المكتوب كلية بخط يده الثرية. و " التلهل " هو كراس صغيرة وسمت
على صفحاته مربعات وجدول قبلية cabalistiques ، مرفوعة ببعض السور والآيات القرآنية،
والهدف منها هو درء كل مكروه عن حاملها. وكان هذا هو أسس دليل على الطموح المنموح من
طرف السلطان، للتأثر الذي يخشى على حياته. ولأنه اعتقد بزوال كل عوامل الحذر، لتركب
لقد قرنتي مجازفة ثلثية دعوة سيده المغفل. وما أن وصل إلى فاس حتى اقتدى إلى مراكز
تحت حراسة مشددة، حيث كان ينتظره فهو يقضي فيه بقية حياته ولن يخلو أبدا.

هكذا تم القضاء على هذا الرجل الطموح الذي كان يقيم مملكة ألامزيغية صغيرة يكون
هو الحاكم فيها. وقد ظلت نكراء في الشرق الريفي راسخة، باعتباره وطنيا شهما، صارخ إلى
آخر لحظة، ضد العرق العربي المظالم. وأصبحت أسطوره، وهي أسطورة جميلة وبراقة،
منتشرة وسط الأهالي. وهو ما جعلني أجد صعوبة في التمييز ضمنها بين الصحيح والخطي. وقد
ساهمت شاعرية المنشدين قرنتيين في تمجيد نكراء رجل ، لم يكن في آخر المطاف، سوى قلدا
طامعا وسفلاكا للنماء وتلبا منافقا.

إن بني زناسن هم فلاحون وعربو مواسي، وهم يحرثون أرضهم بأنفسهم ويزرعون
الشعير والقمح. كما أنهم يكتزون أو يمتلكون أراضي تمتد مساحتها إلى قجاد أو ثرقة، ويقودون
في فصل الربيع، مثلثتهم المكونة من الأهمام والماحر والجواد، وسط هذه السهول الشاسعة
والمعروفة بوفرة مراعيها وتوجد الطرائد بكثرة داخل القبيلة، إذ ترحل الأراقب البرية والحجل
والطيور العابرة في جنة الأحلام هذه Eldorado ، حيث لم يكن أحد يرعجها إلى عهد قريب،
لكن لما رأى الأهالي بأن هذه الحيوانات تنابح بشكل جيد بالجزائر، بدؤوا يصطادونها ويكون بها
إلى محفظتنا، حارمين بذلك لوى والجردان والتمالب وبنات عرس، والعديد من الحيوانات
الصغيرة أكلة اللحوم والمنتقرة في هذه المنطقة الجميلة، من وجهتها المعتادة. ويتم دفن موتى
بني زناسن بشكل عام، في المساج، وهو المكان المقدس الذي يفضل على الأمكنة الأخرى.
وتعطي القبور الحديثة المهد أو التقديم، بزرابي يجلس المؤمنون فوقها، ليلا ونهارا، للصلاة
والأكل والنوم. وإذا ما طلبت منهم تفسيراً لهذه العادة الغريبة فإنهم يجيبونك قائلين: " لا يوجد
مجتمع أفضل من مجتمع الأموات لهم ليس هناك فضول ولا خيلة ولا أي شيء يثير الفحشة.
إنهم أشخاص مخلصون ولطفاء خير مزعجين ". ومع ذلك ، يحدث ألا تقسم المساجد لثمانين
لموتى. إن ذلك يكون الأهالي مضطرين لتوفير مقبرة، عادة ما يكون موقعا قرب المسجد، أي
تحت ظلال شجيرات القيق الوعشي المحيطة بكل المساجد. ولا تعطي القبور الموجودة بالحراء

بأي احترام، إذ يتكى الأهالي لقضاء حاجتهم وسط الصبار دون أن يكونوا على علم بأن المكان الذي يلوئونه يتضمن قبراً ما. وهذا التكنيس الشنيع يحصل بدور وعي من أصحابه، لأن التلووث يطل في العادة قبوراً قديمة، يرقد بها أجداد مسيون. ولا توجد شواهد تخبر الأحياء بأن هناك بدحو ثلاثة أو أربعة كدام تحت الأرض، يرقد جيل بأكمله إلى الأبد.

القرى الرئيسية ببني زناسن

قسم بني وريمش

- أولاد علي الشهاب، 50 منزلاً، على واد تافما، شمال هذا القسم؛
- تافما (الوادي)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل، على الواد الذي يحمل نفس الاسم. وهي قرية أهلة بالشرفاء الذين يدعون بأنهم حفدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول (ص). وتوجد حول هذه القرية الكبيرة، أربعة قرى صغيرة يسكنها ناس بسطاء، يعتبرون أنفسهم " خداما " لشرفاء تافما.

- سيدي سعيد، 10 منزل؛

- سيدي الحاج المسعود، 100 منزل، على واد تافما؛

- ولد البشير أو مسعود، 100 منزل، وتحتل موقعا منيعا وسط الجبل، ويقال بأن ولد البشير المشهور شكل بها حاشية وشيد قصره المعروف تحت إسم الدار البيضاء. وقد تغلت به قصيدة عربية، سائتر نصها الأصلي وترجمته إذا ما لمد الله في عمري. ويوجد سوق الأربعاء بالجنوب الغربي من القرية.

قسم بني عتيق

- قراغين (اليابسات)، (التسمية أمازيغية)، 300 منزل، جنوب سوق التلاكاء.

- زكزل، (الأراضي الغرابيتية)، (التسمية أمازيغية)، 500 منزل، وتوجد بوادي رافع مليء بأشجار الزيتون. وهناك يقطن أولاد الحاج المسعد، وهم شرفاء منحدرين من مولاي أحمد الإدريسي.

- مولاي إدريس، 300 منزل. إن مئات القزوايا والقرى المغربية، تحمل الاسم شبه المقدس للمؤسس العظيم لأسرة الأدارسة؛ إذ تحكي الأسطورة، أن إدريس الأول كان يحب تشييد المساجد أينما حل. وتوجد القرية التي تهمنا غير بعيدة عن منابع واد زكزل.

- بني موسى، 500 منزل، على المنحدر الجنوبي لجبل بني عتيق؛
- أولاد الطيب، 50 منزلا، عند بداية سهل بني عتيق؛
- العطش، 100 منزل، توجد بسهل جنوب شرق سوق الأحد. وهناك من يرمي بأن القرية تحمل هذا الاسم، لأن سكانها مختصون في صنع المطاطوش (مفرد ما عطوش وهو هودج يوضع على ظهر الجمال)
- سيدي بوهريّة، وهي زاوية فخمة توجد بالطرف الشمالي لصحراء أنجاد. ويأتي أهالي بني ريان وكل قبائل الرحل لزيارة قبر هذا الولي الصالح الذي لم يتمكن من التوفيق على أية معلومة تتطرق بسيرة حياته.

قسم بني منقوش

- سيدي رمضان، 100 منزل، وهي زاوية شهيرة أسسها سيدي رمضان. وقد توفي خلفه المباشر سي المكي في السنة الماضية (1894)، وكان هو "مقدم" طائفة مولاي الطيب الوراني. وتتوفر هذه الزاوية على أتباع كثيرين بيني زناس وبني سلوس، عندها { بالجزائر } . وقد خلف سي مفتاح بن السي المكي والده في الوظائف السامية لمقدم زاوية مولاي الطيب.
- مولاي إدريس تريفّة، 10 منازل. سكانها ورعون كثيرا . ويوجد بالجنوب سوق الأرباء الذي يقع مثل القرية، على واد بني وكلاء؛
- زاوية سيدي الأخضر، 10 منازل، أهلها من الشرفاء.
- زاوية سيدي علي البكاي، 100 منزل، وتتوفر هذه القرية على زاوية كبيرة مأهولة بأتباع زاوية سيدي محمد بني بوزيل، سيد مدينة القفادسة بالدهرة . وكان سيدي علي البكاي مجنونا شهيرا. ويحاط واد بني وكلاء من الجانبين بروايا عديدة . ولربما ، لهذا السبب سمي بواد الحيد، أي عبيد الله.
- القلعة، 200 منزلا، قرب منبع واد بني وكلاء. وهناك، احتفل محمد بن الطيب سنة 1893، بعيد الأضحي.
- أوت عهد الكريم، 20 منزلا، غير بعيدة عن منبع واد صفرو.
- مولاي إدريس النخلة، 50 منزلا على واد صفرو. وهي زاوية كبيرة لمولاي إدريس. وترجع هذه التسمية إلى وجود نخلة كبيرة، بالغة القدم، يقال إن السلطان الإدريسي الشهير، قد عرسها هناك. وهو ما يجعل عمر هذه الشجرة المحترمة يناهز 1105 سنة !
- أولاد ميمون، 100 منزل، على واد صفرو.

- صفرو (أصبح لونهم اسفرو)، (التسمية عربية)، 500 منزل على واد صفرو وحسب
الأمطورة، فإن اسم هذه القرية الكبيرة يرجع إلى أمرى الحرب الذين كان أحد سلاطين
الزنتيين يسجنهم داخل زلازلة لمدة طويلة، إلى أن يتأكد بنفسه من أن لون جلدهم أصبح
كالفصين، لذلك يطلق سراحهم ، لكن هؤلاء المساكين الذين بلغوا أقصى درجات الإكهاك،
يموتون بعد ذلك بقليل.

وصفرو عبارة عن مدينة صغيرة مليئة بالمساجد والزوايا، ويوجد بها عدد كبير من
الطبية. وما زال الدرويش يتذكر بنوع من الحنين، المأهبة الكبيرة التي أقيمت سنة 1888 بمناسبة
عيد الضحى، لذلك حمل معه ذكرى طبية عن عاصمة بني زنانس.
- مولاي إدريس متاع صفرو، 10 منازل، على واد صفرو جنوب سوق الجمعة. وهي
زاوية صغيرة مخصصة لمولاي إدريس.

قسم بني خالد

- أغبال (الممر)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل، جنوب سوق الاثنين. وتوجد بها
أشجار ومنابع مائية عديدة.

- تاغجبرت (لزارة)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل؛

- أوقتي (السهل)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل؛

- زاوية ملحي الدين، (المقصود بهذه التسمية، من يلقي الذبائح الأخرى، وهو لقب
الرسول (ص)، 10 منازل. وكانت تسمى من قبل زاوية مولاي عبد القادر الجيلالي. وفي
السنين الأخيرة، كان يدبر شؤونها " مقدم " يسمى ملحي الدين (ملحي الدين) ويشرف على
" لورد " الخاص براوية هذا الولي الصالح. وقد عرف هذا الشخص بهذه الكبير وأصبح مشهورا
بالمسقة، إلى درجة أن الزاوية اشتهرت باسمه. وقد توفي سنة 1892 وترك أبناء عديدين، تولوا
الإشراف على الراوية من بعده. وتقع هذه الأخيرة عند سفح الجبل، وجبتها الشمال، وتحيط بها
بساتين الفواكه الرائحة، كما أنها غير بعيدة عن منبع واد كيس.

* - ملحوظة المترجم: لا ندرى من أين نشأت المواقف الواردة لهذه التسمية. ونعتقد بأن الأمر يتعلق بمحي الدين
وليس بملحي الدين.

- زاوية الهيري، 10 منازل، جنوب بني زنان. ويقام بها " ورد" درافلة. وقد كان مؤسسها سيدي الحاج محمد الهيري كريما إلى درجة أنه كان يهب دوما للمساكين الذين يطلبون الصدقة، قطعا من اللحم دون عظم (عبرة)، ومن هنا جاء اسم الزاوية. كما أن حلقته الحاليين يتميزون بكرمهم الكبير. وهناك أكثر من 100 قرية صغيرة موزعة على القبيلة. قنوى العسكرية: 1200 رجل، نصفهم فرسان والنصف الآخر من المشاة. حدد المكان المحتمل: 56 ألف نسمة. المنطقة جبلية. التعليم القراني منتشر بكثرة وهناك العديد من المساجد والزوايا، كما يتميز الأهالي بالتعصب المفرط.

قبيلة مفرولة

(أرض الإثلاف) ، (التسمية عربية)

سيهر محمد بن الطيب بحبوب قريف، عبر لولاد ستوت، بني بويحيى، لمطالصة، مفرولة ، بني بشير، تاركا وراءه قبيلة بني زنان ومحمدا كهدف، غرب إقليم جبالة. وقبل أن يغادر نهائيا هذا الإقليم المتوسطي الغريب، حرص بشدة على معرفة كل القبائل المتولدة فيه. هكذا، استمر في تجواله مدفوعا بمصيره العجيب، الذي سيجعل منه أحد أروع المكتشفين في هذا القرن (التاسع عشر).

لقد اجتاز دون توقف المناطق الريفية المعروفة لديه، وفي الطريق كان يلتقي أحيانا بأصدقاء قدامى، يطلبونه دون جدوى، بالبقاء معهم. لكنه كشخص دائم التجوال، كان يقبل ضيافة يوم، يأكل فيه جيدا وينام بشكل أفضل، وفي الصباح، وبعد أن يلفظ القبار عن ملابسه، يتابع سيره، بعد أن يكون قد خاطب مضيفيه بالمباركة التالية: " القعدة سجن والسجن قبر".

وأخيرا وصل إلى مفرولة، وهي قبيلة صغيرة تشكل أقصى نقطة في الجنوب الغربي. وتوجد مفرولة ، المحاطة من كل جانب بأراضي جبلة باستثناء الشمال حيث ترتبط بقبيلة كزنانية، في موقع يحميها من الهجمات المستمرة لجهيراتها الأقوياء. وهي تشغل المنحدرات الشمالية للسلسلة الكبيرة من الجبال الجنوبية بالريف. وتسمح لها مساحتها الصغيرة التي لا تتعدى عشر كيلومترات من كل الجهات ، بأن تكون متخفية بالقسم الريفية الأخيرة التي تطل منحدراتها من سيد. جهة الجنوب، على مدينة فاس الكبرى.

وغالبا ما يجري واد مغرولة في الوديان العميقة، حيث يشق بصعوبة ممرا في الأرض غير المستوية. وفي كل مكان، تتراءى للناظر حضرة يلامعة. فأشجار البلوط الضخمة تظلك شجيرات جميلة، نجد من بينها على الخصوص، شجيرات القسطنق ذات الراتحة الزكية. وعلى طول النهر، تشكل أشجار الصنوبر والحمور، قبة من الأوراق الكثيفة فوق المجرى الصغير للماء الصافي الذي يمر بين الصخور، رغم وفولها حاجزا أمامه. وتتوالى القرى الكبيرة والصغيرة، حيث يوجد بعضها داخل الغابة. أما البعض الآخر الذي يشكل الأغلبية، فيوجد على ضفاف النهر.

إن أمالي هذه المنطقة الجبلية منزلون، فهم لا يبرحون ديارهم ويكرهون جيرانهم، عرب جبلة، الذين يغشون غدرهم. وهم أمازيغ لها عن جد، يتحدثون تمازيغت الحقيقية ولا يفهمون كلمة واحدة من اللغة العربية، ويرتكون جلابة رمادية، يوضونها في فصل الصيف فقط بالعفك، لأن المناخ بارد في قسم جبالهم. ويحترق الشحير زراعتهم الرئيسية؛ وفي بعض الأجزاء غير المحروثة، تلبث الحفلة التي لا تستعمل إلا لأدرا.

غير أن البرد والطعام الرديء وهباب بساتين الفاكهة والخضر، يستعمل برحيل الدرويش الذي لم يستقر سوى مدة قصيرة بهذه القبيلة التي تتضمن قسمين وهما: أنرار (الجبل) (التسمية أمازيغية) وإيمانسن (المنكمنون)، (التسمية أمازيغية كذلك).
ويوجد كل قسم 1500 رجل مسلحين بالبندق، أي ما مجموعه 3 آلاف من المشاة. أما عدد السكان المحتمل بالنسبة لكل القبيلة فهو 15 ألف نسمة. وبشمال هذه القبيلة، يجتمع حشد من الباقين والمشتريين، بسوق الاثنين حيث تعرض كل المنتوجات بثمان مناسبة.

قبيلة بني بشير

إن هذه القبيلة الواقعة كلية فوق الجبال الصنهاجية للريف، لا تتعدى مساحتها عشرين كيلومترا، طولاً وعرضاً. وتحد شمالاً بمتونة وزرقات، وشرقا وجنوبا بإقليم جبلة وغربا بتاغروت وبني بونصر وبني خموس وبني سداث.
والمنطقة كلها عبارة عن شابة شاسعة تتواجد فيها بكثافة، حوالي ستين قرية صغيرة محاطة بالصخرة من كل الجوانب. إن أشجار الدردار والبلوط والفلين المجاورة لأشجار النواكه كالحوز واللوز والمشمش، كان بإمكانها أن تجعل من قبيلة بني بشير، إحدى أغنى المناطق بالريف لو أن أهلها أحسوا التصرف بثروتهم القبلوية. لكن لا شيء يتم استغلاله هناك.

والأمايلي يكتفون بجني ثمراته الأشجار، دون معرفة بفائدة الفلين ودون أن يفكروا أبدا في بيع خشب الدردار أو قبوط لصقعي الأسلحة بتاغزوت. فالإهمال والتفريط هما الكلمتان اللتان تنصرون دائما، عندما نتحدث عن هذا القباد الرائع الذي يسمى المغرب.

ونظرا لوجودهم بجوار جبلة، فقد كانوا يستعملون العربية فيما بينهم خارج المنزل، أما بداخله، فإن النساء والأطفال لا يتكلمون ولا يفهمون سوى تمازيغت. ونساء القبيلة مفكرات، فهن يصنعن كل الأنسجة من جلابة وحايك، وهذا لا يصعب من القيام بالحصاد وجلب الحطب والماء والاعتناء بالماعز. وما يمرهن هو سلوكهن الذي لا تشوبه شائبة. ورغم أن الرجال هم أهل الشتمالا من زوجاتهم، إلا أنهم يقومون ببعض الأعمال مع ذلك. فهم يحرثون ويكثرون الأرض التي يصعب اختراقها بالمحراث ويقومون بالهستة في كل مكان تقريبا، لأن المنطقة مليئة بالمنايع التي تساهم مياهها المنعشة في إثبات الحياة بكل أشكالها. وتحيط القرى الصغيرة بخيرين صغيرين منيعين من هذه المنايع وتجري مياههما من الجنوب إلى الشمال. ويتعلق الأمر بواد بني بشير الذي يمر في جرنه الجنوبي غابة رائعة من الدردار وبواد الزاوية، سمي كذلك لأنه ينبثق من منطقة قريبة من زاوية تاسيلت (الدردار)، وهي قرية من 100 منزل.

ولم يستقر محمد بن الطيب كثيرا عند بني بشير. فقد كان فصل الشتاء على الأبواب، ولأن الرحالة النافذ قصير كان يخشى من أن تعاصره الثلوج فوق القمم الباردة للقبيلة، فإنه رحل عند نهاية الحريف وتوجه صوب جبلة، بعد أن تأكد من أن بني بشير تضم ثلاثة أقسام وهي: تاسيلت (الدردار) (التسمية أمازيغية)، بني بكر (التسمية عربية)، أيت يحيى (التسمية عربية أمازيغية). ويوجد كل قسم 1500 رجل، أي ما مجموعه 4500 من المشاة بالندسية للقبيلة برمتها. وتعتبر البندقية الطويلة المصنوعة بتاغزوت، بمثابة السلاح الناري الوحيد المعروف هناك. عدد السكان المحتمل 22500 نسمة. قطاع محدود وسط القبيلة. المنطقة جبلية وتوجد بها العديد من المسالك التي تجوبها البغال.

إن ترك الدرويش يعتمد عن قريب، قبل أن نلقي نظرة أخيرة على هذا الإقليم الصغير الذي كان إلى الأمام القريب، يشكل آخر جزء مجهول على الساحل المتوسطي والذي مازال مستقلا، كما كان منذ مئات القرون، متوحشا باستمرار ومعززا بحريته اللامحدودة التي تجعل أهاليه مفتكرين بأنهم بمنأى عن التداخلات والغزوات الخارجية. لكن هل نعلم ما الذي يخبؤه المستقبل لهذا الإقليم؟

يبدو في الوقت الراهن، أن الريفيين سعداء جدا بحياتهم التي يقضونها في جهل وفوضى كاملين. فهم قلقون بسلطانهم المعتقة. وأولئك الذين سحقت لهم الفرصة من بين الريفيين، لرؤية

مبتكرتنا الحديثة كالسكك الحديدية والتلغراف، لم يعبروها أي اهتمام، وهم يشبهون لي
لامبالاةهم، ود فعل مقوم المسكين إزاء الدرجة الهوائية. أما ولزمهم، هي الحياة التي يقضونها
وسط الطبيعة الرقعة والهدوء السلكي للقبائل، الذي لا يزعمه سوى النفس الخلاق، الأتني من
أعناق اللاتهامي. أثناء مرور العواصف الكبرى.

وإذا كان قدر المكنون سوحتم على بلد الحروب هذا، بأن يخضع لسيطرة الأجنبي، فإن
ما نتمناه هو أن يحكم من طرف فرنسا، لأن وطننا الدائم، للتطيف مع رعاية المسلمين، دلب على
مماثلهم بشكل جيد، لتصل بكل تأكيد، مما هو عليه حال الرعايا المسلمين الآخرين الخاضعين
للأم الأوروبية الأخرى.

* - ملحوظة المترجم: مرة أخرى يتضح بجلاء البعد الاستعماري لهذا العمل الإثنوغرافي الذي يظل مشرقاً
ومشرقاً مع ذلك.

خاتمة

والآن، فته الذين يقرءون هذا الكتاب، كحما كنتم ، فقرأوا أو اكتبوا، أو طمسوا، طمسوا كجاء أو اكتبوا طمسوا، لا تنتظروا مني تركيبا ولا تحليلا لمعنى هذا. فإذا لم يكن قد أُرجمكم كثيرا، وإذا كان قد اختلف إلى محارفكم شيئا ما، فساكون مرتاحا، لأنني سأعرف بأن معناه لن يكون هو الإحراق. ويمكن تفسير هذا الجزء من عملي بالرجوع إلى كلمتي العنوان وهما: المغرب المجهول وإلى 32 صفحة من التمهيد إضافة إلى المقدمة.

وحتى يتم إسكات النقد السيئ فنية أو المحدود الأفق، فبني لري نفسي ملزما بتقديم توضيح وجيز. طبعها هناك ثلاث فرضيات ستبدو لكم منذ قراءة الأسطر الأولى من هذا الكتاب وهي كالتالي: إما أن الكاتب قد خدع من طرف كل الرحلة المسلمين وإما أنه هو نفسه مفادع وإما أنه قال الحق وليس شيئا غير الحق ، وفي هذه الحالة، فقد كشف لنا عالما مجهولا.

ألم هذه لشكوك، ما هو المعيار الذي يمكن إتباعه للحكم على القيمة العلمية للكتاب وعلى صدق المكتشفين وعلى حسن نية كاتب هذه السطور؟

بني لا لري سوى معيارا واحدا، وهو معيار حاسم.. فإليك بيانه: افتحوا هذا الكتاب ولوقروا أي ربيع انقضى به، متعلما كن أو جاهلا، وقرؤوا عليه الجزء المتعلق بقبيلته وبالمنطقة التي يعرفها، وسيكون جوابه ورد لفظه بمثابة دقة لي أو إثبات لما قلته. وكم من مرة كنت بنفسي بهذه التجربة ! ففي لفة وهران وبالقباية وداخل الإقليم، كنت كلما انقضى بالريغين، إلا ودلوت منهم وتحشت لهم طويلا عن بلدهم، مقدما القبراهين على أنني أعرفه منهم قريبا. وكان ذهلهم يترجم مباشرة بوجل من المعلومات الجديدة والأسرار الثمينة التي أستفيد منها قدر الإمكان. وكان العديد من أسفلاتي المتواجدين معي صنفه، شاهدين أحيانا على هذا التحري الأصل والمتواصل وعلى لدهشة العميقة للأمازيغيين الذين سيشرعون في الكلام دون توقف، بعد ربع ساعة من الحديث معهم، ملحين على البقاء بجاني ومنساقين وراء المتعة اللطيفة التي يجلبها بهم التحدث عن موطنهم البعيد وعن العادات والتقاليد التي التقوها في أرض المهجر العربية عنهم. وقد كانت كلمة سحرية واحدة، تفتح لي القلوب، وتخرج من بين شفاه هؤلاء الرجال البسطاء، أسراراً ظلت مكتومة بطنية من قبل؛ إنه الاسم المجد للرسول (ص)، هذا الاسم المقدس الذي لا يذكره المسلم بشكل مجاني. وكانت أحظى بامتياز عظيم، هو ذكر الرسول (ص) بأنهم واستحضار أحاديثه السامية، بهدف البرهنة على أن من يطلق بها، يتوافر على الإيمان الصادق.

لها أيتها القوة العارضة للغة، بفضلك توصلت إلى النتائج المثمرة لهذا الفصل وشعرت
 بالنبذة الداخلية أمام الحصاد الهائل الذي اكتمل كتريجيما والذي أهدى ثماره الأولى إلى تلك التي
 لا أستطيع ذكر اسمها دون تذكرك إلى أينما جئنا، إلى فرنسا العظيمة والكريمة دائما.
 لكنني سأكون ذكرا للجميل، إذا لم أفكر في رجل الذي أرسلته إلى الحماية الإلهية، والذي
 كان بمثابة القنصل الذي لا يفتر يمس والمنتجع الرئيسي الذي نهلت منه، والدماع الهائل الذي أتيت
 منه علم لم يكن معروفا. وهذا المتحول الغريب، هذا الفقير العظيم التي قد تقدم إليه الصدقة
 إشعاعا على سطره البهيم، ما راق موجودا في المغرب. وقد توصلت منه بتاريخ 17 أكتوبر
 1895 بالرسالة التالية:

« الحمد لله وحده،

إلى حضرة سيدي مولاي راس، عليك سلام الله تعالى وبركاته، أما بعد، فإن سألت هنا
 فيها أنا بغير وعافية ولكن السؤال منا إليكم والملاقة معكم في ساعات الخير نحو ثلاثة أشهر،
 والآن ترقى في بلد الدار البيضاء ولابد أن نخبر أصحابك بما كان والسلام.
 وكتب في 20 من صفر الخير، عام 1313. محمد بن الطيب ولفه الله.

وبتاريخ 20 صفر 1313 يوافق 11 غشت 1895، ولم توضع الرسالة بالبريد إلا في 09
 أكتوبر وذلك بالصويرة (موجدور) وليس بالدار البيضاء، كما تشهد على ذلك قطاويح البريد
 بالعلم. ويمكننا تخمين أن الدرويش أتته في مكان ما داخل مقاطعة الدار البيضاء، قد أودع
 رسالته وهو يهيم بقتول وسط المغرب، إلى أخ له في القلة كل مدعو للسفر إلى الصويرة
 (موجدور) لقضاء أغراضه. وهذا الأخ الذي لم يتمكن ربما من السفر، أعطى الرسالة إلى
 شخص آخر وهكذا نواله، إلى أن وصفتها يد مجهولة بصندوق البريد بالصويرة، بعد مرور
 شهرين على كتابتها !

وكيفما كان الحال، فإن الدرويش كان بتاريخ 11 غشت الماضي، يتمتع بصحة جيدة. ولما
 متيقن بأنه يتجول الآن (10 نوفمبر) في قلب المغرب ذاته، هناك حيث لم يبق لأي أوروبي أن
 وضع قدميه. فأني حصاد رائع سيجلب لي، لو تمكن من مغادرة هذه الإمبراطورية الخريبة !
 لقد ترك لي هذا المكثف الجري قبل رحيله، وبعثني شينتين وهما: عصاه التي
 يستخدمها في السفر وزوج من المال. وكانت لديه بدون شك عصا أخرى بديلة. أما بخصوص
 النعلين، فيما أنهما كانا جديدين تقريبا، فإنه فصل عدم تعريضهما لأطماع المفارقة وذلك

بلدا عينا عندي والذئاب حلقى القنصير ولحوق ظهره جلابة مهلهلة، وهو متيقن بأنه سيجد وديته
 الصغيرة بالممرل كما تركها، فيا للمسكين، لقد كالت تلك هي كل ثروته !
 أما الجملة الأخيرة من رسالته والتي اعتبرت لغزا بالنسبة للجميع، فإنها واضحة بالنسبة
 لي فهي تقول: « ولا بد أن تغير اسمك بما كن ». ومضى ذلك، لم ينشر مؤلفك " المغرب
 المجهول" وبشر اسمك بذلك. والأصدقاء الذين يقصدهم طيما هم الفرنسيون لأن هذا الرحالة
 الساذج، كان يعتقد بأنني أعرف كل واحد من أبناء وطني وأن كل حفة الخالين المحترين بأنفسهم
 Fiers Gaulois ، هم أصدقائي الأعزاء والحميمين جدا بدون استثناء.
 وها أنا كنت بتنفيذ وصيتك يا عزيزي الدرويش المسكين، لقد أنهيت كتاب " اكتشاف
 الريف"، ولم يبق أمامي سوى أن أكتب وأنا مرتاح.
 تنتهي الجزء المتعلق بمنطقة الريف.

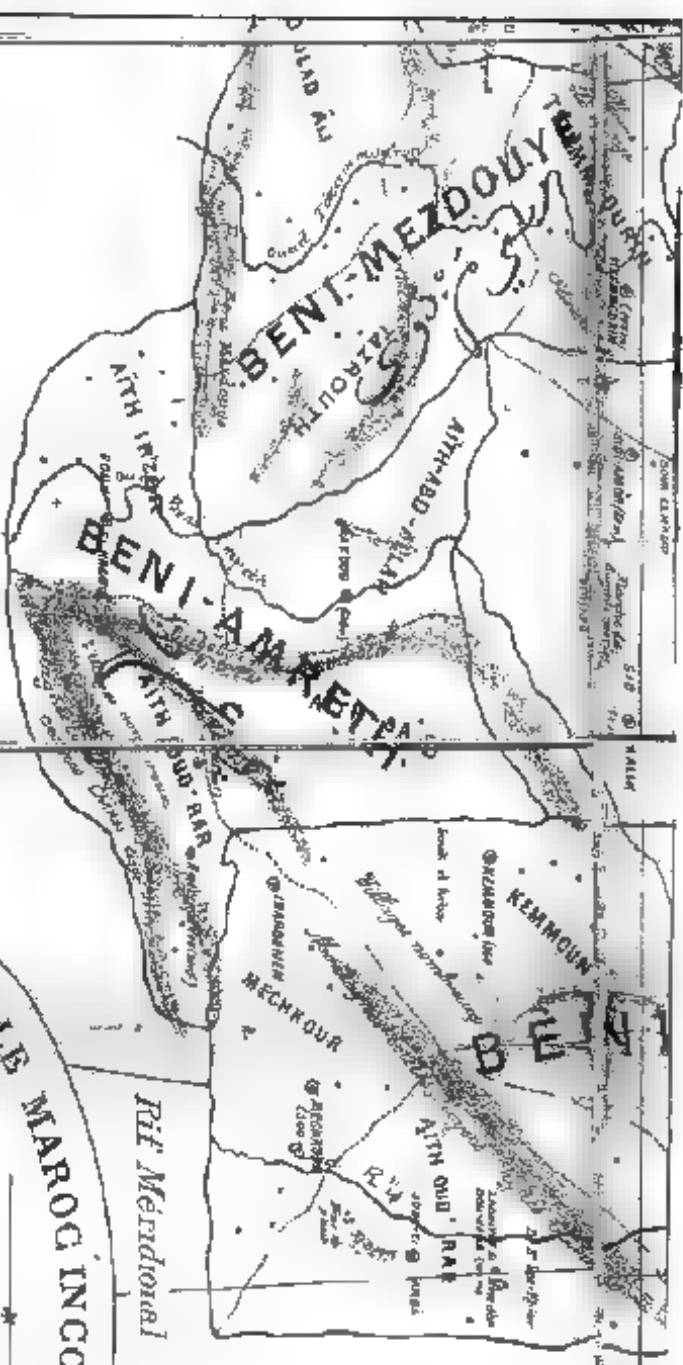
ملحق

الخرائط

[illegible]

Oriental

5. *if*



Rif
 (Maroc septentrional)

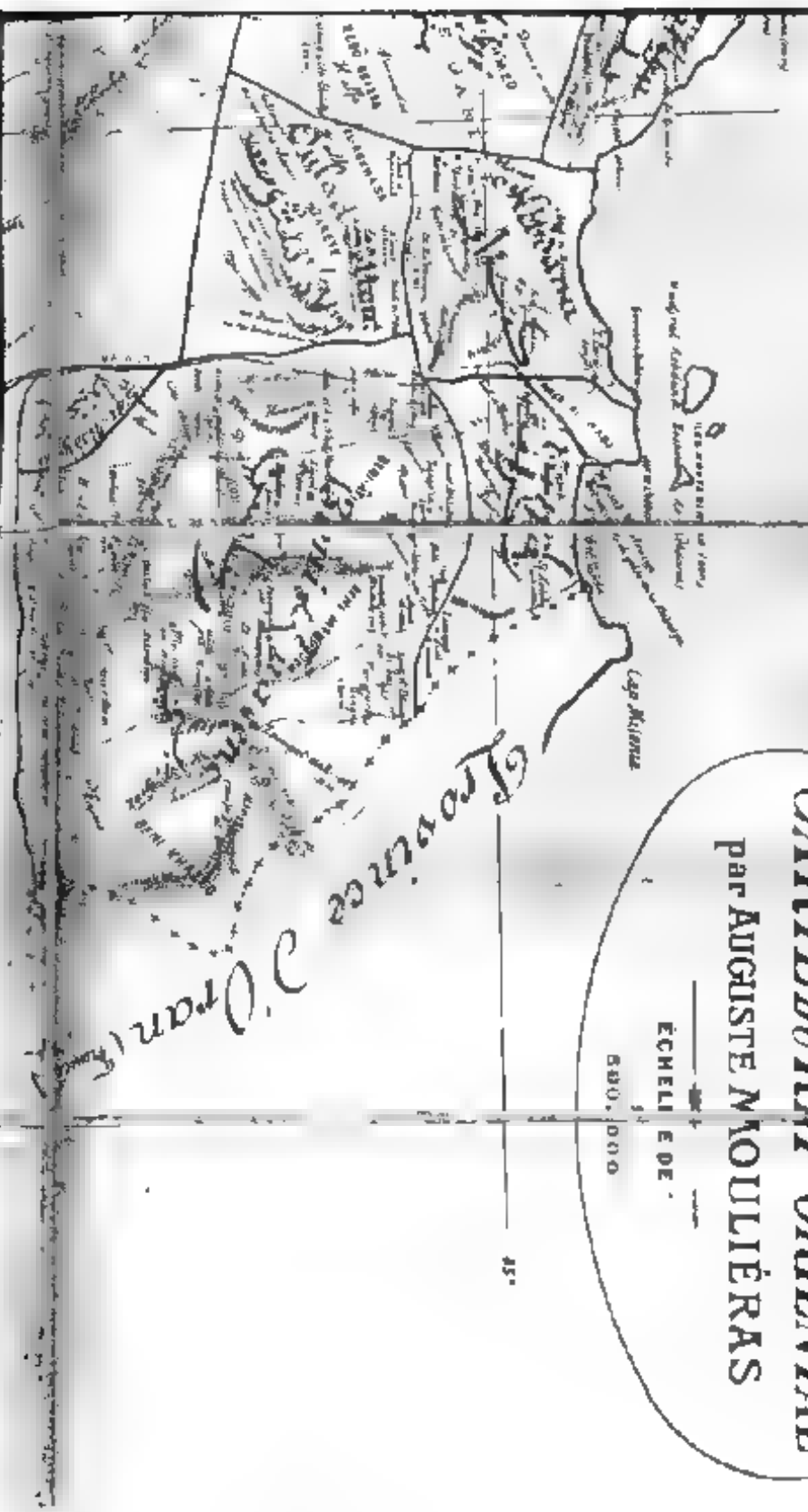
LÉGENDE
 — Limite des Tribus
 — Limite des Fractions de Tribus
 ••••• Mines d'Or d'Argent etc etc

LE MAROC INCONNU (partie)
CARTE DU RIF OCCIDENTAL
 par AUGUSTE MOULIÉRAS

ÉCHELLE DE 1:250,000

Rif

Méditerranée



LE MAROC IN CONNU (1^{re} Partie)

CARTE DU RIF ORIENTAL

PAR AUGUSTE MOULIÉRAS

ÉCHELLE DE

680,000

Province

Océan

Province des
Ile de la

Kennedy

Wm. H. Bond

AITH - DKAUI

210
BEN
NBU

EL-ART

1400

City & County

Amoragized Forth

11-11-11

3/10/2023

Page 14



Handwritten signature: *Shahidul Alam*

॥

97

2. *Microgaster*

of early childhood

■ *Stomoxys calcitrans*

• *Staphylococcus aureus*

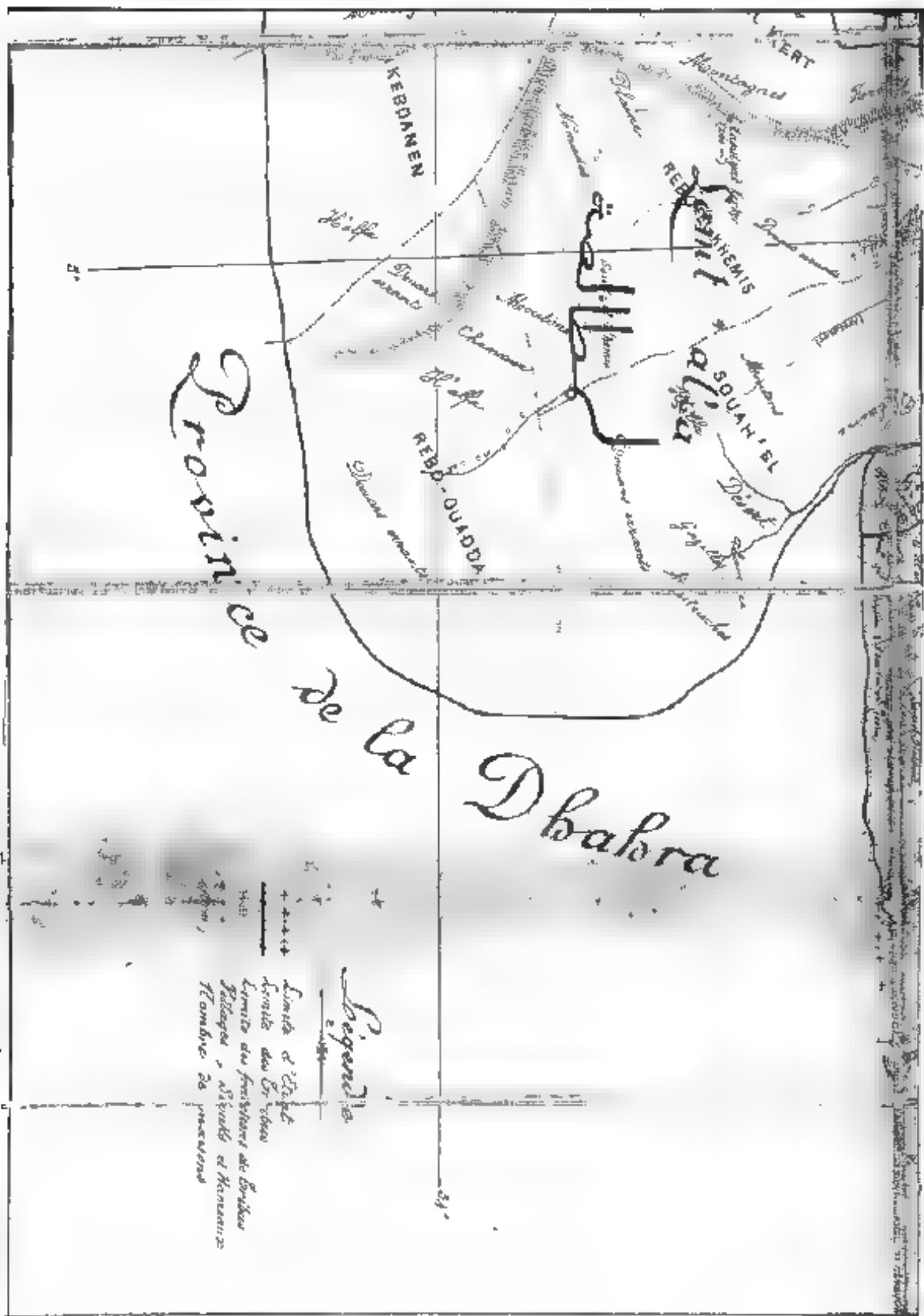
10

Dhahra

Province de la

Légende

+ + + + +
 Limite de l'État
 Limite des tribus
 Limite des frontières de l'Égypte
 Villages, tribus et Hammas
 Hamme de l'État



الفهرس

- 5 - مقدمة المفرجم
14 - تمهيد: لماذا وكيف أنجزت هذا الكتاب؟

المغرب المجهول

- 28 - مقدمة: تاملات عامة حول المغرب
29 - أقاليم المغرب
30 - الاسم الحقيقي للمغرب
31 - الأعراق
31 - الأمازيغ
33 - العرب
35 - الزنوج واليهود
36 - ثروات وسكان المغرب
39 - الدور الموكول لفرنسا في الشمال الغربي لإفريقيا

المغرب المجهول: اكتشاف الريف

- 43 - توطنة
49 - كيفية تدوين الكلمات العربية والأمازيغية والنطق بها
51 - ملاحظات

المغرب المجهول

اكتشاف الريف : قبائل الريف

- 54 - قبيلة تاغزوت
61 - قبيلة بني بونصر
63 - قبيلة بني خنوس
64 - قبيلة بني سيدات

70	- قبيلة متيرة.....
80	- قبيلة بني جمول.....
87	- قبيلتا زرقث وتارجيست.....
91	- قبيلة بني بوفراح.....
93	- قبيلة بني بطف.....
96	- قبيلة بغيره.....
100	- قبيلة بني ورياغل.....
109	- قبيلة تمصمان.....
120	- قبيلتا بني تودين وتفرست.....
125	- قبيلة كزنلية.....
128	- قبيلة لمطالصة.....
131	- قبيلة بني عريث.....
134	- قبيلة بني مزغوي.....
135	- قبيلة بني ونشك.....
137	- قبيلة بني سعيد.....
144	- قبيلة بويحيى.....
148	- قبيلة قاحية.....
176	- قبيلة كبدانة.....
181	- قبيلة تريفنة.....
185	- قبيلة أولاد ستوت.....
191	- قبيلتا بني زنانين وبني محيو.....
203	- قبيلة مغراوة.....
204	- قبيلة بني بشير.....
207	خاتمة.....
210	ملحق.....
219	الفهرس.....

إصدارات المترجم

1- الأعمال الفردية

- سوسيولوجيا التقليد والحداثة المجتمع المغربي (تأليف)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001.
- مسارات الدرس الفلسفي بالمغرب (تأليف)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002.
- محمد عبد الكريم الخطابي، القائد الوطني (تأليف)، منشورات تيفرازي ن أريف، الرباط، 2003.
- في الترجمة الفلسفية السياسية والأخلاقية (مجموعة نصوص مترجمة)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004.
- هابشر والنظرية (نصوص مترجمة لهابشر)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2005.
- حول الفلسفة والصين، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 2006.
- أسئلة الفلسفة المغربية (تأليف)، منشورات الزمن، الرباط، 2000.

2- الأعمال المشتركة:

- سارة كوهلمان/ روجي لاويرت، منخل إلى لفظة جاك دريدا (ترجمة) دار إفريقيا / الشرق، الدار البيضاء، ط 1، 1991، ط 2، 1994.
- دريدا، شاعلي كوهلمان، درس الفلسفة (ترجمة)، لمغربية بيقان، سلا، 1998.
- جرمين تيليون، الحرير ولها الم، تاريخ النساء في مجتمعات المتوسط (ترجمة) دار الساقي، لندن/ بيروت، 2000.
- سيمنا أيلاند النامية، بين التعميش وتأكيد الذات (مجموعة نصوص مترجمة)، مطبعة كوثر، الرباط، 2000.
- مقبول مارييا كاريلو، خطابات الحداثة (ترجمة)، منشورات ما بعد الحداثة، فاس، 2001.
- إيمون جيهيس، أسئلة الكفالية (ترجمة) منشورات ما بعد الحداثة، فاس، 2003.
- لورنس كورنو، ألان فارنو، الخطاب الديالكتيكي، أسئلته ورمزيته (ترجمة)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003.
- منخل إلى لفظة ليمانويل لافلس (نصوص مترجمة)، منشورات اختلاف، الرباط، 2003.
- ألبيب جوتليبر، نصر نهم صيق للكفاليات (ترجمة) منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2005.
- لفر الكفاليات (ترجمة عمل جماعي لدوازي، بيرو وأخريين)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2005.

- ميشال هار، فلسفة الجمال، قضايا وإشكالات، (ترجمة)، منشورات ما بعد الحديثة، فاس، 2005.
- نحر كرامة جديدة لتاريخ الفلسفة، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 2006.

3- الأعمال الجماعية:

- تدريس الفلسفة بالثانوي وتجديد العمل التربوي (تأليف)، سوكي إغون، طنجة، 2001 (منشورات مجلة ويلي، مكناس).
- الكلمة الموسيولوجية عند عبد الحليم طليم (تأليف)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرل فاس، دار ما بعد الحديثة، فاس 2002.
- الفلسفة والمدينة (تأليف)، منشورات ويلي، مكناس، مطبعة سوكي إغون، طنجة، 2003.
- الفنون في المنظومة التعليمية بالمغرب، وضعيات ورهلات (تأليف) منشورات ويلي، مطبعة سوكي إغون، طنجة، 2003.
- نحر كرامة الميثاق الوطني للتربية والتكوين، (تأليف)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004.
- أسئلة الواجب والوجود الإنساني (تأليف)، منشورات ويلي، مطبعة سفين مكناس، 2005.

اثنا عشر وعشرون سنة من الاكتشاف في
هذه الربوع المجهولة من 1872 إلى 1893.

روايات مهمة لرحالة مسلمين، تتعلق
بالأرض والسكان والعادات والتقاليد
والأعراف والمنتجات الفلاحية والصناعية
والتجارية والثروات المعدنية والغابوية والرعية
وساكنة البلد والقوى العسكرية والإدارة
واللغات والأعراف.